زينب الشمري

ELECTRONIC LIBRARY
10.8.2017

ينقصني أنت

رواية

الفارابي

ينقصني أنت

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

زينب الشمري

ينقصني أنت

رواية

دار الفارابي

Telegram: electronic_library

الكتاب: ينقصني أنت
المؤلف: زينب الشمري
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/ ٣١٨١ – الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تموز ٢٠١٥
ISBN: 978-614-432-377-9

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

Telegram: electronic_library

الإهداء

إلى المارين خفية بين هذه الأسطر.

إلى الذين أعنيهم والذين لم أعنِ منهم سوى كلمات رددوها يوماً لي.

إلى أول رجُلٍ في حياتي وآخر الرجال.

وإلى تلك التونسية البيضاء التي تسكن داخلي.

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

المقدمة

عندما تكون داخل حدود الوطن عليك أن تكتب بقلم رقيق. أن تلمس الحقيقة بحروف رفيعة نحيلة القوام لا تضغط على أوجاع الفقراء والكادحين.

تُلبس المأساة فستاناً مغرياً، ويُفتن المترفون بما كَتبت ووحدهم المهمشون يبتسمون. يعرفون أن اسمهم ذُكر خفية ووحدهم هم المعنيون.

داخل حدود الوطن اكتب بقلم من ورد حتى لا تكافئك الحكومة بأقلامٍ من «رصاص».

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

يحدث أن تشتاق إلى شخص لم تلتقه رغم ما بينكما.

يحدث أن تحزن لرحيله من مكانٍ إلى آخر، لم تلتقيا في الأول ولن يجمعكما الثاني.

المطارات لا تلتقي يا صديقي، المطارات تُسلمُنا إلى الفراق.

التقينا في السماء صدفة، لكن لن تحط طائراتنا في مدرج واحد.

أن أقتلك في روايـة أفضل من أن أزرعـك في ذاكـرة من حولي، البوح بك للغرباء يقتلك خلسةً، بعيداً من القانون فلن يعاقبني عليك أحد؛ كل شيء هنا يحرضني على إفراغك ورقيّاً للتخلُّص من ذلك النزف بقطعة بيضاء وقلم، حيث إن بعض البوح مؤلم وبوح الأوراق يُريح، كان بوحك أنت وتري، بوحاً من نغم، وكان بوحي أنا خفياً لا تعرفه سوى الوسائد والقلم.

كيف لرجلٍ مثلك أن ينام على جسده كاملاً دون أن يشعر أنه

Telegram: electronic_library

ذو قلبين؟ كيف لم تميز مضاعفة النبض؟ كيف لم يخبرك قلبي الذي في صدرك أنه هُنا، أكان خفي النبض أم ميتاً، أم أنك تجاهلته بسيجارةٍ مسائية تُنسيك الشعور بالذنب. وتُنسيك أنك ذو قلبين وأن من مثلي تبات من دون قلب.

تخرجنا النصوص أحياناً مجردين من العاطفة، فبعضها بوحٌ كاذب وبعضها مهما صدقت فيه لن يصل كما هو وكما تشعر!

أن تروي للناس قصة ليست واقعية ستجدها خاسرة مهما رَبحت، فهي لا تعود إليك بنبض ولا دموع وبذلك هي ليست باهظة.

وأن تروي ما عشته يوماً ما، ستكون قصتك رابحة مهما خَسرت، ستكون باهظة وثمينة.

فقد رثيت فيها أحدهم وبكيت آخر وضاجعت حروفاً تعرف تماماً ما تعني، حروفاً لامست شفتيك وأنت تعض عليها بأسنانك، حروفاً قتلت بها قاتلك ورثيته وهو حتى الآن لا يعرف القراءة.

ربما سأكمل هذا النص ولا أكون راضية عنه، ربما سيفشي مني الكثير وسيبعثرني بين السطور، هنا عقد وهناك سوار، ملابسي أشيائي أشلائي ربما تتشظى في المحاولة الأولى للكتابة أو للبوح، رغم ذلك، فإن كل محاولاتنا للكتابة هي لإيجاد شيء ما قد فقدناه عن قناعة أو عنوة؛ شيءٌ لم يعد ينبض فينا بل فيهم.

Telegram: electronic_library

لو فكرنا في إجابات الغد لن يكون لأسئلة اليوم ذلك الغرور ولن تسطو علينا بكبرياءٍ وتعالٍ، ولن تسرق منا النوم.

ليست الأسئلة وحدها من قامت بسرقتي، سرقني قبلها الكثير، وكنتَ أنت منهم.

لا أعرف إن كنا نعيش في عالم السرقات الكبرى، وما الشرفاء إلا فئة قليلة يُعرفون على أنهم شواذ.

سَرقة الأوطان ونهب الأمان والأرواح، قد نجد فيه عزاءً كافياً لسرقاتٍ أخرى ضاع فيها «قلب».

أتمنى أن تكون حروفي هذه مؤهلة للسرقة ما ينبئ أنها جيدة، فنحن الشرقيين هكذا نجد لنا عزاءً في كل شيء.

***

«قطعاً.. في كل نجاح لكتابٍ خيانة لشخص».

أحلام مستغانمي

وأنا أحاول أن أخونك هنا..

- أتمنى أن يعود الوقت بنا إلى الوراء.

- لِمَ؟!

- كنت سأتجنب لقاءكِ.

- تستطيع تجنبه الآن.

- ليتني..

Telegram: electronic_library

كـ«الحلم»..

تلك القاعة الباردة بمقاعدها الفارغة، كان لحنك يشعل فيها الحرائق وتهوي أنت بين صقيعٍ وحريق.

كأن الوقت توقف في تلك الغرفة فكل ما فيها كان مُصغياً تماماً، وكان طوع لحنك.

كنت تعزف «راجعين يا هوى» لـ«فيروز»، أنا التي أحب فيروز وأحب العود لم أعرف من قبل أنهما عندما يجتمعان ويكونان بهذه الروعة، أو ربما من كان ثالثهما هو من وهب لهما هذا الجمال.

كنت ثالثهما بصمت حتى اجتاح صمتك المكان ووصل إلى الدقائق فأرداها خرساء وهي التي لا تُتقن الحراك صامتة حتى توقفت كما تسمرت أنا عند ذلك الباب المطل على لحنك.

عندما التقينا أول مرة كنت كـ«حُلمٍ» هرب من المنام وأمسك عوده ليدندن، كان كانون الأول/ ديسمبر يبكي على النافذة وكنت أنت تبكي على عودك.

ثم كنت تجلس بشكلٍ مُغرٍ، استوقفني شكلك قليلاً.

أكملت طريقي في ذلك الممر إلى الغرفة البعيدة متجاهلةً وجودك الذي بقي عالقاً في ذاكرتي.

لم أعرف يومها من أنت ولم يكن مهماً أن أعرف، كنتَ جميلاً بذلك الغموض وذلك الأسود.

Telegram: electronic_library

كنزتك السوداء كانت تواسي فيك ذلك اللحن وتحاول أن تقترب بلونها من لحيتك المنسدلة التي كانت تنام على ذقنك كحسناء في قمة إغرائها لرجلٍ تقي، لم أرك في المعهد من قبل كانت هذه المرة الأولى، كان يومها الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر وكنت أنت أجمل من ديسمبر.

لم أرَ ملامحك جيداً، كان وجهك منصباً على عودك وكنت كأنك تشم عبق أوتاره ولا تسمع لها صوتاً.

قصر قامتي وملامحي الصغيرة كانت تخبرني بأنك صاحب قامةٍ طويلة رغم انسكابك على ذلك المقعد.

كنت مختلفاً كل شيء فيك كان لأول مرة يحدث، لأول مرةٍ يوجد، كـ«اسمك».

«أجمل حبّ هو الذي يأتيك أثناء بحثك عن شيء آخر...»

أحلام مستغانمي.

وأنا التي جئت أبحث عن نوتة سقطت مني في أول صرخة عند وصولي إلى الحياة، نوتة أهملتها كثيراً وتغاضيتُ عنها أكثر وما إن بدأت البحث عنها كطفلتي الصغيرة التي أضعتها في حرب ما لأجدها في عمرٍ يصعب عليها التعرف إليّ، تعثرت بك.

دائماً تأتي الخيبة متنكرة ببريقٍ ساطع لا تستطيع أمامه أن تفتح عينيك، لكنك تتبعها مغمض العينين مأخوذاً بجمال الكذبة.

Telegram: electronic_library

وما الجمال غير كذبة يكشفها الوقت مع الأيـام، بعض الأكاذيب لذيذة نتوق إلى تذوقها وإن أُصبنا بعدها بسوء هضم أو سوء قلب، فالأكاذيب تضعفنا مع الوقت وإن أشعرتنا في البداية أننا خارقون ولا غالب لنا، كما الحب يضع كل شيء عند قدميك ودون أن تدري يسحب البساط من تحتك ويجردك مما وهب لك ومما لم يهب، ويترك لك الضعف والهوان.

لم أعرف قبلك ما معنى الضعف، ما معنى أن أكون قطعة سكر، كما كنت تناديني، تذوب في كوب شاي، كنت أذوب مثلها تماماً أمام عينيك، لكن ذوباني كان ساكناً لا يحتاج إلى تقليب، أذوب صمتاً واحتراقاً وحبّاً.

عندما انتهت حصة الموسيقى التي لم أكن معها تماماً، حيث كنت تعبث بنصف عقلي الآخـر، خرجت وحملتُ حقيبتي وكماني المُكتئب ومررت في القاعة التي رأيتك فيها، وقبل أن أصلها لم يكن يصلني منها شيءٌ، لحنك قد انطفأ، ربما أخذت وقتاً للراحة أو ربما كنت تضبط عودك، فكرت وقتها أن بإمكاني أن أرى وجهك الذي حالت النوتات بيني وبينه قبل قليل، تسارعت نظراتٌ ترتدي ثوب اللّامُبالاة ودخلت لتفتش عنك، لكن تلك الغرفة كانت خالية منك تماماً.

شعرتُ بخيبة، منذ اللحظة الأولى وأنت تلعب معي لعبة الخذلان هذه.

Telegram: electronic_library

كنت أحب حديقة المعهد، كانت كبيرة نوعاً ما وهادئة وعلمت بعدها أن هذا الحب هو قاسمٌ مُشترك بيننا غير الموسيقى التي جمعتنا.

كنت في زاويةٍ بعيدة في الحديقة لم ألحظك في البداية، كانت عيناي تحسبان خطواتي وما إن رفعت عيني حتى رأيتك، ماذا كنت تفعل في هذا الطقس البارد بعد ما تشبّع كل ما حولك بالمطر.

بماذا كنت تهمس لسيجارتك التي كانت كحبيبةٍ بين يديك، تقبلها بشغف وكان نظرك يسافر بعيداً.

كنت طويلاً يا «آدم» وكان يشغلني أين يصل رأسي إليك.

عرفت أنك تحب المطر والأسود والعود والخذلان.

قلت لي مرة وأنت تبكي «عليا» لا تكرهيني مهما فعلت، آخر ما أحتاج إليه هو كرهك لي، ابتسمتُ يومها من كلامك بعدما كنت في قمة حزني واحتضنتُ رأسك وقلت لك: كيف أكرهك وأنت ابني؟ لا تكره الأم ابنها مهما كثرت أخطاؤه، ولم أكرهك يا «آدم»، ربما لأني لا أتقن الكرهَ، أو أن من مثلك لا يُكره يا «آدم»، من مثلك يُحبُّ حد الوجع، أوجعتني يا صاحب الظل الطويل.

في فترة مراهقتي كنت أتابع مسلسلاً كارتونياً باسم «صاحب الظل الطويل»، لم أكن يوماً جودي أبوت ولم تُحبني أنت كما أحبها صاحب الظل الطويل.

Telegram: electronic_library

رغم هذا أحببتُك، أذكر ما كنت تفعله بعد أن ترتشف أول رشفة من قهوتك، كنت تعضّ على سبابتي وتدّعي أنها حلواك المفضلة، كم كنت أحب خيالك الواسع.

طالما كنتَ ساحراً كفرسان القصص الأسطورية الذين لا يوجدون قط إلّا في الأحلام، لكنك كنت حقيقة وكسرتني تلك الليلة لتعود إلى الأحلام فقط، وتُنفى من أرض واقعي التي كانت تُلامس قلبك.

بكالوريوس الهندسة لم ينفعني كثيراً في فهم الحياة، تعلمت أن لكل قاعدة شواذًا، وكنت أنت شواذ القاعدة وقاعدة الشواذ.

لمَ ابتدأت كحلم وانتهيت كفاجعة، كان أجمل لو بقيت حُلماً قيد الانتظار أو حبيس المنام.

هكذا هم الفرسان يموتون في نهاية الحكاية إلّا في حكايتنا فقد متُّ أنا.

دائماً كنتُ أؤمن أن خيانات الرجال تُكشف بسرعة، فالمرأة بطبيعتها تترك أثراً أينما ذهبت كأحمر شفاه أو خصلة شعر تنام هُنا أو هُناك وربما قميص تعطر بأنفاسها، على عكس الرجال فهم لا يتركون شيئاً، لا أثر لهم، وإن تركوا فيكون مقاس حذائهم على قلب إحداهن.

أنت لم تترك شيئاً يا «آدم»، لم تترك أي شيء حتى قلبي أمسيتُ دونه.

Telegram: electronic_library

أول لقاء لنا لم تكن هناك لأنك هُناك، قد أمطرتك السماء، قد سقطت سهواً من كوكب آخر لأتعثر بك ذات مساء، فتنقلب حياتي رأساً على عقب، كمن تعثر بحجر فسقط في قعر قَدَر لا يقوى على الخروج منه.

كنت ذلك الدفء الوحيد في صقيع العمر، أعوامي الخمسة والعشرون لم تعرف أباً، فقد استشهد في الحرب العراقية - الإيرانية؛ لم تغتظ أمي وتشتعل غيرة لأن كلمة بابا هي أول ما أقول، لم أعرف غير أمي.

ولم أنطق بغيرها يوماً؛ كنت يتيمة يا «آدم» حتى التقيتك، لم يكن في عمره متسع ليداعب ضفائري.

لم يكن في عمره متسع لأراه ولو مرة واحدة.

رغم أني الأصغر بين أخويّ ومن المفترض أن أحظى بكل دلال البنت الوحيدة الصغيرة وحبها. لكني حظيت باليتم الكافي حتى انخرس فيَّ عمري وكبرت تلك الصغيرة على وسادة أمها المبللة. تلك الدموع كانت لأبي كما كنت أنا، لكنهُ تركنا أمانةً في عيني أمي.

كان «غيث يقول لي دائماً: لو كان أبي هُنا لأحبك أكثر منا. كنت أصدق كلامه لأنه أكثر معرفة مني ومن «همام» به، بحكم أنه الابن الأكبر.

Telegram: electronic_library

«هُمام» الذي قبلتهُ جميع المطارات وختمت الغربة على جواز سفره بالمؤبد حتى اختلطت ملامحه العراقية البحتة بتراب البلدان فلم يعد أخي الذي أعرفه، لقد اختلف اسمراره الجميل وحاجباه الغاضبان وعيناه الحادتان، كنت أقول له ضاحكة: أعتقد أنك تنحدر من سلالة النسور فلك العيون نفسها.

تلمع عيناه بريقاً ويضحك فتشرق في خدّه الأيمن غمّازة بارزة لا أستطيع أمامها الصمود حتى أقبلها.

كانت كغمازتك تماماً، كأن القدر كان يسمعني عندما كنت أقول لهمام: «إن أحببتُ يوماً رجلاً عليه أن يملك غمازة كتلك التي عندك وربما أقبلها كما أفعل معك من يـدري»، وأنفجر ضحكاً وينفجر هو غضباً، فيمسكني بقبضته القوية ويقول لي: «تحتاجين إلى القليل من التربية»؛ وبين ضحك وصراخ كان يغمرني بحبه وحنانه. كنت أشعر أحياناً أنه أبي، خصوصاً عندما كانت تتأمل أمي تفاصيله وطباعه فتقول: «يا الله كم تشبه أباك!».

ولأنه يشبه أبي فقد اختار الرحيل على اختلافه، فقد كان أبي مجبراً على رحيله إلى السماء. أما «همام» فقد اختار الغربة وأوجاع البلدان على احتضار الوطن.

كان مصاباً بمرض الوطن مثلك ومثلي، كان يُوجعُنا العراق.

كان يَشعُر «هُمام» بوجودك في حياتي، كان يشعر بوجود

Telegram: electronic_library

رجل ويعلم كم هو مختلف حتى استطاع أن يحتلني فتظهر راياته واضحة في عيني، وإن كان كل ما يصل «همام» مني صور أظهر فيها مبتسمة أو أدعي ذلك، كان يشعر بوجودك رغم أنك دخلت حياتي بعد رحيله بشهر واحد فقط.

تتشابهان كثيراً كلاكما يملك قدرة على تحليل الأشياء وفلسفتها وصولاً إلى الجنون.

قلت لي مرة أنتِ كالنبيذ تُسكرين ولا تسكَرين. كنت تنظر إليّ بطريقتك الخاصة التي لم ولن يجيدها غيرك. كنت تقول «عليا» تُرابك الذي خُلقتِ منه يختلف عن البقية، تُرابك معتق كأنه تُرك فترة من الزمن حتى تحول إلى شيءٍ من السحر أو النبيذ، فأصبحت تعويذة لا تنفك من أحد ما إن نظر إلى عينيك حتى ظفرت به.

كُنت تُجيد النظر إلى عيني فتستبيح وتأخذ ما تشاء.

غالباً ما كان إحساسي لقيطاً لا ينتمي إلى شيء، وليد اللحظة ومحرّماً شرقياً. لكني لم أخن شرقيتي معك، كنتُ حبيبتك الشرقية التي تُعشق فقط كإله لم يمكن لك لمسه أو وضعه في جيبك، لكنك ملكت روحي وجسدي حتى وإن لم تلمسه.

كُنت أشعر أحياناً أني قطعة نقود معدنية منسيةٌ في جيب قميصك القديم، بينما كنت أنت مشط شعري الذي لا أضع غيره.

Telegram: electronic_library

عندما كنا أطفالاً يتم تلقيحنا ضد الأمراض فتُترك ندبة في ذراعنا اليسرى نَدعي بها أننا أقوياء ونستطيع الصمود طويلاً، لم أقتنع بترهات الأطباء يوماً لمَ لم يلقحونا منذ الصغر ضد الخيبات.

لم يعلموا أن خيبة صغيرة قادرة أن تترك ندبة في ذراع قلبي اليسرى وتجعلني أتجنب حبك ولا أنزفك قلباً.

كنت عندما تتحدث عن الهجرة وأنك سوف تهاجر كنت تغرس سهماً في قلبي وتخرجهُ ببطء كنت أصرخ بك: هاجر، ارحل لا يعنيني الأمر، فأنا يا «آدم» امرأة لا صولة لرجل في حياتها، خذلني أبي وأخي وأنت أدركت أن الرجال لقبوا هكذا لأنهم يرحلون، لهم القدرة عليه ويبدعون فيه دون رجعة.

تنام أمي كل ليلة ويتوسد أبي قلبها، ساعة تبكيه وأخرى تغضب منه لأنه لم يعد هُنا، كنت أسمع تقلباتها في فراشها ليلاً، تهرب من يمينها فأبي حاضرٌ غيابه الذي يمنع نومها ويسارُها يحتلهُ «همام».

أخرج من غرفتي في الساعة الثانية ليلاً وأقف على باب غرفتها مكتوفة اليدين وأقول لها:

- (ليلى) ما الأمر، ألا أستطيع النوم في هذا البيت بسبب تقلباتك هل هو حُب ما يمنعكِ من النوم؟

تضحك وتخفي دموعها التي تلمع في عينيها الرائعتين كانت عيناها تشبه عيني «هُمام» وتقول لي:

Telegram: electronic_library

- ما الأمر يا مزعجة ماذا تريدين؟!

- من المزعجة برأيك أنا أم أنتِ!!

تضحك بصوت مرتفع.

- أعتقد أني لم أمنحكِ التربية الكافية يا شقية .

- ما رأيكِ بفنجان قهوة والقليل من الثرثرة لعلكِ تتعبين فتنامين؟

تبتسم وتهز لي رأسها موافقة.

كنتُ أُمّ أمي، لم أكن تلك الفتاة المتعبة، لم أتعبها حتى بهمومي أو وجعي، كانت تعرف أني أُخفي الكثير خوفاً على قلبها الذي ما عاد يحتمل أكثر، فندعي الابتسامة كل في وجه الآخر حتى أضبطها متلبسة بدموعها، فأحتضن وجعها دون أن أسألها عن السبب، كانت تبكي بحرقة، تبكي مثل الأطفال أحياناً، لم تكن ضعيفة لكنها تعبت من دور القوية، تعبت من دور الأم-الأب الذي كانت تُبدع فيه منذ أن تركها أبي وهي صغيرة وأم لثلاثة أطفال لا يفهمون إلى أين ذهب والدهم، وإن أطالت الشرح مراراً وتكراراً فالفقد لا تقنعه الأسباب والحقائق.

كانت تنسى وجعها تماماً عندما تحتضن أولاد غيث، تلعب معهم حتى تنام وإياهم من التعب.

أنت أول من أرمي رأسي على كتفه بعد «هُمام»، أول من فتح

Telegram: electronic_library

باب قلبي الصدئ. رغم وجود صديقتي «رهف» صديقة المراهقة حتى منتصف العشرين هذا، رفيقة الجنون والأحلام. حتى جعلتها أحلامها عاجزة أن تضع كحلاً ينهمر على ملامح وجهها في ليالي البكاء الثقيلة.

قد أوجعها العراق كأغلب العراقيين، حبيبك يا «آدم»، كنت تكره أن تتحدث عنه وتقول العراق، كنت تقول: أكره أن أتحدث عنه كأني مذيع في نشرة الأخبار، كنت تنعته بحبيبي أو تقول عراقي، هو عراقكَ نفسه الذي أهدى إليك جرح ساقك الذي يئن في ليالي الشتاء الباردة، الذي لا يرحم حبك له، كما لم يرحم حب «رهف» و«سامر». كنت أحكي لك عن معاناتهما بعد الحرب على العراق (الحرب الأخيرة)، يجب تحديد ذلك فوطني نسيجٌ من قتالٍ ودماءٍ ونفط.

اختلاف الطوائف فيه لم تكن مشكلة وأصبحت فاجعة بعد الحرب، فالكل يبحث عن زوج مناسب من طائفته ليكون عريساً لابنته، ومن جمعهما الحب رغم أنف الطائفة فرقهم تفادي المشكلات والضغائن وربما العقول التافهة والغبية.

كانت رهف شيعية وكان سامر سنياً رغم أنهما لا يعرفان معنى هذه التسمية ولماذا انحدرا منها. ولكن بما أنه في شرقنا يحدد الاسم والنسل واللقب والدين على الأب فعليك أن تكون كأبيك وإن اضطررت إلى ذلك قسراً.

Telegram: electronic_library

كانت معاناتهما تشتد رغم أنهما من دين واحد، لكن هذا ما أتتنا به ديمقراطية أميركا: سياسة فرق تسد.

فبتنا نُسأل عن الطائفة قبل أن نسأل عن الاسم أو ربُما بعده بقليل، ولإخفاء الغرض الحقيقي من السؤال يأتي سؤال مخادع يراد به إجابة، بعد تحليلها يتم الوصول إلى المطلوب «أنتَ من يا عمام».

وحسب ما يكون عليه أعمامك والمقصود به العشيرة أو العائلة الأصل التي تنحدر منها يتم تحديد طائفتك إن كنت من طائفة السّنة أو طائفة الشيعة وقد يختلط الأمر أحياناً لأنه في عشيرة واحدة توجد الطائفتان .

كنت تقول عندما يحتد النقاش بيننا «الوطن يمون»، كنت تدافع عنه بضراوة عندما أبدي ضجري منه أو من أوضاعه، رغم نقشه المؤلم في ساقك، رغم وجع أمي وبكاء رهف، كنا نحبه ونبكيه ليلاً.

أحياناً كنت أغار منه، أشعر أنك تحب العراق أكثر من حبك لي، كنت تضحك من فكرتي هذه وتقول أحبهُ لأنكِ منه.

كنت تقول أنتِ لا تحتاجين إلى جواز سفر أو هوية أو أوراق في بلاد الغربة، تُعرفين أنك عراقية، عيناك دجلة وتفضحان فيكِ عشق الفرات، «عليا» ملامحك عراقية تماماً، مكشوفة كورقة المئة دولار الأميركي التي يستحيل أن يجهلها أحد.

Telegram: electronic_library

وكنت أنت كذلك يا «آدم». قلت لي مرة: «بينما كنت محنياً على طاولة أوروبية أكتب وجدت رجلاً يراقبني ويشغل باله من أين هذا؟ ما هي الحروف التي يبدأ بها من يمين الورقة وتنتهي به عند اليسار؟ كنتُ بأحرفي وورقي وشكلي عربياً، تكتب الشرقيةُ على شفاهنا «عرب» حتى لا تضيع منا الهوية مهما عضضنا شفاهنا قهراً وخوفاً منها لا تنفك منا، لن يخفى على الرجل من أين أنا رغم أحرفي التي لم يرها يوماً، فشحوب وجهي المتجمد وزرقة شفتي تدل على أني من بلاد الشمس، من بلادٍ اعتادت أن تكون سمرتها زيّها الرسمي الذي لا ترتدي غيره، من بلاد تصلّي فيها الشمس صلاة الفجر معنا جماعة. فهي لا تضيعُ فرضاً «تقضي الخمسة حاضراً وتسلمنا إلى القمر ليلاً على مضض».

نحن في بلد يُذبح الوطن فيه على سجادة الصلاة ونتساءل إن بَطُلَ الوضوء، حتى أصبحت صلاتنا مشوهة بدموعٍ ودماء لا نعلم أيّتها رفعت إلى السماء وأيتها ماتت على القبلة.

إذا لم يزدك البُعد حُبّاً فأنت لم تُحب.. ما قاله نزار قباني في بعد حبيبين. وأجد أني أختلف معه، بعدك لم يزدني حُبّاً بُعدُكَ كان يُنقِصُني حياة، لم يزدني في شيء، كان يأخذ كل شيء معه حتى قلبي ولا أعلم حينها إن كنت أحبك أو لا، مهما طال الفراق بيننا بسفرك المزعج أو بخصامنا الطفولي.

Telegram: electronic_library

لم أكن أبكيكَ خلالها إلّا ما ندر، كنت أخرج إلى الحياة برئتين جديدتين أتنفس هواءً مُختلفاً غير ذلك الذي كان يملأ صدري قُربك، وعين جامدة لا تلتفت ولا ترف كنت خارج تغطية الحياة واتصالي بها مُعلق.

حتى أعود إلى صدرك فتنفجر في عروقي الحياة وأبكيك حتى أغفو على صدر هاتفك ليلاً، وأنت تُقبل كل أزرار الهاتف لعل أحدها يوصل شفتيكَ إليّ.

كنت أكثر دفئاً من الشمس، كنت كوكب موسيقى وحبّاً وحزناً.

أذكـر خلافات رهف وسامر، كنا نجلس معهما وهما يتحاوران في خلافات أقل ما يمكن أن نُسميها أنا وأنت أنها سطحية ولم تكن تعنينا قط.

غالباً ما نَدخل للإصلاح بينهما حتى كففنا عن ذلك، هما متشابهان وتغير أحدهما لن يكفي. سامر الذي كان يخفي حبه تحت الطاولة أو تحت فاتورة الحساب حتى لا يلحظه النادل إن مرّ لأخذ طلباتهما أو لأخذ النقود.

كان رجلاً شرقياً لا يُجيد دور الحبيب وكان يؤمن أن الحب مكانه القلب فقط، أو على ورقة ختمت من الحكومة وأعلنتهما زوجين.

Telegram: electronic_library

وهذا ما كانت تعانيه رهف، كان ينقصها الحب لا الزواج وهو كان يرى أن الـزواج هو دليل على الحب. بالإضافة إلى اختلافاتهما الطائفية التي يُشعل فتيلها سامر بإهماله المفرط لأمور عدة كانت تجد رهف من اختلافهما حجة لإفراغ ما في قلبها من حزن.

أما نحن فكنا من عالم واحد تنحدر أنت من سلالة عودك وأنا من كماني، كنا من عائلة الوتريات التي لا تختلف أبداً مهما اختلف عدد أوتارها إن طالت وإن قَصُرت.

غير أن أوتاري التي قطعتها ذات يوم حاول هو أن يُصلحها بمجازه، حاول أن يلملم ما تبقى من صدف على شاطئ حبك المهزوم.

كان يُجيد ترويض الحروف وكان يعزف هو الآخر، ولكن عزفه كان على الأبجدية، تمر الكلمات من تحت يديه كنساءٍ عاريات يُجدن الرقص، يُجبرك على الإصغاء وربما التحليق، ولكني كنت في حضرته أحلّق بكلماته في سمائك أنت. وما السماء غيرك أنت يا آدم، لكني كنتُ أحتاجُ إلى أرضٍ تسند هوان قدمي.

كان يُجيد الغرق باحتراف، كان يغرق في عيني كحصى في بركة ماء، خلاف احترافك السباحة فيهما كنت تعكر صفوهما وتعيد ترميم البكاء.

Telegram: electronic_library

كان يُجيد الغرق وتجيد أنت العوم فغرقت أنا معك ولم أستمع لصفارات الإنذار ولم أمد يدي لأطواق النجاة التي رُميت لي، كنتُ أسبحُ بعيداً عن كل ما قد ينقذني منك ذات يوم.

كان عادل كاتباً ربما في بدايته، لكنه كان محترفاً في الكتابة والحب، هو ذلك الرجل الذي دخل حياتي قبلك ولم يجد له مقعداً فارغاً فيها غير زاوية كُتب عليها صديق، حيث إن كل المقاعد كانت محجوزة باسمك مسبقاً حتى قبل أن أعرفك، قبل أن نلتقي كنت تحجز كل الطاولات في حياتي وأنت لم تحضر بعد وأنا التي لم تشعر بهذا الحجز المسبق حتى رأيتك، كنت أتصور أن حياتي أضيق من أن أضيف إليها، حبّ رجل، لذلك جلس كل من عرفتهم من جنس الرجال في زاوية الأصدقاء حيث باحةُ قلبي كانت محجوزة لك ولو سرّاً دون علمي وعلمك وبغفلةٍ عن الحياة. وحده القدر كان يعرف ويتقن الصمت حتى النهاية، القدر هذا الشيء الذي لا أحد مثله ولا أحد يجيد الصمت مثله هو الذي يحتفظ بالكلام للآخر.

وما إن يبدأ به حتى يصمت الجميع ونأخذ دور المتفرجين وهو يلقي خطبته بعد فصل السكوت فندرك عندها حماقاتنا وكم نحن قليلو الحيلة أمامه وأمام فخامة صوته...

كنتَ تُحب المقالات السياسية وخصوصاً الساخرة منها،

Telegram: electronic_library

التي تنتقد ما نحن عليه بطريقة أقلها لا تجعلك تبكي. عيناك الرائعتان كانتا تغريان البُكاء فيك فتراودهما الدموع عن نفسها، فتلوذ بالفرار إلى ضحكاتٍ عالية تسيل بعدها دموعك، دموعك الضاحكة من قلبك الباكي.

عيناك هما مشكلتي منذ البداية، بعد أن رأيتُكَ لأول مرة صدفة لم نلتقِ بعدها إلّا بشهر، كنتُ في كل مرة أحضر إلى المعهد أترقبُ أن أراك ولكني يئست، ظننت أنك كنت موجوداً هناك مصادفة ولم يكن لك صلة بهذا المكان، كان هذا هو السبب الوحيد لاختفائك كل هذه المدة، أو ربما كنتُ أحلم ولم يكن وجودك هناك إلّا أحلام يقظة وإن كان هذا صحيحاً فكان عليَّ وقتها أن أذهب إلى طبيب نفسيّ.

لكنك كنتَ تعقد صفقة مع المطر يومها، كان الجو ماطراً جدّاً وبغدادي الحبيبة رائعة الجمال وهي مُبتلّة.

أكملت حصة الموسيقى بعد أن نبهني الأستاذ إلى تشديد التمرين وتضايقت من عدم إعجابه بأدائي.

خرجت متعبة مخذولة نوعاً ما وحزينة يترك فيَّ المطر حزناً، رغم حبي له لم أتحدث إلى أحد، رغم اجتماعات الأصدقاء التي كانت هنا وهناك فضلت أن أعود إلى البيت وأرتاح، فكرت أن أمشي في طريق العودة وأحدّث المطر عن أي شيء، ربما كنتُ

Telegram: electronic_library

أنوي أن أحدثه عنك، لذلك وفّر عليَّ عناء الثرثرة ورحم نفسه من الإصغاء وأتى بك.

كنت في زاوية بعيدة في أحد الممرات الباردة قرب نافذة كبيرة تنقل لك أكبر مشهد ممكن من المطر.

لكنك كنت تصغي فقط، تسمع صوت القطرات وهي تتحرش بك عبر النافذة، كانت تهمس لك وكنت تُصغي إليها وأنت مُغمض العينين.

كان شكلك ينبئ بأنك تُعاني شيئاً ما، دون إذنٍ مني ودون دراية ضرب قلبي نبضهُ بقدميّ فأحضرتاني عندك، سمعتُ صوتاً يُشبه صوتي، صوتاً كان يرتجف:

- هل أنت بخير؟!!

حينها أشرقت شمسان من غابات أهدابك، ابتسمت عيناك قبل شفتيك.

- هي ليست بخير.

جاء جوابك مفاجئاً لي هل تُراك لم تسمع سؤالي أم أني تفوهت بغير ما سمعتني أقول، سألتك بتوتر:

- من؟!

- السماء، منذ الصباح وهي تبكي ولا أحد يأبه لها.

لمَ هذا الرد الواسع الذي يكبر مقياس سؤالي عدة مرات

Telegram: electronic_library

حتى شعرت أني نملة، انعطفتَ بالحوار بعيداً، حتى قبل أن يبدأ وحولته من حوار أرضي إلى حوار سماوي ومن سؤال ينتظر إجابة تخصّك إلى جواب يحدثني عن حالة الطقس، أنا التي لم يهمها شيء وقتها غير انعزالك هذا وسط زحام الأنغام.

تختلي بنفسك فجاء جوابك أنك تختلي مع السماء خلوةً مقدسة وأنا التي قطعتها بسؤالٍ ساذج.

جئتُ أسأل عن حالك وأنت كنتَ مشغولاً بحالها، قلت غير مُبالية:

- ألهذا تجلس هنا؟!

- رُبما.

كان الحوار قد انتهى بهذا القدر ولم يعد لي ما أقول قبل أن أفكر وأن أهم بالمغادرة قاطعت أفكاري سائلاً:

- كيف حالك معهُ؟

- من؟

- كمانك.

الآن وقد قررتَ أن تُكمل الحوار بهذه الطريقة يجب أن أخلع معك التقليدية التي بدأتُ بها وأكلمك باللغة نفسها التي باغتني بها.

- بخير ولكن لا يُطيعُني دائماً.

Telegram: electronic_library

- أطيعي إحساسك أولاً وسيفعل هو.

بدا الحوار هذه المرة أكبر من مقاسي أنا، خصوصاً وأنت تجلس بارتخاء على ذلك الكرسي وأنا أقف بقامتي الصغيرة وكماني الخجل أمام عرش حُزنك.

ابتسمت وغادرتك لا أعرف كيف، ومن أين أتيت بتلك الجرأة لأحدثك وأنا التي لم يسبق لها أن بدأت حديثاً مع شخص لا تعرفه وكنت أكتفي عند حديث الغرباء بابتسامة تختم حواراتهم، شعرت وقتها بـ أنا جديدة تولد في حضرتك، رغم أني شخصية خجولة إلّا أني لا أبدو كذلك في كلامي مع الآخرين.

لكني جزمت أنك قد لاحظت ارتباكي وأجوبتي الخجولة ولولا هذا لما كنت مبتسماً طوال كلامنا.

ابتسامتك الساحرة التي أربكتني أكثر وجعلت حروفي صغاراً لا تتقن المشي بعد أمام قامة حروفك الأنيقة..

بعض الأموات تحت الأرض وبعضهم فوق الأرض.

النوع الأول مات فيهم الجسد والنوع الثاني ماتت فيهم الروح..

هكذا كنتُ أرى الحياة وهذه كانت فلسفتي التي لم أفشِ سرّها لأحد حتى لا يفتضح جنوني.

فأبي مات جسدهُ فقط وأمي ما زالت تلمس طيفه كل مساء

Telegram: electronic_library

وتقسم أنها رأته فجراً وهي تقوم للصلاة يسقي الأزهـار في حديقتنا.

لم تجنّ أمي بعد، لكن ربما حُبها له ورفض عقلها لواقعها اختلق لها صوراً تشبع الذاكرة المتهرئة التي تحاول تلميعها إذا ما مرت عليها أعوامٌ من تُراب تسحق معالم الأحباء أو لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون كما قال تعالى، فسحبه الشوق وجاء عند أزهارها ليسقيها فجراً، يعرف أنها تتوضأ قبل الأذان بدقائق وتخرج تتأمل السماء ومن ثم يحيد نظرها إلى أزهارها تلاحظ ما ذبل منها وما ازدهر.

لكنك لم تكن أحد النوعين ولم يمت فيك الجسم وروحك مازلت أسمع أنينها.

ربما الذي مات هو حبي، مات حبي فيك يا آدم ولم تكرمه حتى بالدفن بل نثرتهُ على سرير أخرى.

السرير حديقة الرجال ومقبرة النساء.

شرقنا لا يملك غير هذه الأسرة، فالمرأة حديقة زهور يقطف الرجل ما شاء منها.

وما الحديقةُ من دون زهور!!. مقبرة.

وما إن تُزهرُ أنت بأخرى حتى تَدفنني فيها ونموت معاً.

في يومٍ مليء بالانفجارات والانفلات الأمني كنت أقف في

Telegram: electronic_library

الشارع عَلّي أجد سبيلاً للوصول إلى بيتي بعد أن تعذر على غيث إمكان الوصول إليّ بسبب إغلاق الطريق لسوء الوضع الأمني.

بعد أن كان اليوم جميلاً قضيتهُ مع رهف وبعض الصديقات وما إن انفضضن من حولي حتى بدأت تتوافد الأخبار السيئة عن حريق وانفجار، ولم يكف هاتفي عن الضجيج بين خوف أمي وغضب أخي الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً وأنا في الشارع لا أعرف ماذا أفعل.

بين ضجيج السيارات وإزعـاج هاتفي وفوضى عقلي وجدتُكَ أمامي!!

لا أعرف إن كنت أنت حقّاً في بادئ الأمر أم أن عقلي افتعلك أمامي لحاجتي إليك، لحاجتي أن أضع يدي في ذراع رجل وأغلق عيني عما يدور حولي.

كنتُ أفكر هل هو هذا العراق الذي استشهد أبي لأجله؟ لا أرى الآن سبباً مقنعاً أو حقيقياً لموته بعد أن كان بطلاً، بطولته الآن لا تعني شيئاً، فوطني الذي مات أبي من أجله ها هو يحترق. ها هي دِماؤنا تسقي الإسفلت كلّ يوم حتى تنازل عن لونه وأحب رداءه الأحمر الجديد.

اتسعت عيناي بحجم الكرة الأرضية وأنت أمامي، ربما أردتُ رؤيتك بكل ما أملك من نظر أو أن الدهشة اعتقدتْ بأن عيني تَغِشُّها فأجبرتها أن تفرط بالنظر.

Telegram: electronic_library

بابتسماتك المعهودة وبرودك الذي رأيته سابقاً قلت:

- أيُرعِبُكِ ظهوري أكثر من كل هذه الفوضى؟!

بقيتُ صامتة، كان الضجيج وأصوات سيارات الإسعاف المارة بسرعة مرتفعاً، وسيارات الشرطة التي تجري هُنا وهناك بصفاراتها وصراخ من فيها من رعبهم أو من خوفهم على الناس لا أدري.

صَمتَ كل شيء فجأة ولم أسمع أي صوت، كأنه كان فلماً في التلفاز أزعج أمي فخفضتُ صوته ولم يبقَ منه سوى شفاه الممثلين تتحرك بصمت.

- لا أعرف كيف أعود إلى البيت لا أحد يَقِلُني ولا حتى سيارة أجرة تقبل أن توصلني.

بجملتي هذه عرفتُ بعدها أنك لست غريباً عني فأفشيت لك خوفي بمجرد ظهورك ولاحظت أنت ذلك، فجملتي هذه جعلتك تفكر قليلاً وتصمت دقائق، لم تكن تفكر في طريقة لحل مشكلتي، بل عقلك كان يُحدثك (إنها تَثِقُ بك) وربما هذه الجملة نفسها أرعبتك أكثر من رعب حالنا وأكثر من رعب رؤيتك الذي اتهمتني به.

- تعالي...

أمسكت بيدي ومشيت معك من دون أي كلمة، لم أعترض

Telegram: electronic_library

على شيء لا على المكان الذي تسحبني إليه وأنا لا أعرف ما هو ولا على إمساكك ليدي.

شَعرتُ يا آدم أني ممسكة بيد أبي التي لم أمسكها يوماً ولم يقدني يوماً إلى طريقِ أجهله وهو يعرف عنه كل شيء.

كُنتَ تُجيد الظهور والاختباء، كُنتَ تُجيدَ حبس أنفاسي.

فتحت باب السيارة وقلت: اركبي، كنت أمتثل لأوامرك دون جدال.

ما إن جلست أنت خلف مقود السيارة حتى رفعت زجاج النوافذ وتحركنا، بعد ثلاث أو أربع دقائق من الصمت امتدت يدك إلى مسجل السيارة وانطلق منه صوت فيروزتي «بعدك على بالي».

بعدك على بالي، يا قمر الحلوين.

يا زهر تشرين، يا ذهب الغالي.

بعدك على بالي، يا حلو يا مغرور.

يا حبق ومنثور على سطحي العالي.

لم يكن هذا وقتها أو أقصد لم يكن هذا وقتها حسب توقيت بغداد، فقد اعتادت إذاعات بغداد أن تبدأ صباحها بصوت فيروز على مدى ساعة أو أكثر، كأنها قهوة الصباح وعدم سماع صوتها قد يُنقص هذا اليوم الكثير.

ما عداي، أنا كنت أسمع فيروز كل الأوقات لا أجعلها حكراً ساعاتٍ معينة على خلاف غيرها.

Telegram: electronic_library

فيروزتي تصلح بالنسبةِ إليّ لكل الأوقـات، كنتَ مثلي تسمعها متى يخطر في بالك أو ربما في الأوقات المشحونة كهذه، ربما لاحظت ارتباكي أو ارتجاف أطرافي فحاولت أن تُسكنني بجرعةٍ فيروزية.

أنا وأنت وفيروز انعزلنا في سيارتك الصغيرة عن الفوضى التي حولنا، قلت:

- أُحِبها.

- مَن؟!

- فيروز.

- وأنا كذلك.

- أعرف.

نظرتُ إليك باستغراب وقلت:

- كيف؟!

- عيناكِ لا تحفظان الأسرار.

أربكني جوابك، هل كان مزاحاً أم تكهناً أم أن عيني تشيان بي حقّاً، وإن كانتا قد أخبرتاك عن فيروز ربما أخبرتاك عنك أيضاً!!

حاولت أن أحافظ على هدوئي ولا أرتبك وكأن ما قلته لم يثر اهتمامي أو ربما خوفي.

Telegram: electronic_library

- كُفي عن الارتجاف لا شيء يُقلق، سوف أوصلك إلى البيت... أنا من يجب أن يقلق ربما يضربني والـدك بدل أن يشكُرني على توصيلك.

أضحكتني جملتك وابتسمت أنت لضحكتي، فكرتُ بعدها: لو كان أبي موجوداً لما وقفت وحدي في الشارع لا أعرف ماذا كان سيفعل، ربما كان سيصل إليّ حتى لو سار على قدميه مسافة طويلة.

- لن يضربك لا تقلق.

- حسناً، إلى أين أوصلك الآن.

- إلى البيت.

ضحكت ملء قلبك وبصوتٍ مُرتفع، استغربت ضحكتك، كان بالي مشغولاً بما قلته عن أبي وفكرتي إن كان موجوداً على قيد الحياة.

- أعرف البيت، لكن أين بيتك يا صغيرة؟

فهمت لما ضحكت ابتسم وخجلت من جوابي الساذج لك أو ربما الطفولي، أخبرتك أين أسكن وأرشدتك إلى الطريق من أي شارعٍ تدخل وأي شارعٍ تتجنبه لأنه مغلق للحفاظ على الأمن، الأمن المزعوم.

بحواجز كونكريتية تُعيق الحركة وتُزعج الناس لا أكثر وليس لها أي صلة بالأمن أو الأمان.

Telegram: electronic_library

كنت غالباً ما تذكر حوارنا هذا، وخصوصاً عندما كنت أخاصمك وتريد أن تصالحني فتلجأ إليه حتى تضحكني أو تجعلني أخجل من كلامي يومها.

رجلٌ مثلك كان يُجيد العزف والكلام وكان يصهر الحروف ويُلبسها لي عقداً من سراب أحتفظ به في خزانة قلبي السرية حيث لا أحد.

لم أتنصل من عراقيّتي يوماً، لكني أحياناً كثيرة أكره هويتي، تلك البطاقة الشخصية التي تؤمن لك المشقة ما حييت ويحتضنك الوطن بشدة حتى يكسر أضلعك واحداً تلو الآخر ولا تستطع أمامه إلّا السكوت لأنه يبكي هو الآخر ضلعه المكسور.

تلفظك المطارات ما إن تحاول الهرب وجواز سفرك يكسر ضهرك، فمازال يكتب عليه «جمهورية العراق» حتى يوقفك موظف الجوازات جانباً للتأكد من أنك لست «إرهابياً» أو لاجئاً جاء يشكو وطناً ما عاد كذلك، نحمل وزر النيات ونعاقَب عليها أحياناً حتى وإن لم توجد.

في فترة ما بعد الاحتلال الأميركي عام ٢٠٠٣ أصبح للعراقيين وطنٌ جديد يُدعى سوريا، كانت الأم الحنون التي تحمل العطر نفسه عطر بغداد.

حملنا عراقيتنا في حقائب صغيرة خوفاً عليها من النسيان،

Telegram: electronic_library

فوجدناها بانتظارنا في دمشق، تلك الحسناء التي عند ذكر اسمها أشعر بهوائها، يداعب شعري، دمشق الآن موضوع آخر، فالرصاص وحدهُ من يداعب الصدور ويقبل الجبين.

هربنا إلى سوريا بعد إلحاح أمي وخوفها من المجهول، خوفها على همام وغيث، فهي قد جربت الخسارة سابقاً وتعرف أن الموت لا يمزح ولا يلعب مع أحد الغميضة، فهو إن قال فعل وإن أصاب أردى.

كانت سنواتي الثلاث في سوريا جميلة تعرفت خلالها إلى عراقيين لم تجمعني بهم أرض الوطن يوماً. وهناك تعرفت إلى عادل، كان يكبرني بأربعة أعوام ويكبرك بحلم.

بعد أن أكملت المرحلة الأولى في كلية الهندسة في بغداد انتقلنا إلى سوريا وقررت هناك أن أدخل كلية الآداب كشيء موقت لقتل الوقت ولحبي للحروف.

سحب كرسياً وجلس ثم طلب لنفسهِ قهوة، كانت الساعة السابعة صباحاً وكان نادي الجامعة فارغاً تقريباً.

لِمَ يجلس هنا على طاولتي وهناك العديد من الكراسي الفارغة؟!!، هذا ما كانت تقوله عيناي وهما تنظران إليه بدهشة وربما غضب لتطفله.

ابتسم ابتسامة جميلة تُشعر من يراها بالطمأنينة.

Telegram: electronic_library

- آسف لتطفلي ولكن حروفكِ تشبثت بي وبحثت عن اسمك في الوجوه حتى جلست على هذا الكرسي.

لم أفهم ما قاله وعلامات الاستغراب كان واضحة على شكلي وأنا لا أنبس بكلمة.

سحب رزمة أوراق وقال: أهذهِ لكِ؟!

عرفت أنها لي فوراً ما أن رأيتها، حيث لم يكن هناك مكان لبياض الورقة وكحل حروفي انساب عليها بطغيان.

نسيت حروفي يومها على عدة أوراق كُبست بإحكام وكتب فوقها اسمي، كانت تخص إحدى المواد التي أدرسها، كنت أملأ الدفاتر والأوراق بعبثي بالحروف، لم أكن أدع الأستاذ وحدهُ من يملأ أوراق دراستي، فكانت فرشاة حروفي تلون أوراقي بما يخطر في بالي، حتى أني لا أُعير دفتري أو أوراقي لأحد فيترك ما فيها من نصوص ويقرأ ما عثتُ فيها من ثرثرة.

لم أفتقد ما فقدت، كنت يومها أحمل الكثير من الكتب ولم ألحظ أن تاه بعضها مني وبعد أسبوع جلبها لي عادل بتطفل جميل.

- نعم إنها لي.

- أنا عادل، طالبٌ هنا وزميل لكِ لكن في المرحلة الرابعة.

- أهلاً بك.

Telegram: electronic_library

- لدي محاولات في الكتابة وربما ينعتونني بكاتب، قرأت الكثير بحكم حبي للحروف وبحكم دراستي ولكني لم أقرأ مثل حرفكِ من قبل.

- شكراً على المجاملة لكني لا أحب المجاملات.

- ليست مجاملة أنا لا أجامل في الحروف، فالحروف وحدها من تُثير غيرتي إن وجدتها عند أحد غيري، فما قلته لكِ لم يكن مجاملة بل غيرة كاتب.

كان رده قاطعاً وهو بوجه جادٍّ جدّاً لا يطلب من ورائه ودي بقدر ما كان يريد أن يعرف من هي تلك التي تمردت على الحروف كما قال.

- حرفك مختلف لا أكثر.

- وكيف عرفت.

- قرأت هذه الأوراق العشر، كانت متمردة جدّاً كلماتك ولها لون لا أعرفه، أسود وأبيض في الوقت نفسه لا أعرف كيف تصطبغ بهذه الطريقة.

كان كلامه جديداً بالنسبة إليّ وغريباً، لم يقرأ لي أحدٌ من قبل ولم أعرف رأي أحد بما أكتب أو بما أبوح حقيقةً في نصوص صغيرة تختبئ هنا وهناك بين أرقام مسألة رياضية أو سخافات المناهج الدراسية.

Telegram: electronic_library

لم أكترث كثيراً لما قاله، كان مجرد شاب وسيم لا تعنيني وسامته بشيء، غير أنه بدأ حواراً في صباح يوم لم يكن يخطر في بالي غير أبي الذي زارني في المنام وأحاول جاهدة أن أتذكر ما رأيت، أن أتذكر ملامح وجهه التي جاء بها غير تلك التي أحفظها ولا أكاد أميزها من صورٍ قديمة خبأتها أمي له.

عرفتُ بعد ذلك أنه شخص مميز أصدر روايتين ناجحتين ويتمتع بأسلوب منفرد لا يشبه أحداً فيه، أو ربما هكذا وجدت كتاباته أنا بحكم معرفتي به لاحقاً .

هذا هو عادل يا آدم وهذه بدايتي معه التي سألتني عنها ألف مرة، وكل ما استرسلت في الكلام كنت تكمل لي الحوار وأقول لك:

- إن كنت تعرف القصة فلم تصر على السؤال.

تبتسم بتهكم وتقول:

- أحب استنزافكِ.

تتمتع بالتلاعب بي ويروقك إيذائي أحياناً، لم أفهم يوماً إن كان هذا حباً أم مرضاً أم أنك هكذا عندما تُحب.

امتلأ عامي الأول في سوريا بالرضى ولا أقول بالفرح، بل بالرضى، الرضى أهم ألف مرة من الفرح، أن تكون راضياً هذا يعني أن تنام مرتاحاً وتستيقظ وأنت كذلك وأن تمارس كل فعل

Telegram: electronic_library

وأن تتقبل كل ردة فعل وأنت سعيد أو مطمئن الرضى أن تتصالح مع ذاتك ومع وجعك وربما مرضك وأن تتأقلم مع كل ما حولك وكأنه فجأة أصبح كما أنت تريد لا كما هو يُريد.

على أقل تقدير كان كل من أحب بخير، لي رفقة جميلة وكتب ممتعة كان أغلبها من عادل، كان يُزودُني بين فترة وأخرى كتاباً يذكر لي بعض الصفحات فيه ويطلب مني أن أركز عليها ثم يسألني ما رأيي فيما قرأت.

لكن أتعلم؟! رغم الكم الهائل من الرضى الذي شعرت به كان ينقُصُني أنت، كان هناك شيء يشدني إلى العراق وكأن بعضي تُرك هناك أو دُقّ وتدٌ في بغداد علقت به أطراف ثوبي ولا أستطيع تمزيق ثوبي أو اقتلاع الوتد.

ارتباطنا بالأوطان ارتباط سحري كخيط سحري لا تراه أبداً، لكنه يمتد معك أينما ذهبت وإلى أي مكان رحلت ليشدك مع الأيام نحو لغتك الأم، نحو أول وطأة قدم ويسحبك بسخرية الأقدار لتعود إلى وطنك المخذول تبكي غربة أنت اخترعتها لوحشة ذاتك وأنت بعيدٌ عن أوجاع الوطن. الوطن الذي يسقينا الوجع قطرةً قطرة حتى تمتلئ أفواهنا مرارة فنبتلع جزءًا ونبصق الآخر ونحمل جباهنا لتتوسد أرضاً أخرى، أقله لا طعم لها.

ويبدأ ما أدمناه سنين طوال يحلو مذاقه في البعد وإن كان سمّاً أكل ما أكل من جوفنا.

Telegram: electronic_library

أعاني هوس النوافذ في أي مكان أكون فيه، أحب الجلوس في الطرف وعلى أحد جانبي نافذة.

أما في السيارة فكان يأخذني الطريق بعيداً وكانت عيناي لا تنفكان منه رغم أني لا أحفظ من ملامحه شيئاً غير أني أغرق في تفكير عميق حتى تقف السيارة وأعود إلى وعيي وأفاجأ أني وصلت إلى المكان الذي أريد.

قال أحدهم: إن أغلب الذين يصرون على الجلوس قرب النافذة في وسائل النقل عندما تسألهم عن الطريق لا يعرفونه جيداً، وها أنا كنتُ واحدة من هؤلاء.

عندما كنت أجلس بقربك في السيارة لأول مرة لم يكن يشغلني أي شي، كان عقلي مفرغاً تماماً من كل شيء وكان كل شيء بدون صوت، غير أن فيروز بأغانيها الواحدة تلو الأخرى كانت تحاول تهدئتي بـ«أنا لحبيبي وحبيبي إلي».

حتى فيروز كانت تتواطأ مع القدر وتغني لنا وتفشي سري أمامك وتقول إنك حبيبي، لكنها قالت أيضاً إنك لي، لكن لِمَ لم تكن لي؟!

ذات مساء تكلمت مع همام أنا وأمي، تكلمنا معه صوتاً وصورة عن طريق الإنترنت، كانت أمي مشتاقة جدّاً إليه ولقد أتعبها بعده الذي تعرف جيداً أن لا رجعة منه ولكن تدرك أنه حي

Telegram: electronic_library

بعيد أفضل بكثير من ميتٍ قريب، فلم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً سوى أن تشتاق إليه وأن تخفي دموعاً تفضحها غالباً عند سماع صوته فتقول على غير دراية وسهواً:

- متى تعود يا همام؟

يضحك بتهكم:

- أتريدين فعلاً أن أعود؟!

تتراجع عما قالت بسرعة:

- لا يا حبيبي كنت أمزح لا أكثر هناك أفضل لك، العراق غير صالح للعيش يا ولدي.

- وكيف تعيشين أنتِ فيه؟

- ومن قال لك يا حبيبي إني على قيد الحياة.

يعتصر قلبي حديثهما فأدخل بمواضيعي الساخرة حتى أضحكهما وأنسيهما كلاماً أعرف أنه يبكيهما بعد انتهاء المكالمة.

بعد أن انتهت المكالمة الطويلة مع همام وبعد أن كلم كل من في المنزل حتى أطفال غيث ذهبت إلى فراشي، كان الوقت متأخراً قليلاً أضاءت شاشة هاتفي رسالة، عندما فتحتها كانت من همام كتب فيها:

«أنت أقوى من أي أحد، لا تجعلي أحداً يُبكيكِ مهما كان، أُحِبُّكِ..».

Telegram: electronic_library

أذهلتني رسالته هذه، كيف عرف أني كنت أبكي على مدى ثلاثة أيام؟ كيف عرف أن شجاراً كبيراً شب بيننا وأرداني ثلاثة أيام وأنا معلقة وعالقة، عالقة في ملابسي وذاكرتي ووجعي.

همام كان يستشعر وجودك على رغم بعده، كان يتذوق ألمك في صوتي في ضحكتي في أنا بخير التي أقولها له.

أذكر أن شجارنا يومها كان الأول في نوعه الذي أتعبني وأجهدني بهذا القدر.

كنت تريد إكمال دراستك للموسيقى في الخارج ومن ثم تعود إلى العراق، كان ما يُتعبك فعلاً هو كيف تعيش فترة من الزمن خارج العراق، ولم أحصل على جزء من تفكيرك في هذه السنين التي قررت أن تعيشها، أدركت لاحقاً أنها كانت فكرة شريرة افتعلتها فقط لتعاقبني على تصرف لم يعجبك أو أثار غيرتك عندما تلقيت اتصالاً من عادل وأنا أجلس بقربك، تكلمت معه أمامك ولم أخفِ شيئاً، لم يكن لدي شيء لأخفيه ولم يكن بيني وبين عادل أي شي قابل للإخفاء، لكنك كنت تغار من نسمة هواء تعبث بخصلات شعري.

يومها لم تفعل شيئاً ولم تبد رأيك في المكالمة وسردت لك أنا موضوعها، قلت لك إنه اتصل ليسأل عن زميلة لنا وكان يحتاج إليها في موضوع يخص دراسته الماجستير وحاول الاتصال بها مراراً لكن هاتفها كان مغلقاً.

Telegram: electronic_library

بقيت صامتاً فترة من الوقت وأشعلت سيجارة نفثت دخانها بقوة، كان يُعجبني شكلك وأنت تُدخن رغم أن سيجارتك كانت تُشعل غيرتي، كيف لها الحق أن تلمس شفتيك على عكسي؟ كيف لها أن تقبلك أنّى شاءت وكيفما شاءت وأنا التي تحول الدنيا جميعها بيني وبين شفتيك؟.

كان المعهد الذي جمعنا هو معهد للهواة وليست دراسته دراسة أكاديمية كان لمن يحب أن يتعلم العزف يأتي إليه ومن يدرس العزف بصورة أكاديمية ودراسة جامعية كان يرتاده لتقويته فيما يدرس.

وأنت كنت لا تحتاج إلى تقوية ولكن لا أعرف لمَ حقّاً كنت هناك، أكنت هناك حتى ألتقيك؟! أم حتى أتعثر بك فينكسر قلبي؟!

كان كل شيء في حياتي كئيباً وروتيناً قاتلاً. أم تعيش على الذكريات وأخ هارب من الموت والآخر يصارعه مرة ومرة يتوسل إليه أن يبقيه لأجل طفلين لم يعرفا بعد ما تعني كلمة موت.

عمل يبدأ منذ الساعة الثامنة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر، أخفي خلاله كل ملامحي الحقيقية وأرتدي أي شيء يبقيني في أمان، حتى الكلام أتحفظ عليه ولا أبذر منه الكثير.

وحبي للموسيقى الذي ولدت به ولم أعمل عليه، لذلك

Telegram: electronic_library

كنت هناك، كنت في مكان جمعنا على اختلاف عوالمنا حتى سكنا في وتر وفي صناديق خشبية تفشي أسراراً لا يفهمها أحد.

على مدى معرفتي بعادل خلال تلك السنين كنت أعرف أنه يكن لي بعض المشاعر التي لم يصرح بها لأنه يعرف أن ما في داخلي تجاهه احترام وتقدير لا أكثر، ولا أراه أكثر من صديق وسيم تحسدني على صحبته جميع الفتيات ويعتقدن أني غبية لأني أضيع شخصاً مثله، ربما لأنهم لم يعرفوا أحداً مثلك ولم يعرفوا أني كنت أنتظرك.

في إحدى المرات كنت ممسكاً بهاتفي وكنت أحدثك أنا عن رهف وأنها تعاني مع سامر لبروده وإهماله الدائم وأذكر أنه يومها قد نسيَ عيد ميلادها وانتظرت منه «كل عام وأنت بخير» لا أكثر، لكنها لم تحصل عليها لأنه لم يتذكر ميلادها وبرر نسيانه على أنه انشغاله الدائم بالعمل وأن كل ما يقوم به من جهد هو لبناء مستقبلهما، حدثتك يومها أنها لم تكن تريد أكثر من أن يتذكر وأن يُسمعها مساءً وقبل أي أحد كلاماً جميلاً، قلت لك:

- لا أعرف كيف تستطيع رهف الاستمرار معه وهو هكذا، كيف لها أن تعيش قصة حب بدون حبيب.

سامر غير موجود أصلاً، هي وحيدة غالباً وتشكو أغلب الوقت إهماله، حتى عندما نخرج أنا وهي للترفيه عن نفسينا كان

Telegram: electronic_library

منظر أي اثنين في الشارع يحزنها ويذكرها بحبيبها الذي لا أمل منه في أن يتغير.

كنت أنت تقلب هاتفي وتعبث به ولا تنظر إليّ وأنا كنت مسترسلة في الكلام عن رهف حتى أنك لم تعلق بشيء على كلامي.

- أتعرف؟! لو أني مكانها لتركته.

- كيف يعني أنتِ مكانها؟ أن تكوني أنت رهف أو أن أكون أنا سامر.

- لم أفهم.

- لو كنت أنا مثله هل كنتِ ستتركينني؟

- لو كنت مثله لما أحببتك، أعتقد ذلك.

- من عادل؟

- ماذا؟!!

- عادل من؟ أفرق السؤال الآن؟

ضحكت على جملتك ولم يخطر في بالي أنك تقصد عادلاً الذي قرأت اسمه في قائمة الاتصال في الهاتف.

- لا أعرف عمّ تتحدث .

وضعت الهاتف أمام عيني وكان اسم عادل موجوداً فيه وقلت:

Telegram: electronic_library

ينقصني أنت

– من هذا؟

– امم تقصد عادل إبراهيم، إنه صديق قديم تعرفت إليه من أيام سوريا عندما كنت أدرس هناك في كلية الآداب.

– لمَ تحتفظين برقمه حتى الآن؟

– لأنه صديقي حتى الآن.

– عليا!!!

– ماذا؟!

– تعرفين أني أكره هذه الكلمة.

– أي كلمة؟

– كلمة صديق.

– أتعرف؟ غريب حقّاً! إنك فنان وموسيقي والمفروض أن مفهومك للأشياء مختلف ولا تفكر بطريقة تقليدية، كيف لكلمة كـكلمة صديق أن تغضبك؟

– أنا شرقي متخلف.

– لم أقل إنك كذلك.

– أنا من يقول، أنا شرقي متخلف تعاملي مع الاثنين.

– أي اثنين.

– شرقيتي وتخلفي.

– حسناً، لكن أنت لست متخلفاً.

Telegram: electronic_library

- لكن، أنا شرقي.

- أحب شرقيتك هذه، وأحب هذين الحاجبين عندما يتحدان في نقطة الغضب ويبدوان كسيفين عند الغيرة.

راقني وجهك عندها وابتسم وهمست لي بـاحِبُكِ وقبلت يدي بنهم حتى ظننت أنك سوف تأكلها.

نسينا حماقاتنا وتهتُ في عينيك.

شدك اسمه في هاتفي رغم أنه سُجل بالحروف نفسها التي سُجلت بها بقية الأسماء ولم يكن اسم الرجل الوحيد الذي في الهاتف، لكنك سألت عنه هو بالذات.

أحياناً، كنت أخافك إلى درجة أني لا أخفي عليك شيئاً رغم أني فعلاً لا أحب إخفاء شيء، حتى أخطائي أعترف بها أمامك وحتى وإن كلفني ذلك أن أنام أياماً على حبوب النوم لأن صوتك الذي لا أنام دونه يهجر سماعة هاتفي، كانت لك قدرة مخيفة على معرفة الأشياء وكان حدسك قوياً وحاستك السادسة تعمل أكثر من حواسك الخمس البقية.

إذا جاءك الفرح مرة أخرى فلا تذكر خيانته السابقة أدخل الفرح وانفجر.. (محمود درويش). ولكني لم أستطع أن أنسى خياناته السابقة، لم يخني الفرح مرة أو اثنتين كان خائني المحترف الذي يلوذ بالفرار مني حتى في أحلامي؛ كيف أنسى خذلانه لي؟

Telegram: electronic_library

كيف أدخل الفرح بذاكرة بيضاء لم يشبها غدره حتى وإن كانت تعتبر أحلام مستغانمي أن النسيان أكبر الخيانات، لكني لا أُجيد الخيانة حتى مع الأشياء التي تخونُني، لكني يا آدم دخلت حبك وقبل أن أنفجر فرحاً به انفجر هو بي خذلاناً قبل أن أمارس طيشي ونسياني وقبل أن تنطلي عليّ خدعة السعادة المبطنة بالغيب وقبل أن أنسى ثوب البكاء الذي خلعته قبل كل هذه الأشياء فتك بي حبك وتركني أحتضر.

أن تعيش في وطن كوطني ليست أكبر فاجعة فيه وأن تفترق عمن تحب فهناك ما هو أفجع حتى بات كل شيء بارداً وكل شيء يقال عنه طبيعي أو عادي، حتى أصبحت كلمة عادي الكلمة الرسمية في وطني.

وما الجديد في ذلك، فنحن وطن الموت وهل يمكن أن يُذهل الموت عن شيء، لا شيء طبعاً.

أذكر يوماً دار فيه حوار بيني وبين عادل عن غربتنا في الوطن وخارجه وقال لي:

– عندما نغترب نحب أوطاننا أكثر، ليس لترف العيش فيها ولكن لشيء ما يقول لنا إننا أفضل ووطننا هو الأفضل، ولكنه في وعكة صحية لا نعرف متى يتعافى منها. نصر على أننا جالية عربية نحب وضع خريطة الوطن في رقابنا، لا أعرف حقّاً إن كان حبّاً ما لبسنا أم أننا نقول لأهل الغرب إننا هنا لأن الوطن قد خنقنا.

Telegram: electronic_library

وقفت كثيراً بعدها عند جملته هذه، صحيح، لماذا نحب الوطن أكثر عندما نتنصل منه؟! هل هو شعور بالذنب أم هو حاجة واشتياق في حالة البعد الإجبارية التي وضعنا فيها. كمن يضعنا في حالة البعد هذه مع الله ويجعل بيننا وبينه ألف باب بحجج وذرائع لا أعرف كيف استطاع اختلاقها؛ الله الذي قال: «ادعوني أستجب، وإن سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الداعي إذا دعاني». قال عبادي ولم يقل الذكور من العباد لم يحدد جنساً للدعوة ولم يميز صنفاً.

ورغم أن الله في كل مكان، مع ذلك لقد اخترعنا له بيوتاً بُنيت خصوصاً للجوء إليه والتفرد به والتحدث معه على حدة، ربما ما يميز المكان ليس اسمه ولكن روحيته سواء كان جامعاً أو كنيسة.

ولكن مجرد أن يقترن اسمه بالله تشعر بروحية غريبة تسكن المكان وتجعلك تشعر صدقاً أنك في ضيافة الله.

لا أتحدث عن روحية الجوامع فأنا لم أدخل جامعاً يوماً، أذكر في فترة من الفترات الصعبة بعد الحرب أصبح للمتدينين قدسية وأصبح اللجوء إليهم مبالغاً فيه، ربما لغياب أي قوة أخرى في الوطن.

لا أذكر الموضوع الذي كانت تتحدث به أمي مع إمام

Telegram: electronic_library

الجامع عند باب المسجد، ربما كانت تحتاج إلى الثرثرة معه فقط ليطمئنها أن كل شيء على ما يرام وأن الوطن في رعاية الله وأبنائه الصالحين، ولكن ما أذكره جيداً أنه لم يكن يريدنا أن نطيل الوقوف قرب المسجد وحتى أنه تحرك بمسافة خطوات ليحركنا نحن معه خارج المسجد، لاحظت انزعاجه من وجود امرأتين في رحاب الله رغم أنه لم يكن موعد صلاة ولن نعيق المصلين عن الدخول أو نُبطل وضوءهم، ربما اعتبرنا فتنة أو عورة أو أن بيوت الله لم تُخلق للنساء.

أو ربما لأني لم أكن أضع شيئاً على رأسي رغم أني كنت في باحة المسجد ولم أدخله حتى أو أدنسه بشعرة يمكن أن تسقط عمداً فتفسد وضوء المكان وتضل المصلين عن الدين وتدخلهم النار ربما.

رغم ذلك فأنا أؤمن بحقي في الوجود فيه كما يؤمنون هم بحق تخزين السلاح فيه والجهاد باسم الدين وقتل ناس لا يعرفون عنهم شيئاً سوى ألقابهم التي تُنبئ بطائفتهم، أو أفكارهم التي نُقلت عبر ألسنة الناس والتي تختلف مع ما يحملون من فكر.

فأصبح الوجود في بيوت الله أمراً مستحيلاً، ربما هم يخافون من فتنتي أو شعرتي الفتاكة التي سوف تنسف المسجد إن لامسته، أما أنا فكنت أخاف على حذائي الذي يصعب تنظيفه من الدماء

Telegram: electronic_library

فيما بعد ما إن يطأ عتبة المسجد، بالإضافة إلى أن الله لا يسكن مكاناً تفوح منه رائحة البارود والدم، فالمساجد بنوعيها حسب الدين بطائفتيه، أصبحت منابر تنادي بالجهاد فقط، لكن الجهاد ضد من هم من دينك نفسه ومن العقيدة نفسها وأحياناً من أديان أخرى غير الإسلام، ففقدت هذه الأماكن كل قدسيتها وأمانها، بل أصبحت أماكن تُثير الشكوك حولك إن ارتدتها.

لكني كنت أحتاج حقيقةً إلى اللجوء إلى الله أو إلى روحانية الأماكن التي تُسمى باسمه، ربما احتجت إلى رائحة البخور أو ماء الورد وكل الأمور التي تشعرك بطهر المكان الذي أنت فيه حتى تظن أن الله يجلس إلى جانبك ويضع يده على كتفك وربما تبكي أنت في حضن رحمته.

فكرت في الذهاب إلى الكنيسة، لم يكن مهمّاً اختلاف الأديان ما دام الكل يتوجه إلى الله بالدعاء وكل منا يكلم الله بلغته ويصلي على طريقته، ربما كانت فكرتي هذه غريبة أو غير مهضومة من قبل البعض، أما أصحاب الجوامع إن علموا بما فكرت قبل أن أنفذه سيهدر دمي لا محال وربما يعتبر قتلي نوعاً من أنواع الجهاد وربما أُعتبر مرتدة.

وبما أن المسيحيين هم الفئة الوحيدة في وطني التي لم ترفع سلاحاً ولم تمتلك سلاحاً حتى، لا أعرف إن كان ذلك لكونهم

Telegram: electronic_library

أقلية أو أنهم يؤمنون بالسلام فعلاً كما يقولون، ضمنت وإن لم يدخلوني إلى كنيستهم أقله أنهم لن يرفعوا السلاح في وجهي وسأعود إلى أمي أنا ودمي في جسدٍ واحد.

اخترت يوماً ليس يوم صلاة بالنسبةِ إليهم وذهبت دون علم أمي، دخلت الكنيسة وبعد أن استغربوا شكلي أو ارتابوا منه سألني أحد الموجودين هناك:

- أهلاً يا ابنتي، هل جئت للصلاة؟

- أهلاً يا سيدي، جئت لله، فهل يمكن للمسلمة أن تكلم الله في كنيسة؟! وهل يمكن أن أشعل شمعة للعذراء مريم؟!

كان جوابي صادماً له بعض الشيء، فهو عرف منذ البداية أني لست مسيحية ولذلك جاء يكلمني بحجة الصلاة، كان ظاهراً عليّ أني أدخل كنيسة للمرة الأولى، حيث إني أنظر إلى كل شيء في الوقت نفسه، وكانت نظرتي تشي باستغراب المستكشف الذي يرى الشيء للمرة الأولى.

لم يعرف بما يرد عليّ، صمت بعض الوقت ثم ابتسم وقال الله للجميع يا ابنتي، ثم تركني ومضى، ربما كان يراقبني من حيث لا أراه لكنه قد تركني في خلوتي مع الله وإن كنت أظن ذلك.

لا أعرف إن كانت كل الكنائس هكذا، ولكن هذه الكنيسة كانت جميلة وساحرة، لقد بُنيت بتصاميم رائعة ورسومات جميلة،

Telegram: electronic_library

جلست قليلاً أتأملها، كان هناك تمثال كبير للعذراء مريم عليها السلام، نظرت إليها مطولاً وتذكرت قصتها وكيف أصبحت أمّاً لنبي من دون أن تتزوج، لا بد أن روحها كانت ملائكية حتى اختارها الله أمّاً لنبي ولم يحرمها من الأمومة دون أن يدنسها رجل.

ربما المرأة العذراء أطهر النساء، هكذا أجد كل القصص حتى الأفلام الروحانية يبحثون فيها عن عذراء.

لكن هل العذرية أن لا يدنس جسدها رجل؟ أم أن لا يدنس قلبها أيضاً؟ ولمَ نتعامل معهم وإنْ كان بشكل خفي وغير معلن أنهم أدوات تدنيس، وأن المرأة تبقى طاهرة حتى يفتك بتلك الطهارة رجل.

ربما المرأة لم تكن في الصورة الكبرى، وأن المقصود في ذلك هو الرجل، أعرف أن لا أحد يفكر بهذه الطريقة عداي أنا من أدقق بالكلمات والحروف كما قال لي عادل يوماً.

قرأت سورة الفاتحة ودعوتُ كثيراً لأمي ولإخوتي وللعراق، ثم أشعلت شمعة ووقفت أنظر إلى العذراء.

ربما هو تمثال لها لا أكثر، ولكني وجدته معبراً لي بدقة صنعه ورقّة ملامحه. كان وجهها أهدأ من وجه الموناليزا، إذا كان الله قادراً على أن يهب لامرأة طفلاً دون الحاجة إلى رجل، فهو قادر على إعادة وطني لي كما كان.

Telegram: electronic_library

قرأتَ سورة الفاتحة من جديد قبل أن أهم بالمغادرة، عندما التفت وجدت القائم على الكنيسة أو الأب، كما يُسمى واقفاً قرب الباب وهو يبتسم، ابتسمت في وجهه وقلت له قبل أن أعبر الباب للخروج:

- أدعُ لنا يا أبانا.

- إن شاء الله يا ابنتي .

وخرجت، مشيت مسافة قبل أن أفكر في أن أستقل سيارة أجرة، فكرت في ما دار هناك وفي ما فعلت وفي «إن شاء الله» التي قالها لي الأب في الكنيسة، كلنا ندعو الله وكلنا نتحدث الكلام نفسه ما الاختلاف ما دام الدين لله خالصاً، أعرف أن القاتل لا يأخذ من وقته الثمين دقيقة للتفكير في كل هذا، هو أداة قتل وقد بُرمج عليه ولكن ألم يُفكر مُبرمجه في هذا الشيء؟ أم أن الله لا يعنيه بقدر ما يعنيه جيبه، وبكم ستدر عليه هذه الدماء المهدورة من أموال وقصور وجوارٍ أو بائعات هوى بأسماء مزيفة تحلل عُهرن.

لن يغضب الله إن دعوته في كنيسة أو جامع، في غرفتي أو في الشارع؛ إنه في كل مكان، ولكننا بشر ونحتاج إلى طقوس ومكان ملموس وتهمنا ماهية الأشياء حتى تكون قريبة إلى عقولنا، غريب هو هذا الإحساس أن تشعر دائماً بحاجة إلى أن ترفع رأسك إلى

Telegram: electronic_library

السماء وتطلق تنهيدة وتبوح بما يثقل صدرك ويتعب عقلك، الكل يتوجه إلى الله، حتى الملحد ربما يدعو الله سراً في قلبه، فاللجوء إلى إله يفوق إدراكك وقوتك وكل شيء تملك كأنه طوق نجاة، ففي الطفولة تلجأ إلى والديك لأنهما يفوقانك بكل شيء وعندما تبدأ بالنضج أكثر فأكثر تحتاج إلى اللجوء إلى من يفوق كل شيء وإن كنت ترى أن الطبيعة هي المسؤولة عن كل الخليقة، فأنت ترفع وجهك نحو السماء وفي النهاية إلى الله، جميعنا مؤمنون بالفطرة كما أننا جميعاً متشابهون مهما اختلف الوعاء الذي تُحفظ فيه أرواحنا. لذلك، اختلقنا فروقات تميزنا أو ندعي التميز بها كاللغة والنسب والانتماء والدين والأخير أدى الاختلاف فيه إلى كوارث ضد الإنسانية التي هي فطرتنا الأولى قبله، لكن هذا الاختلاف مربح للكثيرين من الأذكياء ووهم للبسطاء ومحدودي العقول...

***

تأزمت نفسية رهف بعد المرة الثالثة التي تقدم فيها سامر لخطبتها وجوبه بالرفض من أهلها.

كانت محبطة ومكسورة الأحلام شاحبة اللون ولا يعرف وجهها شيئاً من مساحيق التجميل منذ مدة.

دعوتها إلى الخروج حتى نستطيع التحدث براحة في مكان

Telegram: electronic_library

ما دون أن تتوسل إلي أمها عند زيارتي لها بأن أقنعها أن تنسى هذا الشاب وهو غير صالح لها، وإن كانت تحبه فحتماً سيواجهان المشكلات في المستقبل لاختلافاتهما الطائفية، وأنا لا أملك جواباً لعقل أمها الذي لا أعرف كيف يعمل غير أني أقول لها: «إن شاء الله خير» وأبقى أحرك رأسي بأني أوافقها بما تقول وأنا أستمع إلى كلامها الذي غالباً ما يُختم بالبكاء حتى تختفي الكلمات تحت زحمة الدموع، لأن الحوار مع امرأة فقدت ابنها البالغ سبعة عشر عاماً بسبب طائفي لن يقنعها الحب ولن يقنعها أن تضع يدها في يد من هم من ملة قاتله حتى إن كان هذا القاتل مجرماً يختبئ تحت طوائف ليس منها وليس له صلة بالدين من الأساس، كان سامر يثور عندما يُفتح هذا الموضوع وتنتابه موجة غضب ويصرخ «ما علاقتي أنا بمن قتل من، لست أنا من قتل أخا رهف وليس من قتل ابن عمي في السنة الماضية هو أبو رهف، الكل يُقتل تحت اسم الدين ومن الطائفتين، كيف ندعي أننا مثقفون ونحن حتى هذه اللحظة لم نفهم هذه اللعبة الوسخة».

كان كلامه صحيحاً طبعاً، ولكن أبوين احترق قلباهما على ابنهما الوحيد وسط ثلاث بنات لا يمكن أن يطفئهما أي منطق أو أي حقيقة، ربما لو كان الأمر بعيداً عن مصطفى وكان الآن بينهما على قيد الحياة لقالا عما يفعلان الآن أنه غباوة ونقص عقل ودين،

Telegram: electronic_library

لكن لا عقل للأمومة ولا دين للأبوة، لا يفهمان إلّا أنهما فقدا ابنهما بسبب ترهات لم يفهمها ابن السبعة عشر الذي رحل مغدوراً به.

جلسنا أنا وهي في مقهى جميل نختلي به غالباً عندما تكون لنا ثرثرتنا الخاصة بعيداً عن عيون بقية الصديقات، قلت لها متجاهلة شرودها الذي بدأته ما إن أسندت ظهرها على الكرسي:

- ماذا ستطلبين، قررت أن أدعوك اطلبي أغلى شيء واستغلي الفرصة؟

كانت جملة مازحة أردت بها أقله أن تبتسم، لكنها ردت دون أن تنظر إليّ:

- الفرح، هل يَقدمون الفرح هنا أو في أي مكان آخر؟!!

كانت رهف موجوعة جدّاً لا تعرف ماذا تفعل، أتقسو على حبيبها الذي لا ذنب له بكل ما يجري وهو الذي يجري ليل نهار من مكان إلى آخر ومن عمل إلى آخر يُسابق الزمن عله يفوز عليه قبل أوانه قبل أن يقصم ظهره أو يحنيه، قبل أن تجد الخيوط الفضية طريقها إلى رأسه ليوفر لهما حياة سعيدة بعد الزواج، أم على والديها اللذين لم يعودا يشعران بشيء ونسيا طعم الفرح الذي طلبته تواً برحيل ابنهما العزيز الذي كانا يحلُمان أن يصبح طبيباً يوماً ما، فكأن في النهاية لا تجد من تقسو عليه غير «رهف»،

Telegram: electronic_library

لم تجد غير ذاتها سيتحمل الوجع ويبتلع المرارة إلى آخر قطرة حتى اصفرار وجهها شحوباً وحزناً، بدأت علاقتها بسامر علاقة جميلة.

تشكو هي من بعض اللّامُبالاة لديه ويشكو هو من تدقيقها في كل الأمور ولكن لا تهدُم هذه الأشياء للحب بيتاً ورغم اندلاع الحروب الطائفية والخلافات الغبية التي يعيشها الوطن لم يفكرا في الأمر بجدية، حيث إن لكل منهما عائلة مثقفة تفكر بطريقة متطورة ولا تقبل الخطأ أينما وجد، لكن عندما يصل الموضوع إلى درجة موت عزيز، هنا تنقلب كل الأشياء وتعود كل الأطراف إلى عصر الجاهلية، وليس مهماً ما قد حصلوا عليه من شهادات جامعية واختلافات فكرية، حتى أبو رهف الذي كان صاحب مبدأ ولا يدافع إلّا عن المظلومين ولا يدخل في قضايا فاسدة يتحتم عليه فيها الدفاع عن مجرم حقيقي.

لم يستطع الدفاع عن حب ابنته أمام حبه لابنه ولم يستطع أن ينصف عقله أمام قلبه حتى وإن كان يعرف أن الأخير على خطأ، فهو الآن وللمرة الأولى، يقف إلى جانب الظلم، هو لا يُدافع عن مجرم ولكنه يدين بريئاً في إجرام غيره وهو يعرف ذلك تماماً، فماجستير المحاماة الذي حصل عليه بجدارة كان يقدر على التمييز بين البريء والمتهم ولكن لا يوجد أي إنسان منا يستطيع

Telegram: electronic_library

أن يهزم قلبه، وإن استطاع فلن يقدر على الحب تلك السلطة العليا التي تَفسد أمامها كل البراهين والأدلة، وأي حب كان يعاني، كان يعاني حب الأبوة تلك الأبوة التي أدمى قلبها مصطفى برحيله ودفعت ثمنها رهف..

أجبتها مُبتسمة:

- ستحصلين عليه يوماً وتنسين عندها، أساساً أنتِ لا تذكُرينني إلّا وقت المصائب.

ابتسمت أخيراً، لكني ما زلت أرى بريق الدموع في عينيها، وبعد قليل من الصمت قالت:

- أتعلمين! أكثر من دُمر في حرب العراق وتأذى هو الحب.

حتى بات يطرق الباب، يلقي التحية ويسأل عن الطائفة، إن ناسبته دخل وإن لم تناسبه خرج وأغلق الباب خلفه، أرأيتي حبّاً مهذباً كحُبنا، حباً لا وجود للجنون فيه أو الاقتحام.

لم أرد أن انخرط معها في ما تقول، لأن كلامنا في النهاية سيُختم بدموع وأنا أخرجتها من بيتها حتى تنسى استعمال المناديل الورقية التي اقتاتت بدموعها عدة أيام، فعلاً ما قالته صحيح.

دُمر الكثير من وطننا ولكن كل شيء سيعود كما كان يوماً ما وربما أفضل، ولكن الحب المهدوم كيف لهم أن يُرمموه من جديد؟ كيف لهم أن يلصقوا تلك القلوب التي أصابها الوطن بشرخٍ كبير.

Telegram: electronic_library

لن يلتحم أبداً، سواء بسبب حبيب رحل بملء إرادته أو آخر اختاره الموت دون موافقته.

- دعكِ من الحب الآن، أساساً الحب لا فائدة منه غير وجع الرأس.

- وهل حُبكِ لآدم فيه وجع رأس؟!

أسكتني ما قالته، ربما اعتبرت سكوتي هذا نفياً لما قلت لها عن الحب ووجعه، لكن حبي لآدم لم يكن وجع رأس، كان وجع قلب، الأول ربما يهدأ بحبة أسبرين، لكن الثاني لم أجد أسبرينته حتى الآن، أن تحب امرأة رجلاً مختلفاً على جمال هذا الشيء ولذته وعلى ما فيه من وجع.

رجل له عالمه الخاص ورأسه الخاص وكل تصرفاته وقراراته منه وليس عليه سلطان غير عقله، وطريقة تفكيره التي لا يمكن لأحد أن يغيرها، رجل ترك أهله في أوروبا واختار أن يعيش هنا رغم الظروف السيئة والموت الذي يجوب الشوارع ولا رادع له، رجل رأى أن وطنه بحاجة إليه وهو يمر في أزمة رغم توسلات عائلته أن يترك العراق وينضم إليهم في بلاد لا تعرف عن أحوالنا أي شيء سوى ما قد يصادفونه على التلفاز في أخبار المساء، لا أعرف حقّاً إن اختار العراق أو اختارني. قال لي يوماً: «الغربة هي الشعور بعدم الانتماء إلى شيء، سواء كان مكاناً أو زماناً أو أشخاصاً.

Telegram: electronic_library

وأنا عندما أعبرِ حدود الوطن لا أشعر بالانتماء إلى أي شيء حتى عودي أتنصل منه، كيف لي أن أعزف في بلاد لا تعرف آلتي ولا تفهم نوتاتي»...

كأني لم أسمع سؤالها وقلت:

- ألم أقل لكِ دعك من الحب الآن، نحن في رحاب الصداقة، لم لا تذكرين كيف كنا قبل أن نعثر به، كان ضجيجنا يملأ المكان حتى نفضل أن نلتقي إما في بيتي وإما في بيتك حتى لا ينتقد أحد صراخنا وضحكاتنا العالية، أحتاج إلى يوم من هذه الأيام بدون نكد الحب، إن كنتِ مستعدة سأدعوك الآن، وإن كنت مصرة على وجهك العابس هذا سأتركك وأرحل وابقي أنتِ هنا تحدثي إلى الكراسي والمناديل، ها ما رأيك؟!

ردت ضاحكة:

- حسناً، موافقة ارحميني من تذمرك...

بعد قليل من الثرثرة بعيداً عن الحب الذي جلس بيننا وتجاهلناه عمداً حتى لا نطلبِ من النادل مناديل إضافية، جلس إلى الطاولة المجاورة لنا رجل وامرأة، كانت المرأة حاملاً ربما في أشهرها الأخيرة لأن بطنها كان كبيراً نوعاً ما رغم ذلك كانت أنيقة وعلى ما يبدو أنها ليست من هنا.

انتبهنا لهما أنا ورهف وشدّا انتباهنا لا أعرف لماذا رغم أن

Telegram: electronic_library

شكلهما كان طبيعياً، أو ربما ما شد انتباهنا هو الأمومة وتخيلت كل منا نفسها بهذا البطن الكبير وبعدها بأشهر كائن صغير يعتمد.

عليك بكل شيء ويناديك بماما، كنت أعشق الأطفال على عكس رهف التي كانت لا تهتم بهم وكانت تقول: « لن أفكر في أن أنجب أبداً لا أحتمل ضجيجهم بالإضافة إلى أنني لا أريد أن أفقد قوامي الجميل، ربما سأنجب واحداً فقط وذلك إن هددني سامر بالطلاق وتضحك بسخرية.

قلت لها:

- أجد الولادة والحمل أمراً مرعباً، مجازفة بكل المقاييس ولكن تلك الغريزة التي زُرعت فينا كنساء أطفأت عقل الخوف عندنا حتى أصبحت أمنية كل امرأة الحصول على هذا البطن الكبير، ما عداكِ طبعاً.

- الولادة هي كزيارة للموت والخروج منه وأنت تحمل هدية، وهي أكثر الهدايا ثمناً، كأن تُجازف بروح للحصول على اثنين.

لا أعرف من أين أتت رهف بكل هذه الحكمة، هل يجعلنا الحزن مفكرين وحكماء، متى جلست وفكرت في هذا الشيء وهي التي آخر همها الحصول على طفل أو تشويه قوامها كما تقول دائماً.

Telegram: electronic_library

أو ربما هي الأزمات التي نمر بها أو تعصف هي بنا تجعلنا نفلسف كل الأشياء بما يليق بما نملك من حزن.

ما إن بدآ بالكلام بصورة متواصلة حتى وصلنا القليل من حديثهما، طلب هو من النادل بلهجة عراقية كأسين من عصير البرتقال ومن ثم توجه إليها بالكلام بالإنكليزية واستمرا في الحديث بها.

عرفت أنه عراقي وزوجته امرأة أجنبية لم يكن يبدو عليها هذا تماماً رغم ما حملته من ألوان أوروبية كلون الشعر والعينين، نظرت إلى رهف وقلت:

- إذاً، هي أجنبية!

- قالت وإن يكن!

- لا شيء، ولكن فكرت في شرقيته فقط، الرجل هنا يسعى جاهداً أن يكون أول رجل في حياة زوجته سواء كان أحبها أم اختارها من أجل الزواج فقط، يؤمنون بدور البطولة والبطولة المطلقة.

لا يقبل أن يدنس قلبها رجل غيره أو أن تحب رجلاً وإن كان سرّاً بينها وبين نفسها، حتى أني أتذكر ذلك الذي قال لي يوماً: «إن تزوجت وعرفت أن زوجتي كانت معجبة بشخصٍ ما سأطلقها وإن كان لي منها عشرة أطفال»، لكنها أجنبية ولن يدنس رجل قلبها فقط وإنما سريرها أيضاً.

Telegram: electronic_library

وربما لم يكن رجل وإنما رجال...

- طبعاً، هل سمعت برجل شرقي قتل زوجته الغربية لأنها ليست عذراء؟!.

هم يُغيرون قناعاتهم حسب المجتمع فعقلهم قابل للتشكل من جديد ما زال بعيداً عن الشرق.

ولكن في شرقنا العزيز تجدين كل واحد منهم عنترة وإن كان سيفه من بلاستك.

ضحكت من كلامها حقّاً واستغربت في الوقت نفسه، رهف التي لم تكن تفكر يوماً بهذه الطريقة لا تهمها هذه الأمور، إنسانة لا تتعب عقلها بشيء غير التفكير في سامر وما سوف تشتري لحفلة دُعيت إليها أخيراً، رغم أنها تغيرت قليلاً بعد وفاة أخيها منذ عامين ولكن لم يؤثر ذلك إلى درجة أنها تحلل الأمور بهذه الطريقة البعيدة عنها.

- ألا تلاحظين أنكِ بدأت تتكلمين مثلي؟!

- أكيد من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم، وأنا أعرفك منذ أكثر من أربعة عشر عاماً، ماذا تتوقعين، سأجن أكيد وأفكر في الشرق وعاهاته التي أكلت عقلك وأنت تحللينها وتبحثين عن الحلول لها.

ضحكت من هجومها هذا لكنه أقله هو كلام بعيد عن مشكلتها.

Telegram: electronic_library

- لا صدقاً ما الذي جعلك تتحدثين هكذا؟ كنتِ دائماً تقولين: عليا بربك دعك من الرجال ومن الشرق. هم هكذا ولن يتغيروا، وليس مهماً أن أحظى برجل متخلف المهم أن يكون وسيماً، دائماً وأنتِ سطحية ما الذي جعلك ذات عمق.

- لا يا حبيبتي ليس رجاحة عقل ما أقول، تجدينني أتحدث بعمق لأني واقعة في واد ولا أعرف الخروج منه.

ها هو الموضوع يعود من جديد إلى المشكلة نفسها، لا تستطيع أن تهرب منها مهما دار الحديث وابتعد.

سيلف ويدور ليعود من جديد إلى مشكلتها، فالذي علق في وادٍ لا يُفكر كيف هي الحياة على الجبال ولكن يفكر كيف يمكن له أن يصل إليها.

عادت لتكمل:

- أتعرفين منذ فترة وأبي يترافع في قضية، ربما هي ما جعلتني أفكر لأول مرة في ما يعانيه الشرق أو ربما لأني استنفدت كل التفكير وفي كل الأمور لدرجة أني أصبحت أفكر حتى في القضايا التي يُمسكها أبي والتي هي مشكلة غيري.

- ما هي تلك القضية التي نجحت في أيام على تحريك عقلك بينما فشلت أنا طوال تلك السنين؟

- قضية امرأة قتلت زوجها.

Telegram: electronic_library

- يا ساترا! كيف هذا؟ وما الشيء الذي فعله حتى اقتنعت بضرورة قتله، أعتقد أن القتل شيء أصعب على المرأة منه على الرجال بحكم طبيعتهم، ربما هو كائن يتسم بالعنف ولكن هي بعيدة عنه.

- قبل أن تسترسلي في التحليل اعرفي السبب.

- وهل تعرفين السبب؟!! ماهو؟

- خانها.

- خانها!! كيف اكتشفت ذلك!!

- لم تحتاج إلى أدلة، كانت في إيفاد من الدولة أعتقد أنها كانت في أميركا، حيث إنها أستاذة في الجامعة وحاصلة على شهادة دكتوراه وحصلت على بعثة بحكم مكانتها العلمية لتحضر مؤتمراً علمياً أو طبياً لا أعرف بالتحديد ما هو، كان من المفترض أن تبقى هناك أسبوعين ولكنها عادت بعد أسبوع ولم تخبر زوجها بهذا لأنها تريد مفاجأته، وخصوصاً أنها جاءت محملة بأشياء يحبها زوجها كهدايا له، كما قالت لأبي، وعند وصولها إلى البيت صباحاً حيث المفروض أن يكون هو في الجامعة إذْ إنه أستاذ جامعي أيضاً كانت تفكر أن هناك فرصة سانحة لتوفير جو رومانسي له عند عودته بعد الظهر من عمله المتعب، وما إن دخلت غرفتها حتى وجدته مستلقياً عارياً فوق أخرى.

Telegram: electronic_library

صدمها الموقف وبقيت صامتة أمامه وانتفضا هما من السرير عند رؤيتها، أعتقد أنها كانت لحظة صمت لم ينطق خلالها أحد منهم فتوجهت إلى الخزانة على مرأى منهما وفتحتها وهو يقول لها: «حبيبتي سأشرح لك الأمر»، تصور ربما وقتها أنها تريد أن تأخذ ثيابها لتهجره لمعرفته بأنها إنسانة هادئة جدّاً ورقيقة لا تعرف حتى كيف تتصرف في هذه المواقف، فتحت درج الخزانة وأخرجت مسدسه الذي يحتفظ به هناك وأطلقت عليه رصاصة واحدة في قلبه، لا أعرف كيف أجادت تصويب الرصاصة إلى حيث تريدها، ربما كانت تحترف الرماية، والأدهى من هذا ليس لديهما أطفال لأن حضرته لا يُنجب، أستغفر الله لا أعرف إن كان يحق لي التكلم هكذا عن ميت، ولكن تخيلي أنها بقيت معه وهو لا يُنجب رغم غريزة الأمومة التي تحدثنا عنها منذ قليل وبعد كل هذا خانها، كان يستحق أكثر من رصاصة برأيي.

- يا إلهي أمعقول هذا؟!!

- أجل معقول، كل شيء أصبح معقولاً في هذا الوطن.

- وماذا فعلت بالمرأة التي كانت معه؟!!

- لم تفعل شيئاً.

- وكيف هذا؟!!

- سألتها إن كانت عاهرة وهذه مهنتها، فأجابتها بأنها كذلك،

Telegram: electronic_library

سألتها بكم اتفق معها؟ قالت وهي تبكي: أرجوكِ لا تقتليني. سألتها كم اتفق معكِ أجيبي، قالت: مئتا ألف دينار عراقي.

أعطتها المبلغ، وفستاناً من فساتينها غالي الثمن وطلبت منها الخروج بهدوء.

- أجنت؟!! أعتقد أنها جنت عندما رأت زوجها يخونها، ليس بالضرورة أن تقتلها فهي فاجرة وهذا عملها، ولكن أن تعطيها النقود وهدية فستاناً هذا ما لم أفهمه.

- قالت لأبي عندما سألها عن السبب الذي دفعها إلى فعل ذلك وهي التي صعبت القضية على نفسها بترك تلك العاهرة ترحل دون إبلاغ الشرطة في وقتها وهي موجودة، «إن هذه المرأة لم تؤذني في شيء حتى أؤذيها أنا، هي عاهرة ولها أسبابها في تلك المهنة وإن كانت مقنعة أو لا.

ولن أصلحها أنا أو الحكومة، فإن الشرطة ستقبض عليها فترة من الزمن ثم تطلق سراحها إن لم يمارس معها رجال الشرطة الرذيلة التي مارسها معها الأستاذ الجامعي، وإن كانت هذه مهنتها لن يغتصبوها وإن فعلوا ولكن غيرهم يدفع أجراً لهذا ولكن هم لن يدفعوا شيئاً».

- هل هي مجنونة أم فيلسوفة؟!! كيف لامرأة في مثل وضعها أن تفكر بهذه الطريقة.

Telegram: electronic_library

- أو ربما ناشطة في مجال حقوق المرأة، لا أعرف حقّاً يا عليا ولكن أبي يقول: إنها إنسانة رائعة جدّاً من الناحية الاجتماعية والأخلاقية.

ومن خلال كلامه معها وما عرفه عنها من أقربائها وأصدقائها والمحيطين بها، وهل تصدقين أنها تعتبر تلك المرأة صاحبة فضل عليها لأنها كشفت لها زوجها الخائن.

- ربما لذلك أعطتها النقود وكذلك الفستان.

- ربما، لكن في الأخير هي صعبت القضية على نفسها أكثر مما لو كانت هذه العاهرة موجودة حتى حضور الشرطة.

- أعتقد لو أنها كانت موجودة لتحول الموضوع من جريمة قتل إلى جريمة شرف.

ضحكت رهف بقوة وقالت:

- هذا ما قلته لأبي، قلت له أعتقد أن القضية كانت ستصبح جريمة شرف لو لم تتركها ترحل.

ضحك أبي وقال أي شرف؟! لا شرف للرجل يا ابنتي.

- كيف ذلك؟! أليست قضية زنى، والزنى في شرقنا له علاقه بالشرف أكثر مما له علاقه بالحرام.

- أوضح لي بعد شرح مطول أن الرجل فقط من يرتكب جرائم شرف بحق قريباته ويتعاطف معه القانون أيضاً، ولكن

Telegram: electronic_library

المرأة إن قَتلت باسم الشرف لا تعتبر كذلك بل تعتبر جريمة قتل متعمد لأنه كما قال: إن شرف المرأة هو جسدها وشرف الرجل جسدها أيضاً.

- أمعقول هذا؟!! وهل يطلقون سراحه إن قتل امرأة تعود إليه باسم الشرف وتعاقب هي إن فعلتها.

- لا، يحكمون عليه حكماً مخففاً بكم سنة سجن ثم يخرج نافشاً ريشه لأنه حصل من الرجولة على وسام لأنه قتل باسم الشرف والرجولة.

- أي قانون هذا وأي عدالة، إن كان عقابهم الديني واحداً كيف يكون العقاب المدني غير ذلك وهم الذين استحدثوه لأنهم يرون هناك ظلماً في الدين.

- لا أعرف لكن لا شرف للرجل.

استمرت في الضحك وهي تردد لا شرف للرجل يبدو أن الجملة أعجبتها، وبقيت أنا مذهولة بهذا.

القانون الذي لم أعرفه من قبل وتساءلت كم يوجد من قوانين تُمارس ضد المرأة وأنا ليس لي بها علم، وإن كنت على علم بها ماذا سأفعل غير أن ألعن هذا الشرق أكثر مما هو ملعون بحملهِ قوانين كهذه وفكراً كهذا الذي يقول لا شرف للرجل.

قالت وأنا شاردة البال:

Telegram: electronic_library

- أنا متطرفة التفكير أشعر أن الجنس يُفقد لذة العلاقة ويفقد الترقب والهوس، الإشباع حالة ملل حتى انتظار جوع قادم.

- يُقال إن ثلاثة لا يشبعون، الأرض من المطر والعين من النظر والأنثى من الذكر.

لا أعرف إن كانت الأخيرة حقيقة أو وجدت لأنها على الوزن نفسه مع المطر والنظر، ولا أعرف أي شبع يقصدون أحسي أم جنسي؟

- وهل الرجال يشبعون؟!!

قالتها بسخرية كبيرة وغيرت ملامحها بطريقة مضحكة فضحكت مما قالت، قلت لها وأنا أضحك:

- لا أعرف حقّاً، لم لا ننظر إلى الأمر كالأوروبيين، إن الجنس هو التعبير المادي عن الحب. قرأت مرة أن المرأة أقوى جنسياً من الرجل وهي لا ترضى ولا تشعر بالنشوة بسهولة لذلك هي لا تشبع.

- ربما، ولكن في حالتي أنا لم أصل إلى هذه المرحلة، أنا لم يشبع أي شي فيّ حتى يبدأ جوع جسدي أو رغبتي، ما زالت عيني فارغة ويدي وأذني عندما يطفح بها سيفكر الجسد في جوعه.

ضحكت بصوتٍ عالٍ هذه المرة، رهف أصبحت تتكلم بسخرية كبيرة لها طعم المرارة، أعرف أنها تشكو من إهمال سامر

Telegram: electronic_library

دائماً وهذا ما قصدته بجوع كل ما فيها، رغم ما يفعل للحصول عليها ولكن يبقى الاهتمام سيد الموقف بالنسبة إليها.

عدت إلى البيت وأنا أفكر في ما قالت رهف وأكثر ما علق بذهني قصة المرأة التي قتلت زوجها.

كم نعاني ازدواجية مقيتة كتلك الصورة التي رأيتها منذ أيام على إحدى مواقع التواصل الاجتماعي للجامعة الأميركية وهي في شمال العراق، كانت الصورة لعدة فتيات جميلات التقطت لهن الصورة في إحدى المحاضرات، ليست المشكلة بأنهن جميلات فالجميلات في بلادي في كل مكان ولكن كانت طريقة لبسهن مختلفة أو متحررة نوعاً ما ولا وجود للحجاب فيها تماماً.

قرأت ما كُتب من تعليقات على هذه الصورة التي كانت تعليقات شباب طبعاً، جاء كلامهم ممازحاً وممزوجاً بالخيبة والتحسر على عدم توافر مثل هذه النوعية من الفتيات في كل الجامعات العراقية رغم وجودهن في الحقيقة، ولكن بأعداد أقل وفي بغداد فقط، أما بقية المحافظات الجنوبية أو الغربية فلا أعتقد أن هناك أصلاً فتاة غير محجبة وليس لها طبعاً صلة بشيء اسمه «جينز» فهو للرجال فقط.

الازدواجية أن الذين علقوا بالتمني لارتيادهم هذه الجامعة أو زيادة نسبة الفتيات في بغداد أو بقية المحافظات بطريقة لبس

Telegram: electronic_library

ومظهر كهذا هم أنفسهم الذين علقوا منذ أيام على صور: ما رأيك بالفتاة غير المحجبة أو التي ترتدي حجاباً غير صحيح تماماً وتظهر جزءًا من شعرها أو ما يُدعى بالحجاب الخليجي التي تظهر فيه خصلات الشعر فوق الجبين؟ أو ما رأيك بهذا الحجاب لفتاة ترتدي حجاباً مع بنطلون جينز ضيق أو تنورة قصيرة، انهالوا جميهم بذم أو شتم هذه النوعيات من البنات، وكل منهم وضع عمامة وطال ذقنه فجأة ليفتي أن الحجاب واجب وحرام من لا ترتديه أو من ترتديه بهذه الطريقة وهذه حالة فجور وفسوق وما إلى ذلك، لكنهم أنفسهم من تتطاير أعينهم على ذراع مكشوفة أو فخذ قد ظهر خطأ، أين الحرام إذاً!! أم هو أيضاً ذنب المرأة.

مجتمع ازدواجي وإن واجهته يوماً بازدواجيته سوف يتنصل من كل شيء ويختبئ خلف الدين ويؤلف لك قصصاً وأحكاماً على هواه لأنه يعرف أن لا أحد يفقه بالدين ولا حتى هو.

عندما أذكر ازدواجيات الآخرين يخطر ببالي عادل، ذلك الازدواجي الجميل الذي يجمع بين كاتب حاذق تعشقه كل النساء كبطلٍ في رواياته وبين رجل بسيط يخجل أحياناً من أن تنظر إليه إحداهن نظرة إطراء، أحب جمعه للأمرين معاً، أحب اختلافه الجميل ولكني لم أحبه يوماً أكثر من صديق مقرب ومثقف يعرف تماماً مكان كل حرف وكل كلمة يستعمل الكلمات في وقتها تماماً

Telegram: electronic_library

وهي ناضجة كل النضج لا يقولها وهي فتية فتقلل من شأنه ولا يأتي بها وهي كبيرة فتجعله مغروراً.

هو رجل الكلمات الناضجة التي تجلس في محلها بارتياحٍ تام وإحكام. لذلك كان الخوض معه في الحديث ممتعاً أخرج منه بفكرة أو بكلمة لم أسمعها من قبل كان رجلاً مُثمراً يقطف ثمار كلماته ويهديها إلى من يصغي إليه بإمعان، عندما كنت في سوريا كنا نتحدث كثيراً ما إن أنتهي أنا من محاضراتي وهو من مشاغله ونلتقي صدفة قد يفتعلها هو أحياناً، حتى يسحب كرسياً ويجلس بابتسامة ويقول:

- استدعيني إلى فنجان قهوة أم أفعل أنا.

أضحك وأطلب لنا القهوة ثم يدفع هو فأقول له:

- أعتقد أنها على حسابي.

فيرد قائلاً:

- أنت من قام بطلبها إذاً، يجب أن أدفع أنا، العدالة جميلة.

وتأتي ابتسامته مسرعة تلامس هدوء ملامحه، وهو الذي كان يحب العدالة ويبحث عنها، كان عادلاً كاسمه ولكن هذا ليس كافياً لتمارس معه الحياة عدلها، فالحياة لا تأبه لنا ولا لما نحمل من أسماء.

هي تتحامق، تعاقب وتكافئ كما تشاء دون سابق معرفة،

Telegram: electronic_library

وحاول هو أن يجسد هذا في رواياته، يُعقد شخصياتها كثيراً حتى الوصول إلى الحكمة فتبطش بهم الحياة أكثر كلما لامسوا وجهها الخفي وصولاً إلى الحقيقة المطلقة التي نفتها الحياة وجعلتنا في خضم السراب.

قلت له يوماً وأنا أعلق على إحدى رواياته التي أهداها إلي:

- لا أعرف كيف يمكن أن تُدرج خيالاتك على الورق، كيف يمكن أن تختلق حبّاً ينشأ عند مقعدين في قطار ويتشبث كل منهما بخيال الآخر ليعود مساءً يحلم به فيلتقيان بعد شهر مصادفة ويبدأ ما تخيلاه.

- ربما هي خيالات بالنسبة إلي وإليك ولكن هي عند أحدهم حتماً حقيقة، عليا ليس بالضرورة أن يكون للحب كرنافال موسيقي وبذخ، الحب يمشي في الشارع مثلنا ويركب الباص والقطار ويأخذ قهوته في أي مقهى وأحياناً ينام على الرصيف، الحب كائن مشرد لا عنوان له فلا تتوقعيه حيثما يقول عقلك، الحب لا عقل له.

ذكرني حديثه هذا بصديقتي التونسية التي كانت تحلم بمشرد، كفارس أحلام عندما كنا نتحدث عن الحب ونتبادل أخبار المتحابين، نأسف لألم أحدهم ونفرح لزواج آخر، أخبرتها ذات يوم أني إن أحببت يوماً سأحب شاعراً، يجب أن يكون رجلاً ذا

Telegram: electronic_library

خبرة بالحروف، يجب أن أموت على شفتيه كقصيدة وأولد على صدره ككتاب. ابتسمت لكلامي وأخذت رشفة من العصير الذي كان أمامها وقالت وهي تنظر بعيداً: «وأنا أريد أن أعشق مشرداً» استغربت كلامها وضحكنا عليه معنا، ربما هي كانت تعرف أن الحب كائن مشرد كما قال عـادل، والمشرد لا يعرفنا إلّا بالمتشردين أمثاله. كانت واقعية بخيالها إذاً، ولم تطلب فارس أحلام على حصان أبيض أو في سيارة فخمة بيضاء، واجهت واقع الحب وتقبلته مثل ما هو وطلبت مشرداً.

هل هما وحدهما من يعرفان هذا الشيء عن الحب! أم أنا وحدي التي أراه كائناً أرستقراطياً ذا بذلة رسمية وربطة عنق!

قلت له وأنا أضحك:

- لن يُوقع بي شيء لا عقل له وإن كان هو الحب بجلالةِ قدره.

- الحب ليس قطعة شكولاته ترفضينها خوفاً على قوامك، الحب كالآيس كريم في الشتاء إما أن يشعرك بالسعادة في تحدي الطقس وإما يصيبك بوعكة صحية، وفي الحالتين ستتمتعين بلحظة الجنون تلك التي خالفت بها المنطق.

- أمثلتك كلها هكذا شكولاته وآيس كريم، أم فقط عندما

Telegram: electronic_library

يخص الأمر الحب؟ كيف ستكون أستاذاً جامعياً تشرح للطلبة وأمثلتك كلها داخل ثلاجة.

ضحك من سخريتي ورد بقوة:

– أمثلتي هكذا عن الحب لأني أكلم امرأة، وأعرف تماماً ما تمثله الشكولاته للنساء، وأعرف ما يمثله الآيس كريم للأطفال، وفيَ النهاية المرأة طفلة مهما كَبُرت.

حتى في حدود سخريتي أجد حنكته، هو لا يقول كلمات اعتباطية، حتى أمثلته الساخرة لها وقائع حقيقية، هو رجل لا انتصار عليه في اللغة لكنه يشعرك بنكهة خسارتك أمامه.

– إذاً، تختلف أمثلتك كلما اختلف المتلقي، كما قلت في روايتك «أحياناً الحب والحرب لهما الطعم نفسه والموت في كليهما شهادة»، أم هذه كانت فكرة بطل الرواية لا فكرتك.

– أنا وهو واحد، بل أنا وكل شخصياتها واحد، البطل كان رجل حرب فكل شيء عنده مرتبط بالشهادة والموت حتى الحب، فهو لا يعرف الشكولاته والآيس كريم كمعرفته بالرصاص والبارود حتى وإن كان رجلاً عاشقاً سيبقى حبه محفوظاً في غرفةِ ذخيرته، لا في ثلاجة.

لا مجال للانتصار على رجلٍ كهذا، الصمت في حضرته أجمل فزحمةُ صمتي في هدوء كلامه مُتعة وأنا، التي اعترضت

Telegram: electronic_library

على حبٍ صنعه هو بين مقعدين في قطار، ولد حبي لك بين وترين.

وكأن القدر يسخر مني عندما ذكرت هذين العاشقين في رواية عادل اللذين أحب كلاهما الآخر منذ أول لحظة التقيا فيها وافترقا دون أن ينطق أحدهما بكلمة واحدة ليعودا ويلتقيا بعد شهر في المكان نفسه ومن هنا تبدأ قصتهما، جعل قصتي معك مشابهة لهما أحببتك منذ أول لحظة ولم ألتقك إلّا بعد شهر. كنت أعتقد أني لاحظت وجودك دون أن تنتبه أنت إلى وجودي وبقيت في ذاكرتي حتى اللقاء الثاني. لكن عندما كنت تقلني في ذلك اليوم المشؤوم أو ربما السعيد لا أعرف ما كان بالضبط، فحضورك يقلب الأشياء رأساً على عقب، قلت بعد أن أكملت فيروز أغنيتها:

- هل أعجبكِ عزفي؟!

ما هذا السؤال عن أي عزفٍ تتكلم وأنت تراني للمرة الثانية حيث إن المرة الأولى لم تكن تسمع أو ترى غير أوتارك التي انسكبت عليها بنهم ولفت انتباهي أنا هذا الجوع للألم، جوعك وأنت تجعل عودك يصرخ بكل قوته حتى أوقف بعذوبته قلبي.

- وهل سَمِعتُكَ تعزِفُ من قبل؟!

- الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر..

وبعد هذه الجملة نظرت إليك باستغراب، وقابلت أنت

Telegram: electronic_library

نظرتي بابتسامة، أرأيتني في أول مرة وأنا أتسمر أمامك على بعد مقعدين أو أكثر قليلاً؟!! لكن كيف وأنت مغمض العينين وخافض الرأس؟

واصلت كلامك أمام ذهولي الصامت:

- رفعت رأسي وأنت تغادرين مكانك ولم أعرف من أنتِ لكني حفظت عطرك، كان مميزاً جدّاً.

يليق أن يعلق بالذاكرة، وعندما سألتني وأنا أصغي إلى المطر كانت هذه أول مرة أرى وجهك ولكنها كانت المرة الثانية التي أتنفس بها عطرك فعرفت أنك هي تلك التي وقفت تستمع إلى عزفي ولم أشأ أن أقاطع تلصصها وما إن فكرت أن أنظر إليها حتى همت هي بالمغادرة فلم ألمح منها إلّا بواقي شعرٍ متطاير يلاحق ذلك العطر...

بعد هذه التفاصيل التي ذكرتها شعرت أني سقطت من جبل وارتطمت بالأرض بقوة، أنا التي كنت أراك غريباً لا يعرف عني أي شيء سوى سؤالي عن حاله وهو يفترش تلك الزاوية على مسمعٍ من المطر وربما نسيني أنا وذلك السؤال، لم تكن ابتسامتك الأولى في وجهي محض صدفة ولم يكن كلامك معي حينها حواراً مفتعلاً، كنت تعرف من أنا أو قد عرفت من أنا وهل بقيت عالقة في ذاكرتك على مدى شهر؟ وهل بحثت عني كما أنا فعلت؟ أم كنت تبحث عن عطر؟ كم من النساء إذاً شممت؟

Telegram: electronic_library

وكم زجاجة عطرٍ غير زجاجتي بها خُدعت؟! أسئلةٌ انكسرت زجاجتها في رأسي وطار استفهامها يلعق كل جدران العقل، لكني لا أستطيع أن أطلق العنان لأي منها، كيف أسألك بعد أن فضحني عطري، بعد أن وشت بي خصلات شعري وأكد كل كلامك هذا احمرار وجهي، لا أعرف إن كنت أسعد بكلامك هذا أم أشقى به، هل اكترثت لأمري لأني فعلت ذلك أولاً معك أم هو شيء متبادل ولد في اللحظة نفسها، فضولٌ يجعلنا نبحث عن بعض ونفتش في ملامح الآخرين وروائحهم علنا نجد ما أضعناه دون حتى أن نملكه، كذينك المقعدين في قطار عادل اللذين بقيا يذكران رائحة حُب عاثت بهما الحياة حتى أكملا قصة كادت تبدأ لولا وجود تلك المحطة الصحيحة في الوقت الخطأ وأجبرت أحدهما على النزول فاختارا لاحقاً محطةً أخرى أهدت إليهما الكثير من الوقت ليبدآ حبّاً.

حتى بدايتنا كانت مجنونة دون أسماء، دون ألقاب، دون من أنت ومن أنا ودون ملامح.

بداية عطرٍ ونغم استدرجني إحساسك بمساعدة بعض الأوتار وأوقع بك عطرٌ لهثت خلفه خصلات من شعري.

***

Telegram: electronic_library

السعادة لا توجد لنخبئها. يجب أن نطير معها ولا نخشى إن رأى الآخرون أجنحتنا... وإن كانوا يحملون مقصاً... عكس أمي التي كانت تخشى الفرح وتهاب السعادة كانت تصر على تخبئتها تحت السرير أو الوسادة، الوسادة تلك التي أحق منا جميعاً بهذه السعادة فنحن نحملها ما لا طاقة لها به.

همومٌ بحجم رأس وماءٌ وملح بحجم عيون.

كانت تدخر أمي حزنها وفرحها تحت الوسادة، ربما الأول فوقها والثاني تحتها، ولكن المهم أنهما في مكانٍ بعيد عن أعين الناس، لا بأس أن ترى حزني ولكنها مشكلة لو علمت بفرحي كما يُقال، نحن شعب نخشى الأفراح لأنها نذيرٌ لقدوم ما هو سيئ أو ربما نخشى الحسد.

أنا لم أخشَ الحسد ولم أخف على أجنحتي يوماً إن أردت الطيران مقصاً، حتى قصت سعادتي نفسها أجنحتي وسقطت وانكسر فيّ أنا.

سعادتي معك كنت أنثرها على الحروف، كنت أكتبك يوميّاً وأكتب خصامنا وضحكاتنا حزننا وذلك الفرح.

كان دفتري صديق سري أخبئه في درجي ويعرف عنك الكثير بل يعرف عنا الكثير ما نفصح عنه للجميع وما نخفيه، كان قصة كاملة ليوميات عاشقين في بلاد الموت، لكني لم أعرف ماذا

Telegram: electronic_library

أضع عنواناً لهذا الدفتر، كتبت في أول صفحة فيه وفي وسط الصفحة.

«نحن شعب يحب الحياة ولكن الموت يحبنا أكثر».

ثم أهملته على مدى عام وعدت إليه أول يوم رأيتك فيه. احتجت وقتها أن أثرثر بصمت فأخرجته من خزانتي، أهملت أول صفحة ولم أقرأ ما كتبت فيها واخترت صفحة جديدة وبدأت أكتب عن ذلك الغريب الذي لم أره، فقط سمعته، ربما لو انتبهت إلى الورقة الأولى التي كتبتها قبل عام ومزقتها يومها واخترت بدايةً جديدة أو ربما دفتراً جديداً لما تحكم فينا مصير هذا الوطن، وربما وإن لم نكتب شيئاً ولم نخضع للعنة الأشياء، انتماؤنا كافٍ أن يُصيبنا بلعنة شرقية بحتة تضع لمستها في كل بيت.

ولا تلمس إلاّ الأغلى دائماً، لا أعرف فلسفة الحياة الغريبة في هذه الأمور ولا أؤمن بطبيعة الحياة.

ومن يقول إنها الدنيا وهذا هو حالها؟ لأنها ليست كذلك مع الكل، ليست بهذه القسوة مع الجميع.

ولكنها في شرقنا تلبس وجهاً من حديد وإن ابتسمت خلفه لا نراها، رغم هذا فكل واحد منا يبتسم بمقدار ما تتيحه له الحياة من فسحة خالية من أي وجع، يمدد فيها ابتسامته التي تقصر مع الأيام والتي جاهد في إطالتها، لكن عادلاً كان يبتسم دائماً، كأن لا

Telegram: electronic_library

هم في حياته وكأن الحياة أمامه تلبس وجهاً من ياسمين لا من حديد حتى تظنه يعيش في الجنة لصفاء ذهنه ورقة ملامحه.

بعد أن عاد هو ككل العراقيين إلى العراق بعد سنوات في سوريا حافظ على ملامحه نفسها وكأن كل شيء بخير، عاد هو بعد عودتي بأشهر وتلقيت اتصالاً منه يقول لي إنه في بغداد وإنه اشتاق أن نكون معاً كما في السابق، طبعاً، يقول جملة خالية من أي تلميح، كان يردد الاشتياق كأنه شوق الصديق إلى الصديق لا أكثر، وكنت أنا أحترم ما يخبئ تحت هذا الاشتياق وأرد عليه بأنا أيضاً.

لكننا لم نلتقِ، كان حديثنا حكراً للهواتف فقط، في وطني لا مجال أن نلتقي كأصدقاء في أماكنَ عامة إن لم تلحقنا عيون الفضوليين وتتهمنا بالعشق، فكان الأفضل لنا أن نجب الغيبة عن أنفسنا وعيون الاتهام، لم يكن آدم في حياتي بعد ولكني لا أحب إشاعات الحب حتى وإن كان مفتعلوها من الغرباء الذين قد لا نراهم مجدداً.

وعلى غير عادة اتصل عادل بي ذات مساء تجاوز الوقت فيه العاشرة، فوجئت باسمه على شاشة الهاتف، ذوقه العالي لن يسمح له بالاتصال بمثل هذا الوقت وعندها خفق قلبي لأنه يجب

Telegram: electronic_library

أن يكون هناك طارئ جعل منه رجلاً آخر تمرد على ما هو عليه، بعد لحظات من الذهول أجبت على اتصاله:

- ألو.

- أصيبت بالسرطان.

هذا كل ما قاله قبل أن يجهش بالبكاء، لم أعرف من وكيف وهل ما سمعته صحيح، أقال سرطاناً حقّاً؟!! ولكن من وهل هو عادل من يبكي الآن.

- عادل من؟!!، أجبني!!

- أمي يا عليا أمي...

خرس كل شيء الآن هو وأنا والوقت والهاتف وربما أنا من فقدت حاسة السمع.

لم الألم يطرق باب كل من أعرفهم؟ هل شبيه الشيء منجذبٌ إليه أم أن هذا أمر طبيعي في وطن مصاب بالسرطان منذ زمن؟ ولكن السرطان غير معدٍ كيف أورث العراق مرضه هذا لأبنائه؟

أجل ليست عدوى بل تركة، وراثة، أرضعنا الوجع وترك بنا سرطاناً.

تلك المرأة الطيبة الحنونة كيف استطاع هذا المرض أن يأكل روحها تلك المتوردة وهي امرأة كبيرة يشع وجهها وابتسامتها طيبة

Telegram: electronic_library

وتخفي أناقتها سنها الحقيقي وشعرها الذي تعتني به دائماً بصبغة جميلة وتسريحة بسيطة يدل على وقار وأناقة.

التقيتها أول مرة في مقهى قرب الجامعة عندما خرجنا أنا وعادل ومجموعة من الأصدقاء المشتركين بيننا تركنا هو وذهب ليسلم على امرأة خمسينية لا يبدو عليها هذا العمر حقّاً لولا أن تشي هي بنفسها، وبعد دقائق عاد وهي برفقته، ألقت التحية وعرف عنها عادل بأنها والدته.

لم يتوقع أي واحد منا أن تكون كذلك كانت تبدو أخته الكبرى رغم أن عادل الوحيد لأهله.

جلست معنا قليلاً بعد أن استأذنت وقالت: «لا أريد أن أضايقكم» فرحبنا بها وتبادلنا الكلام واشتركنا جميعاً في حوارات مختلفة وبعدها استأذنت لارتباطها بموعد وغادرت بابتسامة رقيقة.

كنت أعرف أن عادلاً يكن لي مشاعر وتحققت من ذلك يومها. عندما عرفها إليّ ابتسمت ابتسامة تقول بها أجل أعرفها، وقالت أهلاً بعينين لامعتين بالإضافة إلى ذلك ساندتني برأيي الذي كان غالباً متفرداً ولا يتفق معه أحد وكأنها كانت تعرفني من قبل وتعرف ما أعني قبل أن أوضح، هذا ما أوصله عادل عني إلى والدته التي كانت صديقته المقربة والتي كانت تقرأ ما يكتب أولاً بأول وتبدي رأيها بما يغير وبما يُبقي، هذا ما قاله لي هو عن

Telegram: electronic_library

جلساتهم المطولة ونقاشاتهم الكثيرة، حتماً كان لي نصيبٌ من هذه الجلسات يصفني هو لها بشكلي وعقلي كما يصف لها كل شيء في يومه.

هي فعلاً كانت يومها تكاد تعرفنا جميعاً وهي تقابلنا لأول مرة ولكنها لم تخفِ انحيازها إلي أو ربما أنا من شممت رائحة الانحياز فقط.

فكيف يطرق مرض خبيث كهذا روح امرأة طيبة كروح خالة مريم، كيف ومتى والأهم لِمَ؟! ألأنها امرأة مميزة ومختلفة؟ ألأنها أم وأخت وصديقة لابنها ولكل من يعرفها؟! لِمَ الحياة تقرض الجيدين كأنها فأرة وهم قطع حلوى، لا أعرف أأواسي نفسي وقتها أم أواسي عادلاً

ولكن لا مواساة في هذا الأمر ماذا أقول له؟! لا بأس هذا قضاء ربك، أو لا تحزن أو أي كلمة قد تشفي غليله وتصبره على مصيبته هذه وأنا أعرف أن خالة مريم هي عالم عادل وصومعته الصغيرة التي يختبئ فيها كلما ضاق عليه محيط العراق والحياة، أن تكون إنساناً مميزاً بفكرة وقلم لن يتقبلك الآخرون بسهولة ولن يبتلعوا كلامك دون أن يقف في حناجرهم فتصفر لك وجوههم وتنعقد تلك الحواجب رفضاً أو تتسع تلك الشفاه سخرية، خصوصاً بعد الحرب الأخيرة، حيث طفت على السطح طبقة غبية

Telegram: electronic_library

لا تفهم شيئاً ولا تفكر، تنعق بما يُقال لها من رجل دين أو رجل سياسة ينحدر من طائفتها أو حزبها، هذه الطبقة جعلت المثقفين ينكمشون على ذواتهم ويقبعون في بيوتهم، فانكمش هو على قلمه وقبع في حضن خالة مريم التي كانت تشجعه على كتابة كل ما لا يعجبه ولكن المهم أن لا يقوله، فالكتابة يمكن أن نُخبئها هنا أو هناك بعيداً عن عيون الوطن ولكن الكلام قد يفصل رأسك عن جسدك بسيف الوطن.

- آسف على الاتصال في وقت كهذا ولكن لم أجد غيرك يا عليا.

- لا تتأسف على شيء، أخبرني كيف ومتى عرفت أنها مصابة به هل أنت متأكد؟!

- أجل متأكد، مرض كهذا لا يمزح.

منذ مدة وهي متعبة وكانت تعزي تعبها بسبب الضغط النفسي والقلق وبعد إلحاح مني ذهبنا إلى الطبيب واكتشفنا الأمر

- ربما يكون الطبيب مخطئاً في تشخيصه أو التحاليل ليست دقيقة.

- عليا كل شي صحيح.

كنت أحاول أن أتحايل على الحياة علها تكون تمزح مزحة ثقيلة مع عادل فأكشفها أنا ولكنه جزم أن كل شيء صحيح.

Telegram: electronic_library

هنا نفد مني كل الكلام وامتلأت عيناي بالدموع ولكن لا ينفع أن يعرف بها عادل فهو يحتاج إلى من يسانده لا من يبكي معه. تكلمت معه بصورة متقطعة وبكلمات قليلة حتى لا يشعر باختناق صوتي ويعرف أنني أبكي.

وبعد صمت عاد للاعتذار عن الاتصال في وقت كهذا وقلت له لا بأس كف عن الاعتذار.

تصبحين على خير وذهب، أخيراً هذا؟! إن كان المساء مسموماً بالسرطان بم سيكون الصباح مصاباً؟!

بقيت جالسة مدة نصف ساعة دون حراك، ودون تفكير، عقلي مفرغ، عيني فقط كانتا ممتلئتين به ففاضتا على وجهي وبللتا ملابسي، كنت أبكي من دون ملامح من دون وجه، وحدها الدموع كانت تخرج بحرية وسط ذهول كل حواسي، هناك أوقات لا يحق فيها الكلام لأحد سوى الدموع فتخرس كل الحواس فجأة ولا تبقى سوى هيبة الدموع وحدها حاضرة، بالإضافة إلى أننا شعب من فرط ما بكى بكل حواسه تَلفت، وها أنا أجلس بكل حواسي التالفة التي لا تسعفني بشيء.

فكرت أن أختبئ بأمي وأخبرها بما عرفت توّاً، ولكن أمي آخر إنسان يمكن أن أتحدث معه بقصص الموت، مريم إن رحلت لن يخسرها عادل وحده بل سأخسرها أنا أيضاً وكل إنسان مرت

Telegram: electronic_library

في حياته ولو صدفة، فكرت أن أتصل بك أخبرك بهذه الفاجعة، لكنك يا آدم ستذهل وتأسف وتشعر بالحزن لها رغم أنك لم تلتقها يوماً وبعدها ستسأل كيف يتصل عادل في وقت متأخر كهذا؟ وهل اعتاد الأمر منذ مدة أم أن هذه هي المرة الأولى؟ وآخر ما كنت أريده وقتها هو الشجار معك أو الدخول في حوار طويل تترأسه الغيرة وأنا في موكب لاستقبال الموت.

لم ألجأ إلى أحد، انكمشت على نفسي واحتضنت ذاتي بذاتي ولم أنم، فكرتُ في أول لقاء لي معها حتى هذه اللحظة، تذكرت أني لم أسأل عادلاً إن كانت تعلم بما أصابها أو أنه أخفى الأمر عنها، لكن لا فرق إن كانت تعرف أو لا، كيف يصل خبث مرض إلى إنسانة كادت تتبرع بجزء منها لإنسان لا تمتُ إليه بصلة.

عندما أصيبت هالة بعجز كلوي عرض حياتها للخطر ولم يتطابق معها أي واحد من أفراد عائلتها للتبرع لها بكليته، وكان والداها أضعف من دخول عملية لتقدمهما في السن وبسبب الأمراض التي يعانيانها بحكم العمر، كنا معها دائماً في كل مرة تدخل فيها المستشفى وتبقى فيها أياماً.

حتى أننا نقلناها يوماً أنا وعـادل وبعض الأصدقاء إلى المستشفى عندما فقدت الوعي وهي معنا، فوجدنا خالة مريم تسبقنا إلى هناك بعد أن عرفت بما أصاب هالة، إذ كان عادل قد

Telegram: electronic_library

أخبرها وكانت قد أجرت تحليلاً للأنسجة لمعرفة مدى تطابقها مع هالة، كانت تريد أن تتبرع لها بإحدى كليتيها اللتين لم تسمحا بمغادرة مكانهما وإن كان لأجل هالة، وإن كان برغبة خالة مريم حيث لم تتطابق أنسجتهما، لكن ما فعلته أو ما أقدمت عليه جعلنا مذهولين أمامها، فقد أقدمت على ما لم يجرؤ عليه أحد وربما لم يفكر فيه أحد.

حتى أن هالة عندما عرفت بالأمر لم توافق عليه، احتضنتها وبكت بقوة، إلى أن حصلت أخيراً، على متبرع مطابق لها واكتفت خالة مريم بأن تقيم لها حفلة لسلامتها ولنجاح العملية.

كانت هالة صديقة عادل الأولى وما إن تعرفت إلى عادل حتى عرفت من هالة، كانا لتلاصقهما يبدوان كعاشقين، ولكن الصداقة فضلت المكوث معهما إلى الأبد ولم تسمح للحب أن يمس ما بينهما، وتلك الصداقة الجميلة التي ربطتني أنا وعادل وهالة وقاسم ورغد وفاطمة وخالة مريم طبعاً، أنستنا الكثير مما تركناه في أرض الوطن عن قناعة حتى اختبأ في حقائب سفرنا وسبقنا إلى بلاد الغربة، لكن سوريا لم تكن غربة قط، كانت حسناء كبغداد واحتضنتنا مثلها تماماً.

كنا نجتمع حول طاولة واحدة نفرح لفرح أحدنا ونحزن لحزن آخر، نتابع أخبار المساء التي لا تنفك عن ذكر بغداد، نبكي

Telegram: electronic_library

الوطن معاً ونتبادل المناديل وأكثر ما جعل علاقتنا أقوى هي خالة مريم التي كانت تدعونا بين الحين والآخر إلى بيتها على غداءٍ أو إفطار أو مباراة كرة القدم التي يلعب فيها منتخب العراق ضد أحدهم، كانت عراقية الجذور والأصل بل كانت هي العراق أحياناً.

هذه هي خالة مريم، إذاً، كيف يمكن أن تموت؟!!

أحياناً، كنت أحمد الله أني لم أعرف أبي يوماً ولم أشهد موته، يخيفني الموت ويُرعبُني الفقد. لا تفسير له عندي وكل التفاسير الأخرى لا تقنعني بل لا أفهمها كيف نستودع عزيزاً التراب؟ كيف نتركه وحيداً؟! لِمَ يغمض عينيه ولا يفتحهما مجدداً؟! لِمَ نحدثه ولا يرد؟! لِمَ توقف قلبه؟ ألم يعد يحب أحداً قط فلا يحتاج إلى قلب فعطله؟!

مهما كبرت تبقى فكرة الموت كبيرة عليّ لا أجيد فهمها.

أكره الموت ... هذا السارق الذي لن تعتقله أي سلطة...

تختبرنا الحياة اختبارات صعبة وأحياناً مستحيلة.

رغم الفقد، نحن نحيا بأجزاءٍ مُتكاملة لأن أغلب ما نخسره هو شيء من الداخل، حتى أننا أحياناً نسمع صدى ما نبتلع من فرط ما تهشمت داوخلنا وأُفرغت، لكني ملأت كلي بك، بصوتك وعطرك، بصمتك ووجعك حتى تمزقت، لا أعرف لم تخبئ لنا

Telegram: electronic_library

الحياة وجعها في علب حلوى؟ لا أعرف لم تفجرنا سعادة على ما سوف ينفجر بنا بكاءً.

تلك الطائرات التي اختلفت جهاتها حطت بنا في مطارات خيبة مهما بلغت أناقتها وضجتها المبهجة، إلّا أنها صمتٌ يدعي الصخب حتى لا تتفطر جدرانه بكاء.

كلما أسعدت أمك رضيت عنك الحياة، جملة قرأتها يوماً ولا أعرف لمن تعود، ابتسمت وأنا أردد:

كلما رضيت أمك عنك وكنت بارّاً بها سحقتك الحياة. الدنيا لا تنصف البارّين بها بل تلعنهم وتجرب مقياس حذائها على جباههم. فما شأنها هي إن قالوا نحن صابرون وند جيد لكل المغريات، فتجرب هي هذا الصبر الذي يدعون.

أما العاقون لآبائهم ولها فتقرأ لهم قصة ما قبل النوم وتعدهم بغد يحمل أحلامهم وهي محققة، حتى وإن كانت على حساب أحلام أخرى بيضاء. فالحياة تعشق كل الألوان إلّا الأبيض الذي يذكرها بزي المدرسة وهي امرأة إباحية تمردت على كل الألوان وجزمت أن الأبيض لا يُغري فأقلعت عنه.

أحاول أن أسترخي وأنا أكتب نصّاً أعرف أنه لن يُنشر كما قال لي يوماً أحدهم كان مسؤولاً في جريدةٍ فكرت أن أطلق فيها أنفاس حرفي.

«لِمَ لا تكتبين عن الحب، فتاة مثلك ما شأنها بالسياسة».

Telegram: electronic_library

«ومن قال لك يا سيدي المحترم إن السياسة حكرٌ على الرجال؟! السياسة وطن والوطن قضية، وأنا امرأة تؤمن أن لا معنى لحياتنا إن لم نكن فيها أصحاب قضية».

وبعد كلامي هذا كف عن النظر إلى تنورتي القصيرة ونظر إلى عيني. ربما أدرك أني لست مجرد ساقين أمامه وبعض لوازم أنثوية، بل كنت أملك لوازم عقلية أيضاً، لم يدركها مما قدمته إليه للنشر لأني أكاد أجزم أنه لم يتعدّ العنوان. وربما يرى أن العقل حكرٌ على الرجال بما أنه مُذكر وإذا كان الأمر بالمؤنث والمذكر إذن، من حقي أن أتكلم بالسياسة بما أننا من جنسٍ واحد ونملك عِقد التأنيث.

ورغم معرفتي بعدم النشر كنت أحاول أن أكتب بهدوء وأن لا يعصف بي سوء كل ما حولي في وطنٍ لم يعد فيه أي شيء كما كان حتى رايته التي كانت سماءً عالية نبذت النجوم وقررت أن تنام. فالهواء ما عاد يعجبها لتحلق معه ولا ألومها أنا نفسي كرهت هذا الهواء ولكن لم أكره يوماً نجمة.

صاحب الجريدة كان محقّاً وإن لم يكن قد قرأ ما كتبت، فمهما كان الذي كتبت لن أقنع به الذي أخاطبه أن يرد عليَّ بلغتي. كيف أقنعه أن يحارب بالحروف وعليه أن يستخدم السلاح

Telegram: electronic_library

نفسه. كيف أقنعه أن يواجه الكلمة بكلمة لا برصاصة، كيف أوصل له أني من انتمائه نفسه ولكني لم أطفئ عقلي.

عندما تكون داخل حدود الوطن عليك أن تكتب بقلم رقيق. أن تلمس الحقيقة بحروف رفيعة نحيلة القوام لا تضغط على أوجاع الفقراء والكادحين. تُلبس المأساة فستاناً مُغرياً ويُفتن المترفون بما كَتبت ووحدهم المهمشون يبتسمون. يعرفون أن اسمهم ذُكر خفية ووحدهم هم المعنيون. داخل حدود الوطن أكتب بقلم من ورد حتى لا تكافئك الحكومة بأقلامٍ من «رصاص»..

كيف؟! وقد أصبح الرصاص ردّاً على كل الأسئلة التي خرست، وأصبح الرصاص هو الذي يسأل وهو نفسه الذي يُجيب في وطني، وطني الذي تعطل فيه كل شيء إلّا فوهة رشاش وزناد مسدس.

تزاحمت الأفكار في رأسي وأنا في غرفتي طفلة يتيمة ووحيدة وما زاد في يُتمها أنك لست هنا، لم أرك منذ أكثر من أسبوع، سفرك كان دائماً يتواطؤ مع حاجتي الملحة إليك، أو ربما أنك عندما تغيب تتفق كل الأشياء على إيذائي وأستلم اتصالات من قبل الموت وأحاط بقدرٍ كافٍ من السواد لأتذكر كل ما فقدت وكل ما خسرت قبل أن أملكه حتى لا أعرف لِمَ رجال حياتي كلهم

Telegram: electronic_library

مهزومون ما بين هزيمةِ وطن وهزيمة موت لا غالب لهما فتكون هزيمتهم أمام الاثنتين بطولة. هزيمة أبي أمام الموت لأجل الوطن بطولة وهزيمة همام أمام الوطن لأجل الموت بطولة. وهزيمتك أنت، هزيمة ساقك أمام رصاصة لأجل أوتار بطولة، فالفنانون أصبحوا فترة من الزمن خارجين على الدين في نظر من يلبسون الدين غطاء.

وأنا التي خسرت مع كل هزيمةٍ لأحدكم خسارةً مضاعفة، التقيتك بعد هذه الفترة التي ذَبُلت فيها ملامحي ولاحظت أنت ذلك فسحبتني إليك وضممتني بقوة واختبأت أنا في صدرك.

هذا كل ما كنت أحتاج إليه، أن تضمني فقط وأسمع صوت أنفاسك التي تتسارع وأعرف بقدر ما تسارعت مقدار اشتياقك إليّ، وبقيت متشبثة بك حتى نظرت إليّ وقلت:

- عليا ما بكِ؟!

- اشتَقتُ إليك.

وانفجرت بالبكاء، خبأتِ وجهي في صدرك وبكيت بقوة وأنت تحتضنني مرة، ومرة تبعدني وتنظر إليّ متسائلاً: لم كل هذا البكاء؟

لم أكن أحتاج إلى أيّ كلام غير البكاء، فقد خبأت دموعي

Telegram: electronic_library

كثيراً وأحياناً بكيت بأناقة وبدموع تنهمر دون ضجيج فلا تشفي جرحاً ولا تريح قلباً.

- ما بكِ يا عمري، لِمَ كل هذا البكاء، ما الذي يستحق أن ترهقي هذين الملاكين بالبكاء؟

- أتعبني بعدك جدّاً.

لا أعرف لِمَ أعاني مشكلة مع المسافات ولا أعرف لِمَ تفتح الطرق مزاداً تتزايد فيه أرقامها معي. كم كيلومتراً يبعدني عن أبي وكم عن همام وكم أبعدني ويبعدني الآن عنك، لطالما كرهت الجغرافيا وطالما حاصرتني حدودها، أكره الجيولوجيين لتحايلهم كيف يختصرون مسافاتٍ هائلة بخطوط رفيعة على الخريطة ولِمَ لا يضعون على الخرائط تلك الكلاب والأسلاك الشائكة وكومة الحراس وقاطعي الطرق؟!! لِمَ لا يقولون الحقيقة!! لِمَ لا يكتبون إن كنت عربيّاً لا تحلم بوطن وضع من يدك الخريطة؟! لمَ يا آدم رحلت؟

قبلت جبيني وعدت إلى صدرك كأني طفلتك المدللة التي اشتقت إلى عطرها ورائحة شعرها.

وضعت وجهك في شعري كأنك تتنفسه وحظيت أنا بالدفء الكافي لذلك البرد الذي استوطن عظامي طوال غيابك.

أأبكي بصمت أم أخبرك ما سبب هذا البكاء؟

Telegram: electronic_library

فكرت أن أخبرك عن خالة مريم ولكني لم أكن أريد أن أعكر صفونا هذا. كنت محتاجة إلى هذا الدفء كثيراً وأنتظره وآخر ما أريده الآن هو غيرتك وقسوتك. بقيت على صدرك صامتة وأنت تنام في شعري كالأطفال حتى قررت السماء أن تتكلم. أمطرت بحنو، كانت القطرات تنقر على الشباك برفق ونظرت إلى عيني وقلت:

- عيناك ملاكان صغيران لن يكبرا أبداً.

أخرجت من جيبك علبة صغيرة ووضعتها في يدي وطلبت مني أن أفتحها ففتحتها، كان في داخلها خاتم جميل جدّاً، أخرجته من العلبة ووضعته في يدي اليمنى. وقبلتها وقلت:

- أنت الآن خطيبتي.

- آدم هذا خاتم خطبة!

- أعرف، ولن تخلعيه بعد اليوم.. هل لديك اعتراض؟

لم أجب عن سؤالك ولكني وقفت على أطراف أصابعي لأعلق ذراعي على رقبتك وأحتضنك.

فاحتضنتني وأنت ترفعني عن الأرض، تتسع بنا الخواتم عندما يضيق بنا الكون.

قبلت عيني وذهبت لإحضار شيء دافئ نشربه، جلست أتأمل المطر والدفء الذي أشعر به دون الحاجة إلى شرب شيء

Telegram: electronic_library

دافئ وأنا أنظر إلى الخاتم في يدي، لكن لِمَ قَبلت عينيَّ؟! ألم تخبرني يوماً أن قبلة العين فراق؟ وسخرت منك يومها وقلت لك: كيف تصدق هذه الأمـور لكنك كنت تؤمن بها. هل لم تعد كذلك؟! أم أن الملاكين أغرياك فنسيت ذلك؟!

جئت بكوبين من الشاي وسألتني ماذا فعلت طوال فترة غيابك رغم أنك كنت تتصل بي يومياً وتسألني السؤال نفسه: «ماذا فعلت طوال اليوم؟».

أخبرتك بكل شيء لكني استثنيت موضوع مريم لأنه غالباً سيتحول إلى موضوع عادل لا مريم. وتنسى قصتها هي وتنشغل بالسؤال عن اتصاله هو.

طلبت مني أن أتمرن قليلاً على الكمان بعد أن عرفت أني لم أذهب إلى المعهد طوال فترة سفرك.

«أعتقد أن قوس الكمان سيبدو رائعاً هذه المرة في يدك وأنت تلبسين هذا الخاتم».

أحببت جملتك المحتالة هذه وأنت تريد أن ترى إن كان الجميع سيلاحظه وأنا أعزف أم لا. كان يغضبك تقرب أي أحد أو تـوددِه إليّ بسبب هذه الآلة أو بحجتها ولا تريد منعي عنها فوضعت لها علامة صغيرة تقول ممنوع الاقتراب.

فتحت حقيبته وأخرج الكمان منها وعلى مقربة منك بدأت

Telegram: electronic_library

أتمرن وكنت أقاطع تمريني بكلمة أقولها أنا أو تقولها أنت، ثم تقول لي استمري في التمرين.

كنت تعبث بهاتفي كعادتك، وفجأة تغيرت ملامح وجهك وأنت تنظر إليّ بحدة وتجمدت أنا أمامك لا أعرف ما وجدت في هاتفي حتى تغير شكلك هكذا، رغم أني لا أخفي شيئاً وليس هناك فعلاً ما أخفيه.

سألتني بصوت غاضب:

- متى اتصل بك عادل؟!

- أي عادل!!

- عليا! لا تردي عليّ بسؤال، لا تعرفين سوى عادل واحد.

- أجل صحيح، اتصل منذ مدة كان يسأل عن حالي لا أكثر.

- يسأل عن حالك الساعة العاشرة ليلاً؟!!

لم أعرف بِمَ أرد وقتها وقد وجدت اسم عادل في لائحة المتصلين، وإن شرحت لك سبب الاتصال لن تهتم وستعتبر ذلك تبريراً أحمق، خصوصاً أني قلت لك في البداية إنه اتصل ليسأل عن حالي فكيف أغير الإجابة الآن وكيف يمكن أن تقنعك. وكيف كنت حمقاء إلى هذه الدرجة حتى أني لم أحذف اسمه من قائمة الاتصال، كان شكلك يخيفني وأنا أفكر ماذا عساك أن تفعل وقد اكتشفت اتصال عادل الذي لم أخبرك عنه، وأنت سألتني غير مرة

Telegram: electronic_library

عن كل شيء حدث معي وأنت لست هنا. وتعرف تفاصيل يومي كلها من أصغر شيء وصولاً إلى الأشياء الكبيرة.

- أجيبي لا تصمتي.

بدأ صوتك يرتفع واستحوذت الغيرة على عقلك تماماً وعرفت أنها أطفأت كل حواسك وأن ذلك الحنان الذي كنت أنعم به منذ قليل قد اختفى.

- عادل اتصل لأنه كان في أزمة.

- أي أزمة عليا؟ أي أزمة؟! لِمَ يتصل بكِ في هذا الوقت؟! هل اعتاد الأمر من قبل وأنا المغفل الوحيد الذي لايعرف بأمر اتصالاته؟!!

- آدم، هذه أول مرة يتصل في وقت كهذا أقسم لك، هو إنسان مهذب ويعرف كيف يتصرف.

- مهذب ويعرف كيف يتصرف! أكملي أتنوين التغزل به بعد أكثر، أكملي أنا أسمعك. وماذا بعد؟ ما هي صفاته الرائعة الأخرى التي ترينها فيه؟

- آدم أرجوك اهدأ.

- أي أدب وهو يتصل في هذا الوقت؟! ولمَ لم تخبريني؟

- كنت أعرف أنك ستغضب.

- الله، فقررت أن تخفي الأمر.

Telegram: electronic_library

- آدم كفى..

- عليا.. هل هناك شيء بينك وبينه؟

- آدم أجننت كيف تفكر بهذه الطريقة، عادل مجرد صديق و..

لم أكمل جملتي حتى تناثرت أجزاء هاتفي على الأرض وأنت ترميه بقوة.

أخذت أغراضك وخرجت من تلك القاعة التي رأيتك فيها أول مرة والتي أصبحت الشاهد على كل شجار لنا وكل صلح حتى أنها تعرفنا أكثر من أنفسنا وأنها شهدت قبل قليل على خاتم خطبة. ما الذي غير الحال هكذا؟ كيف يمكنك أن تتحول بهذه الطريقة المرعبة بسرعة؟! تركتني وحيدة وذهبت، وبقيت أفكر هل فعلاً فكرت بجدية أن هناك شيئاً بيني وبين عادل، أم إنها حالة غضب، وهل كان من الخطأ أن أخفي عنك اتصاله لتفادي وقوع مشكلة بيننا. لم ينفع ما خبأت وها هي المشكلة قد وقعت ولكن بوقع أكبر وباتهامات شك. ثم تذكرت مكالمة عادل وكيف كانت وما أخبرني به عن مريم وأنا أنظر إلى خاتمك في يدي.

لِمَ يمتزج الفرح والحزن عندي إلى هذه الدرجة!!؟ حتى يقتحم كل منهما خصوصية الآخر ويفسد عليه خلوته وينتهك حرمته.

Telegram: electronic_library

في قمه حزني على مريم جئتني بخاتم إنساني كل شيء.

وما إن طرت بها وصولاً إلى حدود السماء حتى عدت لتجد ما قد أخفيته عنك بحزن ومضض.

فأقحمتني من جديد بما أفسد فرحتي..، لم أكن قادرة وقتها حتى على البكاء. اختنقت وأنا لا أعرف ما ذنبي لأتحمل كل شيء وحدي وأنت تزيد هذا الحمل بغيرتك وشكك. على قدر ما تحمل من حب وحنان على القدر نفسه تملك قسوة تطفئ عقلك وقلبك.

تتجمد أطرافي من فرط بعدك وأنا أتساءل أين اختفى ذلك الدفء بسرعة البرق وتركني هنا كالمتشردين في الشتاء الذين لا تسعفهم كثرة الملابس ما داموا يفترشون الرصيف.

كان البعد سلاحك الأقوى وكان ذا حدين.

لكني كنت أموت فيه مرتين: مرة لأنك تعاقبني بهذه الطريقة طريقة اللّاعقل، لا تفكر من أنا ومن أنت عندي، ومرة لأنك تستطيع تحمل بعدي كل هذا الوقت وإن كنت تتألم، ولكنك تبقى ممسكاً بزمام البعد ولا يفلت منك أي لقاء وأي حرفٍ أو قلب.

طالما أتعبتني طريقتك هذه، وبعد كل مرة نعود فيها أمسك بيدك وأرجوك أن تكف عن هذه الطريقة، أن تعطي فرصة لنفسك وأن تسمعني أو تتشاجر معي بعيداً عن هذا الصمت الذي يقتلني.

Telegram: electronic_library

تختفي من كل الأماكن ومن كل الأرقام وأبقى أستجدي جديدك من مواقعك الالكترونية. لكنك كنت تقول: «لا أستطيع يا عليا، عندما أهزم فيك أختبئ ولا أريد أن تؤثر عيناك في قراري أو صوتك يهون ما فعلت فيكون خوفي من مسامحتك هو عقابك وعقابي».

تخاف من أسلحتي الخرساء فتحاربني بالصمت وأموت أنا بين سطور رسائل أكتبها ولا رد لها. تخذلها وتخذلني، لا تقاوم عيني وصوتي فتهرب ولكنك عصي أمام حرفي.

***

أشتقتُ إلى مريم وربما أحتاج إليها، أحتاج إلى مذاق قهوتها وإلى الأمان الذي أشعر به بين كلماتها ولأني بعدك تائهة، ألبس معطفاً سميكاً أسود وأقنع نفسي أنه سوف يدفئني ويقلل من ارتجافي لكنه لم يفعل.

أربط شعري بطريقة غير مُبالية ولا أضع غير كحلٍ قديم بات منذ الأمس في عيني ولم يخرجه الماء والصابون منها.

أطرق الباب فتفتح هي وأرتمي في حضنها دون أي كلمة. احتضنتني وسحبتني إلى الداخل.

- لم كل هذا السواد، أنفدت خزانتك من كل الألوان ولم يبقَ إلّا هو؟!

Telegram: electronic_library

نظرت إلى نفسي، فعلاً إن كل ما أرتديه هو أسود لكني لم ألاحظ هذا إلّا عندما قالت هي ذلك.

- هو لون الشتاء المفضل.

- ولونك أيضاً.

- أعتذر لأني لم أتصل قبل أن أحضر ولم أتاكد إن كنتِ هنا أو مشغولة.

-لا تعتذري، كنت أنتظرك عموماً.

- تنتظرينني!!

- جميل أنك وجدت البيت بسرعة.

- ما زلت أذكر وصفك له بالإضافة إلى أنه في مكان لا يُخطئه أحد وتأكدت من هالة أيضاً.

- ألم أقل لكِ إني أنتظرك؟

قالتها وهي مبتسمة كأنها كانت على ثقة أني سأزورها هذه الأيام، لكن هل كانت تتوقع زيارتي لأني عرفت ما أصابها أو أن هالة أخبرتها عن سؤالي أو أنها شعرت بأني أحتاج إليها وسأمر بها كما في السابق أشرب معها قهوتها اللذيذة.

وتكلمني هي عما جئت أخبرها به ولم أفعل، كأنها تقرأ أفكاري، كانت خالة مريم روحانية جدّاً تتواصل مع الآخرين عبر أرواحهم لا أجسادهم، لذلك لم يكن مهماً بالنسبة إليها أن ترى

Telegram: electronic_library

الآخرين بقربها لتطمئن إليهم، يكفي أن تستشعر أرواحهم وإن كانت بعيدة.

أحرجت من الأسود الذي جئت به وبما ستفكر هي في اختياري لهذا اللون، لكني أجد نفسي به كلما حزنت جداً وكلما فَرِحت جداً، وأنا الآن الأولى على ما يبدو لأني أبعد ما يمكن عن الفرح، أنا وخاتمي الوحيد الذي لم يحظ بالاهتمام الكافي لحظة ولادته عندي حتى الآن كأني لبسته في رقبتي لا في يدي وكان آدم دقيقاً في القياس جداً..

- اشتقت إلى قهوتكِ.

- وأنا إلى ابتسامتك.

جلست بقربها وأمسكت بيدها وسألتها.

- كيف حالك؟

- أفضل منكِ وأنت بهذا الكحل وهذا الأسود.

ضحكت لكلامها فعلاً، كانت تبدو جيدة ومشرقة وكأنها لا تعرف بما أصابها.

- الحمد لله أنكِ بخير.

- وما بال الخير معكِ أمتخاصمان؟!

ضحكت كثيراً وقلت لها:

- لا تضحكيني لا أريد أن أضحك.

Telegram: electronic_library

- فعلاً لا تناسبك الضحكة وأنت في هذا الحداد، هل جئتِ لأجلي أم لأجلك؟

وقبل أن أرد بعد أن استغربت سؤالها أكملت:

- إن كان من أجلي فأنا بخير ولا أحتاج إلى هذا السواد الذي ترتدينه منذ الآن. وإن كان لأجلك فليس هناك ما يستحق أن تحزني عليه بهذا القدر.

- بل هناك ما يستحق.

- لن أجادلك في هذا، شكلك ينم أنك لم تنامي منذ مدة وحتماً أنت الآن بنصف مخ.

- أنا بخير.

- واضح جداً، قهوتك كما في السابق أم تغيرت هي الأخرى؟!

نظرت إليها بنصف ابتسامة وحركت رأسي وفهمت أنها لم تتغير، بقيت كما أحبها سادة.

أحضرت القهوة التي أعادتني رائحتها إلى أيام ارتشافنا لها ونحن في بلد الياسمين في دمشق.

- تذكرك بسوريا صحيح؟!

- كأنك تقرئين أفكاري.

- وما الجديد في ذلك؟

Telegram: electronic_library

كم هي لطيفة وكم تُجيد التهوين عن الآخرين حتى وإن كانت هي من تحتاج إلى ذلك. كنت متألمة لها ورغم ذلك هي من كانت تريد أن تهون عليّ لا العكس.

بقيت أنظر إليها وأنا أفكر كيف يمكن أن لا أراها يوماً ما وأبحث عنها ولا أجدها كيف يمكن أن يسرقها الموت؟ من أين آتي بقلبٍ كهذا، لكن الموت لا قلب له رغم أني كنت أراه عاشقاً لأنه يسرق كل عزيز وكل حبيب فكيف لا يكون له قلب؟!

في زحمة أفكاري قالت:

- لا تنظري إليّ هكذا لن أموت الآن يا عليا.

آخر ما كان ينقصني جملتها هذه حتى أنفجر باكية أخبئ وجهي بين يدي وأجهش بالبكاء.

كنت أبكيك وأبكيني وأبكيها وأبكي من هذه الحياة التي تستمتع وهي تنظر إلى دموعنا.

سحبتني من يدي وضمتني إليها، أحسست أنها كانت تبكي هي الأخرى وشعرت بأنفاسها تحاول أن تكتم الدموع، مريم لا تخاف من الموت مريم تخاف على من ستتركهم بعد هذا الموت. مريم قوية كفاية لتختار هي متى تموت لا أن يقرر الموت عنها ذلك وستذهب إليه وهي مبتسمة.

هي المرأة النخلة التي مهما اشتدت الأيام لن تؤثر في شموخ

Telegram: electronic_library

قامتها ومهما قست الريح لا يهتز منها رمش، والآن الكل يهتز لها وهي كما هي لم تتغير. كانت إنسانة متصالحة مع ذاتها لا تفكر خلاف ما تقول ولا تقول خلاف ما تشعر. وعندما وضعت على المحك لتجرب كل حكمتها التي كانت تملكها لم يتغير شيء فيها، مريم كانت حقيقة بكل ما تملك وكنت مؤمنة بها جدّاً وأعرف أنها لا تزيف شيئاً ولا تهون شيئاً لأنها ترى الأشياء بهذه الطريقة فقط، ترى الأمور بشكل بسيط جداً، بعيداً عن كل تعقيداتنا البشرية، ربما لم تكن بشرية.

- عليا: أريدك أن تكوني بقرب عادل إن احتاج إليكِ.

- لا تطلبي مني ذلك أنت بقربه ولن يحتاج إلى أحد.

- سمعته يوم اتصل بكِ وأخبرك بمرضي، سمعت بكاءه معكِ، عليا، عادل لا يبكي هكذا إلّا معي ولم يبك مع أحدٍ البتة.

حتى والده الذي قرر أن يترك كل شيء هنا ويتركنا لحياة جديدة لم يظهر أمامه دمعة واحدة.. لذلك أنا أوصيكِ به، لو رحلت أنا الأخرى إلى حياة جديدة...

وضعت يدي على فمها وقلت لها لا تكملي، وددت أن أقول لها إني هنا حتى تمنحني القوة لا أن تكسرني أكثر، ولكن من حقها أن تنهار قليلاً، أنانية أن أطالبها بالقوة في حالتها هذه رغم أني لا أستطيع تحمل انكسارها هذا، منذ أن عرفتها كانت التعويذة التي

Telegram: electronic_library

أطرد بها كل لحظة ضعف ويأس كان كلامها يعاد في ذهني لأنهض من سريري ولأقول للحياة أنا ندٌ لكِ، أعرف أن الحياة كانت تضحك من كلامي ملء قلبها، ولكني كنت أكذب على نفسي لأكمل دوري في هذه المسرحية التي لا أعرف ما هو نوعها، ساخرة أو كوميدية أم هي كوميديا سوداء وربما هي كلها معاً.

سمعنا صوت مفتاح في الباب فُتح ودخل عادل، لم أره منذ مدة طويلة تغير شكله قليلاً وزاده الحزن وسامة، لم أره من قبل بهذه الذقن السوداء، لم يتركها هكذا يوماً كان يعتني بها أكثر رغم أن شكلها غير المبالي به كان رائعاً، ليست لحيته وحدها التي كانت جديدة بالنسبة إليّ بل نظرة عينيه أيضاً. كانت حادة ومخذولة، فعلاً إن أمر الحزن مضحك لا أعرف إن كان يسخر منا أو يستفزنا، ما إن نلبسه ونهمل أنفسنا حتى يليق بنا جدّاً ونبدو به أجمل. ربما لهذا يجد الرجال النساء المجروحات شهيات والموضوع ليس له علاقة بالخيبة أو الرجولة.

الموضوع موضوع لذة، كم نبدو لذيذين بك أيها الحزن وكم تليق بنا ولا نليق بك، كم تكسر أعيننا بفرط ما أهديت إلينا من سحر وجاذبيه فتكون صاحب فضلٍ بما وهبت ونكون جاحدين بما كَرهنا.

آخر ما كان يتوقع أن يراه في بيته هو أنا، لقد فاجأه وجودي

Telegram: electronic_library

جدّاً. ابتسمت ما إن رأيته وحاولت أن أخفي تلك الدموع التي كانت في عيني بينما بقي هو صامتاً حتى سألته خالة مريم «ماراح تسلم؟».

لم نلتقِ منذ مدة طويلة، فهمت صمته ربما مفاجأة وربما لم يعرفني أو أراد أن يقول بهذا الصمت عن دون قصد: لقد تغيرت كثيراً.

فعلاً كلانا تغير وكلانا أصبح بالحزن أثقل.

- كيف حالكِ؟

- الحمد لله، كيف حالك أنت؟

- بخير.

قَبل مريم وجلس فسألته إن كان يريد قهوة ولم يرفض طلبها فغادرتنا متوجهة إلى المطبخ.

وبقينا وحدنا أنا وهو وشعرت بالخجل منه لأول مرة وهو ذلك الصديق المقرب الذي قضيت معه أياماً جميلة. ضحكنا وبكينا، تابعنا الأخبار وكرة القدم، أكلنا وخرجنا معاً لكن بعض البعد غربة فيصنع منا أغراباً.

نلتقي بوجوه مألوفة وأسماء مكررة لكن الأنا مختلفة، قال بابتسامة خفيفة تكاد لا تفلت من شفتيه:

- ما زلت وفية له؟!

Telegram: electronic_library

لم أفهم جملته وأول من خطر ببالي هو آدم، لكن عموماً هو لا يعرف عنه شيئاً وخصوصاً أنني لم أنسه منذ أن دخلت إلى هذا البيت حتى جلوس عادل بقربي وأنا أفكر ماذا سوف أخبر آدم عن هذا اليوم وهو الذي تحول إلى بركان هائج أحرقني بناره على مدى أسبوع كامل، بأرقامي التي تلاحقه ولا تظفر به ولا هو يرأف بها، بصوته الذي قرر فجأة أن يدخره بعيداً عني، بحضوره الذي لم يبذره أو يتفضل به هنا أو هناك أو أي مكان قد ألتقيه فيه، فادخرت أنا عينيّ، لا شيء يستحق النظر من بعدك ولا شيء يستحق كُحلي وضحكات عيني كما كنت تقول: «عندما تكونين سعيدة تضحكين بعينيكِ قبل شفتيكِ» فلم أحظ بالاثنين ولا أريدهما لغيرك، وإن كان عادل يبدو أكبر وإن كانت روايته الأخيرة رائعة إلى درجة جعلتني أتوارى بين سطورها بوضوح يمكن أن يلمسه كلُ من يعرفنا، بدليل اتصال هالة الماكر بعد صدور روايته الأخيرة ولم تستطع إخفاء ما اتصلت لأجله فترة أطول ما بعد كلمة مرحبا أو ربما كيف حالكِ حتى.

سألتني بنبرة لا تخلو من التنبيه: «أقرأتِ روايته الأخيرة؟!».

أجبت جميلة وقفزت إلى موضوع آخر بعيد عن عادل تماماً حيث لا يمكنها أن تعود لما اتصلت لأجله.

Telegram: electronic_library

كانت هالة صديقته المقربة وحتماً تعرف الكثير وربما قرأت الرواية حتى قبل أن تُنشر.

حمدت الله أنك لم تقرأ له شيئاً ولم تهتم بما كان يكتب أو لمن، لصدقت خياله الذي أفرغه على الورق وكنت أنا فيه أتبع خطوات رسمها هو لي..

أجبته:

- لم أفهم!

- Your favorite color.

ابتسمت وأجبته كمن لا يريد أن يخوض حديثاً:

- لون شتوي.

لا ذنب له بما أشعر ولا يستحق تجنبي هذا لأن أخوض حواراً من أي نوع معه. ولكن آدم كان يجلس في الأمتار القليلة التي كانت بيننا وأتذكر صراخه وغضبه فأكتفي بالصمت.

ما أن أحضرت مريم قهوته حتى نهضت أنا للمغادرة، موقفي لم يكن مفهوماً له ولي كنت أتحاشاه دون تفكير وكله بسببك أنت، خفت أن يصدر مني شيء يؤكد كلامك الذي كلانا لا يصدقه.

لكني أخاف زعلك حتى بيني وبين نفسي ودون علمك، لا أعرف إن كان وفائي هذا أكبر من قياسك أنت أم أصغر منه لياقتي

Telegram: electronic_library

أنا في التعامل، حتى وصلت إلى أقصى درجات الفظاظة مع كل من لا يستهويه مزاجك وأولهم عادل ذلك الذي كأنه خرج من قصص عشقية قديمة تلبس نساؤها فساتين فخمة وكبيرة عارية الصدر ويعتمر رجالها قبعات عالية، يحافظون على نبلهم بانحناء بذلاتهم الرسمية لامرأة عند التحية وقبلة اليد عند الوداع، ذلك الزمن الذي كان الحب فيه صمتاً والحزن صمتاً والسعادة قُبلات مسروقة خلف طاولات الحفلات الرسمية. بروعة رسائلهم الورقية وكلماتهم الجميلة كان عادل أروع رجل من تاريخٍ آخر ليس هذا التاريخ.

من الأرض نفسها ولكن بألوانٍ أكثر أناقة كنت أجد عذراً لخوف مريم المفرط أحياناً عليه، لأنها تعرف أنه رجل ركب آلة الزمن وعبر إلى عالمنا هذا فوجدنا نساء ورجالاً نرتدي الجينز وكلانا أيضاً تشارك الرجولة والأنوثة فضاعت الهوية بمقدار كافٍ لتبحث عن كليهما بإبرة محاولًا إيجاده بصورة نقية غير مشوبة بشيء. لم نعد في زمن الرجولة وما عادت الأنوثة نفسها تختبئ خلف فستان أو حتى بنطال.

بدأنا نترك أجزاء منا مع كل موضة جديدة، نخلع مع كل ثوب قديم شيئاً منا ويهب لنا الجديد صفة غريبة عنا نحاول التأقلم

Telegram: electronic_library

معها ولا نعرف، فيبدو جديدنا مخزياً وفضفاضاً مهما ضاق أو قَصُر.

أما هو فلا يزال في بذلته الرسمية الأنيقة بذيلها الطويل وربطة عنقه الصغيرة كعازفي البيانو، ولم يخلع معها شيئاً منه وهو في داخل ثيابه العصرية لذلك كان يكتب، كان يعود إلى العصر الذي جاء منه بالكتابة بعد أن تعطلت به آلة الزمن وعلق هنا في هذا الزمن الغريب بكل ما يحمل ويحوي من جنون ونقائض وبي أنا التي تمنت ذات مساء رجلاً من ذلك العصر عندما كنت أشاهد فيلم: pride and prejudice.

ذلك الرجل المغرور الذي انصهر قلبه حبّاً وأحرق جوفه وهو يجثو على ركبتيه في أمسية ماطرة ليعترف بحبه لها، ذلك الحب الذي لم يكن يظهر منه شيء ويطفو على سطحه الغرور والتعالي والأرستقراطية القبيحة، فقفز هو من كواليس الرواية تلك الأمسية بعد أن علّق غروره على شاشة تلفازي وجاءني بخفين فقيرين يطلب ودي فتعاليت أو قلبي الذي فعل ولا سلطةَ لي عليه.

بعد أن وضعت قهوته قبلتها وأخبرتها أني سأغادر استغربتني قليلاً وقالت:

- ما زال الوقت مبكراً إبقي قليلاً وبعدها يوصلك عادل بالسيارة إلى البيت.

Telegram: electronic_library

هذا كان آخر ما ينقصني، أنا وعادل وحدنا وفترة أطول لحوار منفرد جديد أغلقت بابه تواً بوضع حقيبتي على كتفي ووضع قبلة على خد مريم استعداداً للمغادرة، وبعد جملتها هذه كل ما وضعت لا ينفع للتملص منه، فإذا كان صوته عبر هاتفي مشكلتي منذ أسبوع كامل فما هو الحال إذن، بي وبه بلحمنا ودمنا وأرواحنا، وأنفاسنا يحبسها البرد ويرصنا داخل عربة واحدة لا مسافة بين مقعديها سوى سنتيمترات، معك يا آدم تعلمت أن أعد أجزائي وكلماتي وتعلمت أن أحصي ما أعطي للآخرين كم كلمة كم حرفاً، أعد نظراتي وضحكاتي فلا أغادر وأنا في يد هذه الآلة الحاسبة عتبة الرسميات والمجاملات الحقيقية التي إن عبرت بعدها بكلمة واحدة يثقل ميزان ما وهبت وأشعر أني مذنبة أو خائنة. كنت أدرك أني سجينة أرقامك اللّارقمية وكلماتك اللّالغوية ومفاهيمك الغريبة التي تُقربها جميعاً لي على أني كنز لا يستحق مني أحد ديناراً..

أجبتها غير مكترثة:

- لا داعي لذلك حقّاً سآخذ سيارة أجرة.

- حبيبتي الليل سيهبط بعد قليل، كيف تأخذين سيارة أجرة وحدك، سأتصل بوالدتك الآن وأخبرها أنك ستتعشين معنا وعادل سيوصلك إلى البيت بعدها.

Telegram: electronic_library

لا حجة لي الآن وبعد ما قالت سيكون الرفض سخيفاً ولا مبرر له، خصوصاً أن أمي وخالة مريم صديقتان وهناك ثقة متبادلة بينهما، فكأني الآن في بيت أقاربي ولا بأس إن بقيت أكثر أو إن أوصلني عادل، لكن مريم لا تعرف أن عليها الاتصال بك أنت والأجدر بها أن تأخذ إذنك أنت لا إذن أمي.

أمي لن تعترض ولا أي أحد آخر غيرك أنت، لا أحد سيعد الدقائق مثلك بما تحمل من كلمات وضحكات إضافة إلى وجبة عشاء ثم توصيلة خاصة إلى باب البيت مع رجل عاشق وكاتب ستكون هذه الأمور كلها بالنسبة إليه موعداً غرامياً وربما يشطح خياله أبعد فيُصور له أني خطيبته مثلاً وأقضي مساء يوم الخميس عندهم إلى مائدة من صنع والدته تنتهي بإيصالي إلى المنزل في وقت متأخر نسبيّاً وربما يختم الأمر بقبلة، هكذا سيكون تحليلك تماماً، وربما أنا وقفت عند حدوده الدُنيا فالخيال عندك جامح وربما يُلبسني أنا أيضاً، تهمة أدرج بعدها تحت قائمة الخيانة المستترة تحت طاولة عشاء.

بدأت ألوم نفسي لأني لم أزرها في وقت مبكر، لكنت تجنبت كل هذا الإحراج الذي سببته لنفسي وأنا أجلس بينهما بنصف عقل وأتخيل أنك ستدخل علينا فجأة لتقبض عليّ متلبسة.

وساعتي التي أهدتها إليّ في ميلادي كانت تضغط على يدي

Telegram: electronic_library

بقوة وهي تحرض عقاربها أن تمض على الدقائق بقوة لأسمع صراخها، لا أعرف منذ متى أصبحتُ جهازاً تحركه عن بعد!

يوم ألبستها لي أخبرتني أنها ستفتن لك عن عدد الدقائق التي أنشغل بها عنك وعن التفكير فيك. قلت لي: «لن تنسيني ما دامت في معصمك»، على أساس أني أنساك بدونها، لكنك كنت تُجند كل أشيائي ضدي وكل حواسي وكل أفكاري حتى صدقت هذا التجسس الذي تمارسه أشيائي الجامدة التي لا حياة فيها، عندها رن هاتفي أول مرة منذ أسبوع ونفذ صوت فيروز من الحقيبة وهي تغني «زعلي طول أنا وياك وسنين بقيت جرب فيهم أنا أنساك ما قدرت نسيت». هذا أنت وهذه نغمتك الخاصة على هاتفي المحمول في كل مرة نزعل فيها كنت أعود إليها حزينة وأشكوك إلى فيروز وأخبرها أن حبيبي كحبيبكِ يُطيل الزعل ولا أستطيع نسيانه مهما فعل.

لكن لمَ الآن؟! في هذا الوقت بالذات؟! أوشت بي ساعتي أم دقائقها أم أنا التي فعلت ذلك دون علمي ودون إذني، حواسي أحياناً لا تستجيب لي كما تستجيب لك وفية لك أكثر مني.

احترت بين أن أجيب وبين أن لا أفعل لكني كلي شوق إليك واتصالك يعني أنك اكتفيت من هذا البعد وهذا الهجر وقد عاقبتني بما يكفي وستضمني الآن إليك بقوة فكيف أرفض

Telegram: electronic_library

أحضانك؟ كيف أقاوم ذراعيك اللتين يُحيطني بهما صوتك؛ اعتذرت من مريم وعادل وابتعدت مسافة كافية لأستطيع أن أجيب على اتصالك وأنا بين فرحةٍ وذُعر فتحت زر الكلام بيننا:

- ألو.

- أكرهكِ.

- أعرف.

- كيف عرفت؟!

- لو كنتَ غير ذلك لما عُدتُ يَتيمة كما أنا.

- افتحي شباك غرفتك.

- أنا لستُ في البيت.

- أين أنتِ؟؟؟

تغيرت نبرتك وجاء سؤالك غاضباً مستفهماً بشدة.

- في بيت قريبة لنا.

- إلى هذا الوقت؟! كيف ستعودين إلى البيت؟ أم تنوين المبيت؟

- ما زال الوقت مبكراً الساعة السابعة الآن ولن أبيت سوف يوصلونني هم.

- أممم.. أعرف أنها السابعة ولكن الليل يبدأ من الخامسة هنا في الشتاء.

Telegram: electronic_library

- لمَ طلبت أن أفتح شباك غرفتي؟

- القمر جميل هذا المساء وأعرف أنك تحبينه على هذا الشكل.

ثم عدت إلى نبرتك التحقيقية قائلاً:

- متى ستعودين إذن؟

- أقل من ساعة أنا في البيت.

- أخبريني عندما تصلين.

- حسناً.

تنفست بقوة بعد أن أغلقت الهاتف أو أن الهواء عاد إلى صدري بهذه الجرعة المضاعفة.

ارتحت قليلاً وانزعجت قليلاً، صوتك كان ينقصني جدّاً، لكن كذبي عليك أو إخفاء مكاني ومع من أنا عكر عليّ روعة تلك اللحظات، لو كنت أقل حدة فقط، لو كنت أقل غيرة لكان كل شيء أسهل لكلينا.

سألتني خالة مريم إن كان المتصل أمي لتطمئن إليّ أو لتستعجلني العودة لكني قلت لها إنه غيث طلب مني أن لا أتأخر أكثر لأن الوضع العام هذه الفترة غير آمن فوافقته في الرأي، رغم أنه كان كلامي أنا وليس كلامه لأنه لو كان في البيت ولو لم يكن في سفر عمل في محافظة أخرى لجاء هو لأخذي ولن يقبل أن

Telegram: electronic_library

يوصلني عادل هو الآخر، لكنه أخف حدة من آدم وأكثر تفهماً، فطلبت من عادل أن يُوصلني إلى البيت.

فتح لي باب السيارة كجنتلمان كما هو دائماً وبدأ يقود متوجهاً إلى بيتي الذي بدا كأنه يعرفه مُسبقاً، وعندما وجدني مستغربة الأمر دون أن أسأله أخبرني مستدركاً أنه أوصل مريم مرة إلى بيتنا عندما كانت تزور أمي. لم نتحدث كثيراً والطريق لا يعاني ازدحاماً كعادته ولم نقضِ مسافة الدقائق العشر بأكثر من ساعة حتى وصلنا، وقبل أن يوقف السيارة سألني إن كان هذا هو البيت أو غيره رغم أنه كان سؤالاً كاذباً وكان يعرف البيت تماماً، كان عليه أن يدعي قليلاً أمام تحفظي الكثير معه والذي بدا غريباً عليه، فلست أنا هي نفسها التي عرفها في سوريا ولم يكن اختلاف الأرض سبباً لهذا التغير ولكن آدم جعلني أرضاً محرمة على سواه.

فتحت الباب ونزلت ونزل معي لأنه كان يريد أن يلقي التحية على أمي، قرعت جرس الباب لأني لم أكن أحمل المفاتيح فرن هاتفي وغنت فيروز، عرفت أنه آدم أخرجت الهاتف من الحقيبة وأنا وعادل ننتظر أن تفتح لنا باب البيت ولا أعرف لِمَ تأخرت أمي في فتحها إذْ لم أكن أريد أن أجيب وأنا في جوار عادل، هذا الموقف أكبر من أن أتحمله.

آدم على الهاتف وسيسألني حتماً إن كنت عدت أم لا وسيبدأ

Telegram: electronic_library

بعدها بفتح موضوع خلافنا وزعلنا الطويل هذا، بسبب عادل الذي أقلني توّاً وهو نفسه يقف إلى جواري الآن. كم أحتاج من الكذب لأخفي كل ما جرى اليوم وكم سأحتاج من الكذب الذي لا أجيده أبداً وخصوصاً إذا كان معك يا آدم.

أجبتك بقلبٍ يخفق بقوة وقبل أن أنطق بكلمة قلت:

- من هذا الذي معك يا عليا؟!!

لم أعرف بما أجيبك. هل أنت تخمن أم تمزح أم أنك تراني عبر الهاتف أم أنفاسي المتسارعة وقلبي الذي يخفق بقوة أفهمك أني مع عادل الآن، وصرخت بقوة:

- عادل!! لو كنت أعرف أنك معه لما انتظرتك كل هذا الوقت.

التفت إلى الوراء أبحث عنك أين أنت؟!!وماذا تعني أنك انتظرتني كل هذا الوقت؟! هل كنت هنا تنتظر عودتي؟ أم أنك عندما قلت لي افتحي شباك غرفتك الذي تعرف أنه يطل على الشارع كنت تريدني أن أراك أنت لا القمر، فعلاً، فالسماء غائمة جدّاً اليوم ولا قمر فيها كيف لم أنتبه لهذا.

التفت وأنا أبحث عنك كالمجنونة لأجدك تقف بعيداً في جوار سيارتك تنظر إليّ وعيناك تصدران ناراً، استطعت أن أراها

Telegram: electronic_library

وسط كل هذا الظلام والبرد، ماذا فعلت بنفسي وماذا فعلت أنت بي.

لو كنت أخبرتك منذ البداية لجعلت الأسبوع شهراً ولعدت إلى فترة عقابك لي، فاخترت أن لا أخبرك، فما الحال الآن وماذا سيكون عقاب خيانتي الواضحة أمامك الآن التي لا شك فيها ولا عذر ألتمسه للدفاع عن نفسي.

انتبه عادل لتوتري ونظر إلى جهة نظري حيث كنت واقفاً وسألني:

- ما بكِ؟

عندها فتحت أمي الباب وبدأت بالترحيب به وهو كذلك، وأنت حركت سيارتك بسرعة واختفيت من أمامي. بقيت واقفة لا أعرف ما العمل كأن الوقت توقف كما أنا في مكاني، حتى دخلت أمي وعادل البيت وأنا بقيت خارجاً لولا أن سألني عادل:

- أيعجبك البرد؟

ابتسمت في وجهه نصف ابتسامة جامدة ودخلت.

كان يُريد أن يُريني قمراً ويعرف أنه لي هو القمر. طلب مني أن أفتح نافذتي لننفجر حبّاً ما إن أراه ويراني بعد هذه القطيعة ولكن طاولة العشاء انقلبت على رأسي وربما على رأسينا معاً.

هو بخياله المجنون والمريض أحياناً، كُسرت الطاولة على

Telegram: electronic_library

رأسه وأنا ابتلعت ما عليها فتحول سُمّاً في جوفي. لو لم يكن عشاؤك يا مريم فُرض عليّ لكنت الآن أسعد حواء على الأرض، وما شأن مريم؟!

أحتاج أن ألقي اللوم على أحد ربما يخفف هذا من حدة ما أشعر به، فأنا واقفة بين رجلين: أحدهما أوصلني والآخر كأنه رمى بي خارج سيارته وسط الطريق وانطلق كالمجنون .

تعطلت عن التفكير كل ما أفعله هو الابتسامة لكلام أمي وعادل الذي ما عدت أسمع منه شيئاً غير شفاه تتحرك، فاستأذنت منهما وصعدت إلى غرفتي بحجة الصداع أو البرد لا أذكر..

مازال الهاتف بيدي واعتقدت أنه تعطل من فرط ما كان صامتاً ومذهولاً، ماذا أفعل.

هل أتصل بك وهل لديك آذان الآن لتسمعني بها وأنا متأكدة أنك الآن دم يغلي وعقل يعمل بطريقة أبعد ما يمكن عن الصح.

اتصلت أخيراً برهف وما إن قالت:

- وينج يا بذاته.

حتى انفجرت باكية بكيت بقدر صمتي طوال غيابك بكل ما أملك من دموع وبقدر عجزي وقلة حيلتي وبقدر جنونك وغيرتك بكيت وكأنك مُت.. ثقيلة على لساني هذه الكلمة ولكني شعرت هكذا وقتها.

Telegram: electronic_library

شعرت أني هُنا وحدي ووحدي جدّاً ولا أريد سواك يا آدم، لا أريد أحداً غيرك، لِمَ تلعب معي الحياة هذه اللعبة التي لا أجيدها؟ لِمَ تتلاعب بي بالأحرى وليس معي؟ لِمَ تهب لي الأشياء بقوة لتحرمني منها لاحقّاً؟

لماذا عندما يحاول أحدنا إصلاح شيء يكسره الثاني بقصدٍ أو من دون قصد، ماذا تخبئ لنا بعد هذه العلاقة المجنونة؟ بكم من الدموع بعد ما زلت أدين لها، ومتى أسدد فاتورتي كاملة وأنتهي من هذا الفصل المرهق؟ لم تفهم مني شيئاً رهف غير بكائي الذي بدأ يتصاعد وبدأ يُخيفها فصرخت بي محاولة الحصول على إجابة أو سبب لما أنا فيه:

- عليا! أسكتي قليلاً أريد أن أفهم، هل أنتِ بخير هل حدث شيء لخالة أو آدم؟؟!

لم تسألني إن كان قد حدث شيء لي، فأمي بخير ما دامت لا تعرف شيئاً وآدم بحال جيدة وهو بقلب قوي يستطيع أن يقسو عليّ وعليه وأن يصدر الأحكام من دون أن يسمع شيئاً ودون أن يُفكر، وحدي أنا التي حدث لها شيء بل تحدث لها أشياء تقطع الخيط الرفيع بين حزنها وسعادتها لتمزجهما معاً فيكون لكل منهما مذاق لاذع يَحرقني على مهل.

Telegram: electronic_library

أخبرتها القصة كاملة منذ أول زيارتي لمريم حتى قمري الذي اختفى وهو غاضب وكاره لي.

في البداية قالت إني مُخطئة بذهابي إلى هناك، ولكن بعد قليل من التفكير قالت: إن الخطأ مشترك بيننا، أنا خجولة دائماً ولا أعرف أن أرفض ما قد يجلب لي المتاعب والدموع وهو عاشق أحمق يغار حتى من نفسه عليّ وقررت أن تَتدخل هي هذه المرة لتخبره بما حدث ولتوضح له أن عادلاً وأنا صديقان لا أكثر وعائلتي وعائلته كذلك، فحتى إن قطعت علاقتي أنا به ذلك لن ينفع وسيُطلب مني سبب لموقفي الجديد منه، كنت أعرف أن آدم سيسمعها من باب الخجل منها، فهو لا يستطيع أن يُمارس سلطته وتمرده عليها كما يفعل معي لكن إصغاءه إليها لن يغير شيئاً من موقفه ضدي.

كنت أعتقد أحياناً أني أحب رجلين في جسد رجل واحد. أحدهما حنون ودافئ لا يتحمل فكرة أن أكون حزينة دقيقة واحدة، رجل يجد نفسه مسؤولاً عني تماماً، يرى نفسه أبي الذي رحل منذ أعوام ولم ألتقه أشعر معه أني ابنته حبيبته ومدللته.

والآخر أكاد لا أعرفه ولا أحزر تصرفاته وطيشه وجنونه وغيرته العاصفة التي تعصف بنا وتضربنا في كل أوقاتنا الجميلة فتكسرها وتكسرنا، رجل قادر كل القدرة على التخلي عني

Telegram: electronic_library

وإفلات يدي التي وعد أن لا يتركها فيسلمني إلى طريق لا أعرف بدايته لأني كنت معه ولا أعرف نهايته لأني بدونه.

ثروتنا في علاقتنا الصدق والوفاء. كنت أعرف تماماً هالة النساء التي كانت تلوح حولك وكنت أعرف أنك رجل أحلام البعض منهن ورغبة البعض الآخر، وأنت أيضاً، كنت تعرف ذلك لكن رجلاً مثلك، بوسامتك وحضورك وأسلوبك يُغريهن جميعاً للحب أو لعلاقة عابرة. كُنت لذيذاً وأنت تمتنع عن كل مبادرة تبدأ بها إحداهن فيزيدُكَ امتناعك فتنة في أعينهن. قبل أن تعرفني كنت رجلاً لا يحب النزوات ويغار على نفسه بقدر ما يغار على أنثى تخصه أمام رجل غريب، وبعد أن أصبحت أنا في حياتك قلت لي: « أنتِ كل النساء والبقية محاولات لا أكثر»، فلم أكن أشعر بغيرة تجاه إحداهن ولا أغار عليك مهما زدن حولك. كنت دائماً تشعرني أني أنا وحدي امرأة والبقية محاولات فعلاً لا أكثر، محاولات فاشلة للرقي إلى مرتبة امرأة ولا يتعدّين مرحلة الأنوثة فقط، هكذا كُنت تراهن فامتلكت أنا ما يكفي من الغرور بنفسي لدرجة أني لا أغار منهن، لكن لا توجد امرأة لا تغار وليس بالضرورة أن تغار من امرأة مثلها.

النساء غالباً ما يغرن من الأشياء أكثر من الأشخاص على عكس الرجال، فالرجل لا يغار إلّا من ند له أو رجل آخر وإن كان

Telegram: electronic_library

مجرد ذكر لم يرتق بعد إلى مرحلة الرجولة، هذا هو جل اهتمام الرجل وغيرتهُ.

أما النساء فيغرنَ من قميص من سيجار من عطرٍ أو تذكار.. وربما من العود والأوتار، وهذهِ الأخيرة كنت أنا، كنت أغار من تعلقك به ومن هجرك إياي والانفراد به وحده وإن كنت أنا محور هذا التفرد أغار من فخرك بالظهور معه دائماً في حفلة موسيقية أو جلسة وترية تتشارك الأوتار فيها أوجاعها أو بالأصح تترجم أوجاع حامليها. قلت لي مرة: «ما إن أُخذل منك حتى ألمسه فتشتمك الأوتار وتُبكيني».

أعرف جدّاً أني لم أخذلك يوماً ولا أعرف حقّاً إن كنتُ أُبكيتكَ يوماً، لكن في كل حالاتنا تلجأ إليه بفرحنا وحزننا. أذكر أياماً كنتُ أغفو فيها على سماعة الهاتف وأنا أستمع لك وأنت تعزف لي عندما كنتُ أشكو لك قلقي وأرقي وصوت الهواء الذي يرعبني ما إن يصفع الأشجار والأبواب بقوة فكنت تُنسيني كل هذه الأشياء وأنت تحتضنه لأجلي رغم أني كنتُ أتمنى العكس، كنت أتمنى أن تحتضنني أنا وإن كان ذلك لأجله.

كنت أفكر في غيرتي من كل أشيائك حتى أستطيع تفهم غيرتك من عادل من رجل غيرك لا يعني لي شيئاً سوى أنه صديق رقيق أحب الاحتفاظ به لأن من مثله لا يُكرر، رجل استطاع أن

Telegram: electronic_library

يغلق قلبه على حُبه فلا ينفذ منه نبضه ولا يتسرب وحدهما عيناه كانتا تشيان به رغم محاولاته أن يدسهما في أي شيئاً إلّا عيني، رجل احترمت فيه ازدواجيته هذه فكان لي الصديق الذي أريد وخبأ الحبيب الذي هو يُريد، لم أطلب منك أن تحبه لأنه يستحق ولكن تمنيت أن تحترم ما هو عليه وأن تعي تماماً ما أنت عليه؛ أنت رجل حياتي، رَجُلي وأبي، إن كنت أريد أن أستبدل أحدهما برجل آخر لن أستطيع وأنت كلاهما أنت كل رجال حياتي، أنت الأب والصديق والابن والحبيب ولن أجد رَجُلاً مثلك يختصر كل الرجال هكذا إذا كانت النساء غيري مجرد محاولات لا أكثر فأنت لا محاولات بعدك أنت أنت ولا أحد غيرك، فكرت أن أكتب لك رسالة ورقية أن أسرق فكرتك السابقة عندما كتبت لي رسالة ورقية، في زمن لم يعد فيه للورق مكان، بل للشرائح الإلكترونية، بعد أن رفضت الاستماع إليك رشوت فضولي بورقة مطوية فقرأتها وسامحتك لوساطة الورق لك عندي، عندما كنا في البداية وكان كل شيء في بداية التكون ومن ضمنه ثقتي بك أتت فتاة متميعة قليلاً تتمايل في خطواتها وتوزع أنوثتها على من حولها واقتربت منا حيث كنا نجلس أنا وأنت في زاوية بعيدة نوعاً ما في المعهد حين قلت لي يومها.

Telegram: electronic_library

- أول مرة يروني هنا انفرد بامرأة سيعتقدون أني شُفيت بعد أن قالوا عني إني رجل مُعقد.

أجبتك وقد انعقد حاجباي:

- هنا فقط؟!!

ضحكت من كل قلبك وقلت لي:

- كم جميلة أنتِ.

أخجلتني جملتك ونظرت بعيداً وأنا أحاول أن أخفي ابتسامتي، حتى وقفت بقربنا هذه الفتاة وألقت التحية عليك بتمايُع زائد عن حده وقالت لك:

- منذ زمن لم أرك تجلس هُنا، حتما اشتقت إلى هذه الجلسة...

ابتسمت أنت لها وضحكت هي وذهبت، لم أفهم شيئاً من جملتها غير أنك اعتدت الجلوس هنا وحتماً كنت تجلس مع امرأة أخرى، وهذا ما قلت عكسه قبل أن تأتي هذه المتمايعة بجملتها التي لا تُفهم بغير ما أرادت أن توصله إلي، فنظرت إليك وكأن أحدهم صفعني فجأة وقلت لك:

- نسيت أن أخبرك أنني أكره الكذب.

وتركتك وذهبت بعيداً حاولت أن يكون شكلي طبيعياً كأني ذهبت لأجل شيء ما ينتظرني وليس بسبب هذه الفتاة التي حتماً

Telegram: electronic_library

تنظر إلينا من بعيد لترى وقع جملتها عليّ، وبكل الأحوال إن كنت أنت صادقاً أو هي لم أكن أريدها أن تشعر أنها انتصرت أو حققت ما تريده، لكنها فعلاً انتصرت، قتلت تلك اللحظة الجميلة التي كنت فيها أنثى لرجل أحبه وأنا في طور اكتشافه من حركة ونظرة من حرف وكلمة، تجنبتك بعدها فترة وقللت من حضوري إلى المعهد، خصوصاً في وقت أعرف أنك موجود فيه ولم أرد على هاتفي الذي تركته أغلب الوقت في وضع صامت ولا أتفقده إلّا قبل أن أنام لأرى ما أرسلت إلي. لم يصلني منك غير اتصال واحد كل يوم لا أكثر، كنت أتمنى أن أجد رسالة تقول فيها أي شي يجعلني أرد على اتصالاتك حتى التقينا في المعهد بعد حصتي الموسيقية ووقفت أمامي وابتسمت، كانت ابتسامتك مشرقة شعرت بعدها أنك سوف تحتضنني. كان وجهك مشرقاً جدّاً وشعرت يومها أنك مشتاق إليّ رغم أني قابلتك بوجهٍ بارد خالٍ من أي تعبير فقلت لي:

- تحققي من حقيبة الكمان عندما تعودين إلى البيت.

وتركتني وذهبت. تساءلت في داخلي أهذا فقط!! هذا ما أردت قوله طوال غيابي عنك وتجنبي لك وغضبي منك، تقابلني بابتسامة عريضة وجملة لا معنى لها. هل يهمك وضع كماني أكثر مني وهل تهتم إن كان مرتاحاً في بيته أم لا؟ فعلاً، كنت دائماً في

Telegram: electronic_library

بداية كل كلام بيننا تسأل عنه قبلي. هل أنت بارع إلى هذه الدرجة لتزرع تفرقة بيني وبين التي تزرع غيرة بيننا، عدت وأنا غاضبة منك وفكرت أنك رجل يريد أن يلهو لا أكثر، وما قالته تلك الفتاة فيه صحة، نظرت إلى حقيبة الكمان وتساءلت ما بها ولم طلبت أن أتحقق منها؛ شكلها جيد وهي ذات جيب واحد كبير يستقر فيه الكمان وقوسه ثم انتبهت لجيب، تقريباً لا فائدة منه لأنه صغير ولا أضع فيه شيئاً. سحبت الحقيبة وفتحت هذا الجيب الصغير لأجد فيه ورقة مطوية كتبت لي فيها:

«لعينكِ أشكو تَظلُّمي.

حمقاء ألقت بعلبة كبريت أشعلت بها غيرة حبيبتي، وحبيبتي ما زالت صغيرة لا تعرف شيئاً عن النساء سوى الكُحل..

لم أكن أجلس هناك إلّا لتفردي لا جليس لي في تلك الزاوية إلّا عودي وتمردي.. وأنتِ.».

ابتسمت عندما قرأتها كم أحببت غيرتي يومها وأحببت هذه المطوية الصغيرة التي خبأتها في حقيبتي.

ونسيت الأمر تماماً وبقيت رسالتك في يدي عدة ساعات أعيد قراءتها، شعرت كأنها هدية منك أحببت خطكَ فيها وطريقة كتابتك للحروف، نجحت طريقتك يومها عندما استعملت الورق كوسيط بيننا ولكن لا أعرف إن استخدمته أنا الآن فهل هذا

Telegram: electronic_library

سينجح معك أم لا، بدأت بالكتابة لك حتى تعدت حروفي الورقة وبعد أن انتهيت شككت بأني سأعطيك ما كتبت كأني انفجرت على الورق، كأني لم أرد أن أشرح لك ما جرى فقط وإنما أخبرك عن إحساسي بكل ما تفعل، أخبرك أشياء لم أقلها لك من قبل ربما لأنني أضعف من أن أقولها ولكن وجدتني أكتبها دون وعي، قررت أن لا أعطيها لك شعرت أنها كانت رسالة وداع ، رسالة أقول لك فيها أن لا فائدة منك ولن تتغير وستبقى رغم كل حُبك لي تؤلمني.

رسالةٌ ورقية لامرأة تؤمن بالورق أكثر من الموجات، لامرأة تصدق الأشجار لا الأسلاك؛ امرأةٌ تثق بالأرض أكثر من السماء، فالأرض تشبع حاسة النظر واللمس أما السماء فتتعب نظرك ليس إلّا...

لا تطرق باب النسيان فلا بيت له عندي، بعض الأشخاص يولدون مشوهي النسيان وبعضهم يولدون دونه، أنا من النوع الأخير فاضطررت أن أقحم ذاكرتي معي في كل الأوقات.. تشاركني في كل المناسبات ولها حرية الانتقاء، فعادةً تلبس عند الفرح حُزناً وعند الحزن لا مُبالاة.. ذاكرةٌ أرملة هجرها النسيان تضاجع كل يوم آلاف الأحداث واعتدت أن تكون أنت مركزها واعتادت هي أن تكون أنت محور الذكريات، يأتي بك مذياع

Telegram: electronic_library

السيارة بعد أن أغلقت الباب على الذاكرة لتستريح قليلاً وسرحت أنا في الطريق، أدار السائق المذياع عدة مرات واستقر على فيروز وهي تهذي مع نفسها.. تذكر آخر مرة شفتك سنته!! «تذكر آخر كلمة ثلته.. ومعدت شفتك.. وهلاء شفتك.. كيفيك أنت؟!!»

وتساءلت معها كيفك أنت!! كيف حال قلبك!! والسجائر!! ما أخبار الدُخان معك؟ أما زلت تنفثه كقطار؟! ضحكت مني الذاكرة وقالت اتفقنا على المكابرة، فعلاً هي مكابرة أن أحبس دموعي أمام سائق يتلصص عليّ من خلال مرآته الصغيرة وأحسَ أن الأغنية أصابتني بمغصٍ في قلبي وعكرت لون عيني، بعدك تغيرت عيناي بدت إحداهما أصغر ولونهما أغمق.. أحياناً نشعر أننا بحاجة إلى أن نرتدي ملابس سوداء تشعر بالرضى وأنت تعزي ذاتك بلونٍ ما، ولكن إن كان جوفك في حِداد فاق سواده عينك وكَحّلها بم يمكنك أن تعزيه؟!، الأمر كأنك تُعزي في بكاء إن كان هو نفسه عزاء بم قد تأتيه مُعزياً، ربما يحتاج أن تهب له عينين جديدتين غير اللتين أتلفهما، أنا لا أملك عزاءً يا آدم ولا أملك شيئاً، أوقف السائق السيارة حيث أمرته وأخرجت من محفظتي أجرته فطلب أن أغيرها لفئةٍ قليلة لأنه لا يملك فكة يُرجعها لي فقلت له أن يحتفظ بالباقي وتركته وذهبت، بعد أربع خطوات أو أكثر سمعت من يقول يا آنسة فالتفت ووجدته هو نفسه، استغربت

Telegram: electronic_library

مناداته لي وظننت أني نسيت شيئاً في سيارته مد لي يده وقال: «أنا لا أحتاج إليها وأعتقد أنك كذلك قدميها كأجرة للنسيان» وابتسم في وجهي وانطلق بعيداً؛ أعطاني صورتك التي أضعها في محفظتي دائماً والتي أخفيها جيداً حتى لا يراها أحد، وأنا أفتحها أمامه سقطت هذه المرة بين النقود وقدمتها لسائق التاكسي بدلاً من النسيان، كأنك تريد أن تخرج مني بكل الطرق حتى صورتك هربت من مخبئها وتسللت بين النقود، كأن هذا السائق كان يستمع إلى صوت ذاكرتي لا إلى المذياع الذي أتعبته أخباره وهو يبحث عن شيء ينسيه همه هو الآخر، لم يكن يبدو عليه سائق تكسي بالرغم من سيارة الأجرة التي يقودها، حتماً إنه حاصل على شهادة جامعية، مظهره يدل على ذلك وجملته التي أربكتني لاحقاً جزمت لي، فهو قرأ وجهي وملامحي حتى أثبتَ أنت له ما قرأ فنحن في وطن يهب للجامعيين وأصحاب الدراسات العليا سيارة صفراء كتب عليها تكسي بعد أن يغسل يده تماماً مما تعلم ويُدرك أن العلم لا ينفع هنا والمقود أنفع له من شهادته الجدارية.

لم أتصل بك على مدى يومين، كنت لا أملك شيئاً لأقوله ومتعبة جدّاً لدرجة أني لا أستطيع الدفاع عن نفسي أمامك وأعرف أني لن أتحمل لهجتك معي ومفرداتك التي ستحاول قدر الإمكان جرحي، أخذت إجازة من العمل مدة ثلاثة أيام وكنت طوال اليوم

Telegram: electronic_library

في السرير أنهض للحمام وشرب الماء وآكل شيئاً بسيطاً عندما تصل معدتي إلى آخرها حتى أشعر بألمها، تدخل أمي بين الحين والآخر تتفقدني وتطلب مني النهوض من الفراش لأن حالتي ستسوء أكثر وسأشعر بتعب مضاعف إن بقيت فيه بعد أن أخبرتها أني في إجازة بسبب تعب العمل وضغوطه، في اليوم الثالث اتصلت بي رهف صباحاً وطلبت مني أن أجهز عند الساعة الخامسة مساءً لأنها ستمر لاصطحابي، أخبرتها أني لست بحالة جيدة للخروج قالت لي بنبرة حازمة:

- اليوم حفلة بالمسرح الوطني وحبيب القلب راح يعزف بيها.

ضحكت وقلت لها:

- أي قلبٍ هذا الذي لديه حبيب؟! لا أشعر أن لدي قلباً بل خِرقة.

- حضري نفسج عند الساعة الخامسة.

- لن أذهب رهف.

- عليا لقد تكلمت معه البارحة كثيراً وشرحت له الأمر كله وبدا لي متفهماً وبقي هادئاً صامتاً.

كأنه يعرف أن كلامي صحيح ولكن لا يريد أن يعترف، هو

Telegram: electronic_library

يتوقع حضورك وبعد الحفلة اتفقنا أنا وهو أن نخرج جميعاً للعشاء.

- سامر سيحضر؟

- طبعاً، هل تخرجين أنتِ مع حبيبكِ وأنا أجلس بيد فارغة!!

ضحكنا وأغلقنا الهاتف بعد أن أخبرتها أني سأكون جاهزة عند الخامسة، شعرت بقليل من الراحة ولكن ما زال القلق موجوداً لا أعرف ما الذي فهمته من كلام رهف معك ولا أعرف حقّاً إن اقتنعت بكلامها كما قالت أم أنك تحاشيت الدخول معها في نقاش فبقيت صامتاً وجعلتها تعتقد أنها على حق في نظرك، كنت أشتاق إليك حقّاً وأحتاج أن أرى ذلك الحب في عينيك اللتين أحرقتا عودي قبل ثلاثة أيام بنار غيرتك المشتعلة.

أتت الساعة الخامسة على بطءٍ بغيض، بل إن اليوم كله جاء على مهل كتكاسل الطلاب في صباحات الشتاء الباردة.. كنت بكامل أنوثتي، أرتدي فستاناً أسود راهنت نفسي أنه سيعجبك جدّاً بعيداً عن سواده الذي ستحبه، كان هو بفصال جميل بأكمامه الطويلة وفتحة صدره الواسعه نوعاً ما وبساطته التي قرر أن ينتهي بها فوق ركبتي بأصابع قليلة مع حذاء ذي كعبٍ متوسط لونه أسود لامع لم أكن أريد أن أبدو قوية فتجنبت الكعب العالي، فكل النساء يبدينَ جبارات بزيادة عدد سنتيمترات أحذيتهن يُخفين فيها

Telegram: electronic_library

أقداماً هشة تكسرها أي عثرة حبٍ عابث وأنا كنت يومها هشة ولا أريد ادعاء العكس، جاءت رهف أخيراً، بضجيجها المعتاد عندما تكون هي من تأخرت وعليّ أنا أن أحتمل تزمير سيارتها المتواصل حتى كدت أقع وأنا أركض إليها مسرعة، فهي لن ترفع يدها عن منبه السيارة حتى تراني أمامها، فتحت باب السيارة وصعدت نظرت إليها نظرة حادة وقلت لها:

- متى تنضجين!!

ضحكت وقالت:

- عندما أتزوج، والظاهر أني لن أنضج أبداً.

نتمتع نحن العراقيين بصورة عامة بروح النكتة على مأساتنا، غالباً ما نسخر من أوجاعنا ونجعلها سبباً للضحك، فالذي نبكي عليه في المساء نستعمله في صباح اليوم التالي كطرفة، عرفت من جملة رهف أنها كانت تتكلم مع سامر في مساء يوم أمس عن هذا الموضوع؛ صحيح أن لا موضوع يشغلهما غيره ولكن جملتها هذه تدل على أنها فكرت كثيراً وتحدثت به كثيراً حتى أنها ربطت نضجها بزواجها الذي تراه هي وسامر أصبح شبه مستحيل، وصلنا إلى المسرح بوقت مبكر قليلاً، لم يكن هناك الكثير من الناس بعد كنت أستطيع أن أدخل إلى غرفة العازفين بحكم أني منهم وأني أعرفهم جميعاً ولكني فضلت أن لا أراك حتى نهاية الحفلة، كنت

Telegram: electronic_library

أتجنب لقاءك وأؤجله حتى آخر لحظة ولم أكن أريدك أن تتوتر قبل خروجك للمسرح رغم أني كنت دائماً إلى جانبك في كل مرة تعزف فيها هنا داخل العراق، وعندما كنت تحضر حفلات خارجه كنت أنا آخر شخص تتحدث معه قبل أن تخرج للعزف، كنت تقول إني مُلهمتك وأوتار عودك خرساء بدوني، يسمعها الجميع إلّا أنت. كُنت أهب لك حواسك جميعاً ولا أعرف الآن أي الحواس تنقصك، لا أعرف إن كنت تنتظر دخولي إليك وأنت تستعد أم أن آخر ما تتمناه الآن هو أن تراني أمامك، دخل سامر وهو ينظر إلى رهف بابتسامة جميلة تملأ وجهه وصُدمت عندما وجدته يحمل وردة بيده، كانت هي الأخرى تقف إلى جانبي ولكني شعرت أنها سيُغمى عليها من الخجل والحب، تقدم نحونا وأعطاها الوردة وقال لها:

- أحبكِ.

أول مرة أسمعه يقولها لها رغم معرفتي القديمة بهما ولكنه كان متحفظاً دائماً حتى أني كنت أقول لها:

- لا أتخيل شكله وهو يقولها لكِ.

كانت تضحك وتقول:

- ولا أنا.

وعندما أسألها عن السبب تجيب أنه لا يقولها لها إلّا عبر

Telegram: electronic_library

الهاتف، لا أعرف حقّاً إن كان خجلاً أو أن طبعه هو هذا، كنت سعيدة جدّاً لأجلهما أسعدني شكلهما وهما يقفان أمامي ولا يريان أحداً سواهما، حاولت أن أعطيهما بعض الخصوصية فابتعدت قليلاً فالتفت إليّ سامر وهو مبتسم وقال لي «كيف حالك»؟ ثم سألنا لِمَ لا ندخل فالحفلة ستبدأ، أول مرة أحضر وأنا أتطلع إلى ما بعد هذه الحفلة، كل مرة أستمتع بالدقائق ما قبل البدء ولكن هذه المرة لم تشغلني الموسيقى وحبي لها كان مُهملاً جدّاً، حَضرتُ فقط لأرى قمري فالليالي المظلمة طالت كثيراً، رُفعت الستارة ولم يكن خلفها سوى كرسي واحد عرفت أن الحفلة ستبدأ بعزف منفرد لكني لم أكن أتوقع أن تبدأ به، دخل بقامته الطويلة ممسكاً بعوده شعرت وقتها أني أراه للمرة الأولى، كان يرتدي قميصاً أسود أهمل زره الأول ونسيه مفتوحاً فأظهر الكثير من الفتنة، وبنطلوناً أسود. كانت لحيته مُهملة كأزرار القميص لكنها كانت أشد فتنة، كل شيء فيك يومها كان مُرتخياً ومنسدلاً بطريقة ساحرة وأنت ما زلت تلبس ذلك الخاتم في يدك اليمنى وهذا ما جعلني أتنفس من جديد، شعرت بالطمأنينة فأنا ما زلت في حياتك ولم تقصني منها، أحب هذه الأمور الصغيرة أحب الدلالات المبهمة، كأن يخبرك خاتم صغير أن هذه المرأة هي مُلكٌ لرجل واحد ولا يمكن لغيره امتلاكها، رجل لن تستدل

Telegram: electronic_library

عليه بشي آخر غير خاتمه الذي وضعه في إصبعها فجعل منك عاجزاً حتى عن التفكير فيها، غالباً ما يشدني شكل اليد فأركز كثيراً على أيدي الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرف عنهم شيئاً، أشعر أن اليد تخبرني الكثير عن صاحبها كالعين تماماً، فالعين نافذة الروح وهي شباك صغير يجعلك تعشق روحاً أو تكرهها، لذلك نحب بعض العيون دون غيرها وإن كانت على قدر قليل من الجمال، واليد نافذة الجسد ليس شكلها فقط من يحدد هذا، ولكن ملمسها أيضاً، أذكر مرة عندما لمست يد زميلتي في العمل تلك الفتاة الشقراء المتبلدة المشاعر الباردة كما يصفها الجميع، كان شكلها وتصرفاتها تجزم تماماً كمية البرود التي تمتلكها، ولكني ذهلت عندما أمسكت يدها ونحن نضحك على أمر ما، لم تكن يدها باردة البتة ولم تكن تدل على امرأة باردة أو متبلدة قط، كانت يدها حنونة ودافئة وفي كل مرة أمسك فيها يدها أو تمسك هي يدي عندما تريد أن تكلمني بموضوع لا يسمعه غيرنا كنت أشعر أنها إنسانة قادرة أن تحتضنك تماماً من خلال يدها، كانت يدها كأنها حضن، فيها من الدفء ما يهبه لك حضن شخص حنون. وبعد أن توطدت علاقتي بها عرفت أن فعلاً ما وصلني عن طريق يدها كان صحيحاً، هي ليست من دون مشاعر بل كانت كتلة من مشاعر مدفونة تحت نظرات جامدة وعينين زرقاوين ومن

Telegram: electronic_library

يومها وأنا أجزم بحكمي على الناس عن طريق ما تخبرني به أيديهم، كان أول شيء أنظر إليه في الإنسان الذي أمامي عيناه ومن ثم يده تخبرني أحياناً بما لا تشي به العيون، من النساء من تعرف أنها قاسية من يدها، من شكل أظفارها ومن لون طلائها ومنهن من هي ساذجة وأخرى ذكية وهناك المغرورة، أما الرجال فكنت أحب أيديهم بالخواتم سواء كان الخاتم يميناً أو يساراً، فأبدأ بتخيل شكل امرأته أو بالأصح شكله هو معها، هذه القبضة القوية الضخمة المليئة بالشعر كيف تكون عندما تلمس خصلات شعرها، هل يمكن أن يكون يوماً قد آذتها يداه، على قدر ما تكون يد الرجل حنونة ومصدراً للأمان بقوتها، تكون أيضاً مصدراً للخوف إن غسلت عنها الرجولة ومارست دورها الذكوري بفحولة مفرطة، وبعيداً عن كل هذا كنت أعشق يديك، كانتا كحمامتي سلام تعزفان للحرية ولي، بعد ساعتين انتهت الحفلة بكل فقراتها وبدأت حركة عشوائية في المكان ما بين مجاميع تقف هنا وهناك ومن يريد الخروج من المكان بالإضافة إلى العازفين الذين كانوا على الخشبة يتحدثون مع من صعد إليهم للتحية أو لأخذ صورة تذكارية أو للتعارف؛ وكنت أنت تقف في آخر خشبة المسرح تهم مع عودك بالتوجه إلينا بعد أن لمحتني بنظرة سريعة لم تدقق فيها، لكنك عرفت أين أقف أنا ورهف وسامر، رن هاتفي

Telegram: electronic_library

وكانت أمي، سألت إن كنت بخير وكيف كانت الحفلة رغم أنها إنسانة بعيدة كل البعد عن الموسيقى أو الحفلات من هذا النوع، ولكنها كانت تحاول أن تشعرني بوجودها معي لأنها تعي تماماً الفراغ الذي يملأني بالإضافة إلى عدة توصيات أن أعود مبكرة وأن أخبر رهفاً أن لا تقود كعادتها كالمجنونة لأنها أوصتني أن أعود إلى البيت بكامل أعضائي؛ بعد أن أقفلت الخط معها أخبرت رهف بما قالته أمي وضحكنا من كلامها؛ لكن سامراً قاطعنا وسأل بصوت صارم: أما زلت تقودين بسرعة؟! ضحكت رهف وقالت: من أنا؟! لا طبعاً هذه عليا، فجارانا في ضحكنا فرهف لن تكف يوماً عن قيادتها المتهورة ولن ينفع كلام أمي أو سامر أو حتى كلامي في تغيير هذه العادة، حدت بنظري تجاهك لأجدك تقف مع فتاة لا أعرفها ذات شعر قصير أشقر بفعل الصبغة وفستان يبين الكثير منها، كانت تحدثك وتتقرب إليك أكثر وأكثر حتى أني شعرت أنها ستقبلك في نهاية كلامها، وكنت أنت تنظر إليها تارة وتارة أخرى تنظر هنا أو هناك حتى وضعت يدها على صدرك وأمسكت بطرف ياقة قميصك، جننت هُنا ولا أعرف ما أفعل من هي لتتصرف معك هكذا، وكيف تسمح لها أنت بهذه المساحة من الحرية؟ ابتسمتَ في وجهها ويبدو أنك قلت لها إن عليك الذهاب

Telegram: electronic_library

لأن أحدهم ينتظرك، فقد أشرت بيدك تجاهنا ونظرت إليّ رهف وأنا أكاد أنفجر من الغضب وسألتني:

- ما بكِ؟

- أنظري!!

- من هذه التي مع آدم؟

- لا أعرف، أين سامر أريد أن أعود إلى البيت الآن؟

- عليا اهدئي تعرفين أن كثيراً من الفتيات يتحرّشن به ولكنه لكِ أنتِ فهو لن يُعيد تربيتهن من جديد وغير مسؤول عن تصرفات غيره، وسامر ذهب ليحضر السيارة حتى ننطلق للعشاء، أرجوكِ لا تصعّدي الموقف هو غاضب منكِ الآن انسي أمر هذه الحمقاء.

كانت رهف وقتها هي الحمقاء فعلاً هو الذي كان غاضباً مني لأن عادلاً أوصلني، لكن لم تصل يده إلى ياقة قميصي ورغم هذا هو أقام الدنيا ولم يقعدها، فما حالي أنا الآن وأنا أرى هذه التي تتودد إليه أمام الجميع ولا تخشى أحداً، ولو كانا وحدهما ما الذي كانت ستفعله؟ وكيف لم تخشَ ردة فلعه؟! أم أن الرجل دائماً هو المستقبل لكل شيء والمرأة هي الواهب وهي الرافض وهي من تقرر متى تعطي ومتى تمتنع، أما هو فكل ما يأتيه منها فرصة لا يُمكن إضاعتها.

Telegram: electronic_library

كنت أعرف أنك لست كذلك ولكن ليس للغيرة منطق يا حبيبي كما هو حال غيرتك التي قتلتنا يوماً...

تركتها وتوجهت نحونا لكنها بقيت تتبع خطواتك من بعيد بنظراتها التي تريد التهامك، قالت لي رهف وأنت تتوجه نحونا: حاولي أن تبتسمي قليلاً، تجاهلتها ولم أجبها، كنت لا تزال غاضباً مني ولكن نظراتك التي أتيت بها كانت خائفة مني بسبب هذه الفتاة التي رأيتها وهي تقترب منك وأنت لا تمنعها إلّا بابتسامة مُجاملة وأحياناً خجولة، أعرف أنك تتعمد مجاراتها أمامي لتشعرني بالغيرة التي شعرت أنت بها، لتوجعني كما أوجعتك، ولكن وجعي لك لم يكن متعمداً كما تفعل أنت الآن، ألقيت التحية على رهف، أما أنا فاكتفيت بالنظر إليّ، وبعد أن كانت نظراتي خائفة وحائرة ولا تعرف ماذا تفعل جاء موقفك الأخير هذا ليقويها وليجعلني أنظر إليك بحدة كنت دائماً تلاحظها وتحبها إن فعلت شيئاً أغضبني فأرمقك بنظرة تجعلك تضحك وتقول لي: أتعمد إغضابك فقط لأجل هذه النظرة، حتى أنك نظرت إليّ مباشرة من دون كلام كأنك كنت تبحث عن هذه النظرة وسرعان ما وجدتها، نسيتُ أنا أمر خلافنا تماماً ولم يبقَ في بالي سوى ما رأيت قبل قليل حتى بدأت أنا بكسر صمت النظرات:

- من هذه؟!

Telegram: electronic_library

- من!!

- تعرف من أقصد.

- إحداهن.

- ومن هنَّ لتكون هذه إحداهن.

- ألا تلاحظين أنك تعكسين الأدوار؟

- ماذا تريد منك هذه الفتاة يا آدم؟!

- أضاجعها.

صدمتني كلمتك كانت هذه أول مرة تقول فيها كلمات من هذا النوع أمامي حتى أني التفت لأتاكد أن رهفاً على بعد كافٍ لا يسمح لها بسماع ماقلت .

- منذ متى وأنت تتحدث معي بهذه الطريقة.

- أتهمك الطريقة أكثر مما يهمك ما تريده هي مني؟!

- لأنك تسخر ولا تقول الحقيقة.

- من قال إن هذه ليست الحقيقة؟!

اكتملت صدمتي هنا تماماً، هل فعلاً كانت تعرض هذه الفتاة عليك نفسها عندما أمسكت بقميصك؟! وكيف قالتها لك كيف أخبرتك برغبتها بك؟! لم أكن أملك الجرأة لأسألك كيف قالت لك الأمر وهل كان صريحاً أم أنت من استنتجته.

- منذ متى وأنت تعرف هذه النوعية من النساء؟!

Telegram: electronic_library

- هي ليست كما تظنين، هي معجبة وأبدت إعجابها بشدة هذه المرة.

- هذه المرة!! وهل هناك مرات سابقة؟

- الأمر لا يعنيكِ.

- لا يعنيني!!

- اخفضي صوتك نحن في مكان عام، ولا تعتقدي أني تجاوزت ما فعلت.

بقيت صامتة ولا أعرف بما أرد، كنت يومها قد وضعتني في زاوية ضيقة لا أعرف سبيلاً للخروج منها ولا يحق لي أن أنفجر غضباً وغيرةً، لأنك أنت فقط من غضب مني أولاً، كان لك المتسع أن تثور وتفجر كل ما في داخلك، أما أنا فلا يحق لي أن أفعل شيئاً لأني حتى الآن في نظرك متهمة لا يحق لها أن تُطالب بأي حق بالإضافة إلى أن الغيرة كانت حكراً عليك، كانت في قاموسك فعلاً ذكوريّاً بحتاً رغم تائها التي تكسبها الأنوثة فالنساء فقط من يُمارس عليهن هذا الفعل، ولكن هذا الفعل نفسه إن مارسته امرأة يكون جنوناً وشيئاً لا مبرر له، كنت ترى أن الرجل الوفي لا يحتاج إلى الغيرة ولا يحتاج إلى المحاسبة لأنه لو أراد أن يخون سيفعل ولو بعينيه، ورغم هذا فأنا أعرف أنك تحب غيرتي عليك وتحب اختلافها أيضاً، لأنها لم تكن عادية ولم أغر يوماً من

Telegram: electronic_library

هالة نسائك بقدر غيرتي من أشيائك، وعندما كنت أجادلك إن كان الرجل الوفي لا يحتاج إلى الغيرة لمَ المرأة الوفية لا تكون مثله؟ كنت تُجيب ببرود:

-لأنها نوتة موسيقية عندما تسير هي من تتحرش بالأوتار من حولها، هي من تستفز فيهم روح الحياة فيلهثون خلفها.

- وهل هذا ذنبها؟!

-أبـداً، للنوتات حرية القفز فوق الأوتـار حرية البقاء والانتحار.

- لمَ الغيرة إذن!!

أجبتني بمكر:

- الوتر الذكي من يقيد ساق هذه النوتة ويمنعها من الفرار.

وضحكت بعدها بطريقة طفولية جـدّاً، كأنك كنت تريد استفزازي لا أكثر وتحريك نزعتي الأنثوية في الانتفاض عليك وطلب المساواة في التعامل بين الرجل والمرأة، لكني أجبتك ببرود لم يكن موجوداً في الحقيقة لأني كنت مغتاظة من كلامك:

- الوتر الذكي من يجعلها تبقى دون قيود.

- أكيد ولكن الحرص واجب خصوصاً إن كانت هذه النوتة ذات ساق جميلة كساقك.

وعدت للضحك مرة أخرى، وهذه المرة ضحكت معك

Telegram: electronic_library

فأنت دائماً هكذا تجر النقاش من نقاش جدي وحازم إلى جمل ساخرة تطفئ بها غضبي ضد تعنصرك الذكوري أحياناً، كنتُ أعرف أنك رجل استثنائي وكان استثناؤك يُتعب أداة الاستثناء دائماً، كأن الـ«إلّا» تعرف أن لا أحد إلّا إياك سيوجعها بالقدر الكافي للسكون، لا تحوي اللغة العربية استثناءً ساكناً، غالباً ما تختص عربيتنا بالاستثناء المُعربد الذي يثرثر كثيراً ويقول: ها أنا ذا، كحُكامنا مثلاً نستثنيهم لدور القادة فيبعثرون الوطن فوق رؤوسنا كحبات قلادة، لكن معك، هذا الاستثناء ساكن لايتباهى بنفسه لأنه يعرف ما سوف يأتي في البقية، يحفظ النص ويكتفي بالتفرج فأمارس أنا بدوري دور القوية وأنت الاستثناء بكل ما يحمل من هوية، فتأتي لتبعثر لاحقاً إيماني بك، وكيف لمؤمنٍ بشيء ما أن ينهار صنم إيمانه فجأة ويعرف أن معتقداته كلها كانت كومة حجارة؟!! غالباً ما أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي رصنا في سيارة واحدة لأول مرة وأتساءل هل من هنا بدأ حبنا؟ أم أنه بدأ قبل أن يرى كل منا وجه الآخر؟! اكتفيت أنا بسماعك وأنت بشمّي وأشعلنا فتيل الحب بحواس أخرى بعيدة عن العين، إن كان قد بدأ وأنت تقلني في يومٍ دامٍ هذا يعني أن الوطن يحشر أنفه بكل شيء حتى في مشاعرنا، يعني أن الوطن هو وحده المسؤول عن اقتراف الحماقات، هو المتهور وهو العابث، لا أعرف حقّاً لِمَ

Telegram: electronic_library

وطني فضولي إلى هذه الدرجة ومتطفل، كان الأحرى به أن يهتم بأموره السياسية وقصة الكراسي معه التي لا يعرف حتى الآن هل هي التي تفسد من يجلس عليها أم من يجلس عليها هو الذي يُفسدها، لِمَ أفتعل قصة حبٍ كقصتنا في يوم تلبس بغداد الأسود حداداً والأحمر دماً ولا مجال فيها لأنفاس حُبٍ فتي وقلب صبي لم تسلك ساقه أرض الحب من قبل حتى أطمعه الحب فيها وحرضه الوطن وخسرت أنا هذا الصبي؟!.

هناك نصوص نتجنب أن نكتبها فمعاملتها بالكتابة كمن يضغط بإبهامه على جرحٍ عتيق لم يلتئم بعد، فتكلفه هذه الضغطه الكثير من الوجع والمستلزمات الطبية؛ أشعر أحياناً وأنا أكتب أن القلم يبدأ بإيلام الأوراق حتى تنتهي وخزاته إليّ وأشعر بها وأبدأ بالتنصل من هذا القلم للراحة وأخذ دور القارئ قليلاً، كيف يمكن أن تصله هذه الوخزات وكيف يمكنني أن أبوح بأشياء لغرباء لن يعرفوا حتى انفعالي بالكتابة وشكل حروفي، كل ما سوف يصلهم تكفلت به عدة ماكنات لن تذرف دمعة واحدة وإن مرت تحتها أكثر حروفي وجعاً، ولكن كما يقول محمد حسن علوان في سقف الكفاية: «ليست الكتابة مشروعاً انعزالياً أبداً. إنها لغة تواصل وهذا قدر اللغات إلّا أني عندما انفعل تماماً مثل أعواد الكبريت التي تحمل موتها فوق رؤوسها لا أراقب أحداً وأكتب كما أريد لا كما

Telegram: electronic_library

يُراد لأني أعرف أن ما سأحبسه بين جنبي لأتوارى من أحدهم سيمزق أنحائي يوماً آخر»، وأنا امرأةٌ تشظت بما يكفي ولم تعد تهتم بما يُراد منها فأعود إلى الأوراق قوية أبوح بكل ما أشعر لا بكل ما يجب أن أشعر، فالكتابة لغة تواصل ونحن أمة فقدت التواصل واعتزلت الكتابة وهذا هو قدر اللغات يأتي مشابهاً لقدري معك، فالقدر فعلٌ مفاجئ لا تستطيع استدراكه ولا إدراكه، تسمع صوت وقوعه فقط ليمنحك لاحقاً وقتاً طويلاً من الصمت لتستوعبه.

أتوارى كثيراً خلف الصمت فهو المنفذ الوحيد إلى الدهشة بعد أن تفتح فمك مصدوماً تغلقه بهدوء تام وأنت تبتلع الصمت سُمّاً، وبعد هذا الصمت الطويل المذهول بنا نفضت الغبار عن أوراقي ولمعت رؤوس الأقلام، فهنا صمتٌ يستحقُ أن يُكتب وذهول يُصفق له من يمر يوماً فوق هذه الأوراق.

أتراك ستقرأ ما أكتب هنا؟! هل سيقع كتابي بين يديك صدفة وهل سيغريك عنوانه أم اسمي تحته؟ سأحاول أن يكون اسمي صغيراً لا تلحظه وأنت تقفز بعينيك فوق كتب الباعة الجوالين فأنت آخر من أحتاج إليه ليقرأني، لا أريد أن تصطف نسخي المكررة في رفوف المكتبات تلك التي يُلمع زُجاجها يوميّاً فتغريك لشراء ترهات في كُتبٍ ضخمة ذات غلاف مُكلف

Telegram: electronic_library

وحروف ذهبية، فأجمل الكتب تلك التي تتسول القراء على الرصيف وأروع ما اقتنيت كان يبيت على الأرصفة حتى أني لا أذكر أني اشتريت كتاباً من مكتبة مرتبة، وتلك الكتب التي يعج بها معرض الكتاب سنوياً لا تستحق احترام الطاولات لها أو عناء الرفوف، أحياناً كثيرة تنفذ الأحرف بطريقة حزينة ويحني القلم رأسه وأضم أنا أصابعي إلى كفي برفق كأني أحتضنها وأواسيها أو أشجعها، فهي وحدها من تدرك سباق الحروف على ورقة ووحدها من تسمع للأقلام أنيناً، لا أعرف من منا سيسبق الآخر بالكتابة لكني متيقنة تماماً أنك كتبتني أو ستكتبني حتماً يوماً.

كما قال لي عادل مرة: «عندما نكتب أحداً أو يكتبنا إما أن نسقط من كلينا وإما نمتلئ بنا». وأنا امتلأت بك حتى قررت أن تسقط مني حروفاً، أن أفرغك أحباراً وأوراقاً ونقاطاً ولاحقاً علامات استفهام وتعجب لمن يمر فوق هذه السطور فيزرعها عندما يجد نصّاً لم يضرب له إحساساً أو لم يلمس له روحاً فسيسأل: لِمَ أنا كنت هكذا معك؟ لِمَ أحببتك حد هذا الوجع؟!.

ذهبت أنت وسامر بسيارته وأنا ورهف بسيارتها بعد أن اتفقنا أو اتفقتم على المكان الذي سنلتقي فيه؛ توقفت رهف وقالت هيا انزلي لم تكن لي رغبة أن أكون في أي مكان سوى سريري، كنت أشعر أن صدري يضيق والهواء ينقطع فجأة ليعود شحيحاً وينقطع

Telegram: electronic_library

من جديد، بقيت ساكنة لم أتحرك ولم أجب، رهف أطفأت السيارة ونظرت إليّ:

- عليا انظري إليّ، آدم رجل مختلف وأنت تعرفين هذا وأنت من قلت عنه كذلك غير مرة، هو يغار ومجنون ولا يسمعك ولكنه يحبك ووفي لك.

- أشعر أن الهواء ينفذ من صدري.

- انزلي الآن وسيعيده هو لك وربما يجري لك تنفساً صناعياً.

أضحكتني بكلامها وحاولت أن أتماسك وقلت في نفسي ليست أول مرة نزعل فيها ولكن في الحقيقة هي أول مرة تغيظني بامرأة ولست أي امرأة، امرأة تمادت جدّاً معك وأمامي، ولم أكن أريد أن أفسد اليوم على رهف وسامر إذ كانا منسجمين جدّاً كطائري حب ولم أرهما هكذا من قبل، أو لأني وقتها أصبحت أرى كل اثنين سعيدين إلّا نحن، دخلنا المطعم وكنت تجلس إلى طاولة بعيدة في زاوية جميلة، بدأت عينك تلمع وأنت تتأملني وأنا أدخل وبدأت ترسم ابتسامة خبيثة أعرف ما خلفها وأعرف جيداً دوائر الأفكار التي ارتسمت فوق رأسك، تجاهلتك وبقيت أتأمل المطعم وأنا أتقدم إلى الطاولة حيث كنت تجلس أنت وسامر وشغلت نفسي بحديث مع رهف لا أذكر ما هو، في عزّ الاشتياق

Telegram: electronic_library

إليك وشكلك الذي كان يقطر وسامة جرحتني وأنت تحاول أن تثأر لنفسك ولا أعرف لم بقي وقع ما حدث كبيراً هكذا في داخلي؟ فمن المعتاد أن أكون طفلة معك ما إن تبتسم لي حتى أغفر لك ما فعلت وما لم تفعل إلّا هذه المرة، شعرت بنقطة سوداء ختمت على قلبي تجاهك فأطفأت هذا الشوق قليلاً وهدأ قلبي وهو ينبض كأنه قلب عاشقٍ مريض لا يستطيع أن يفرط في النبض كعادته أو يبذره حتى لا تزهد النبضات بدورها به لاحقاً حد الاستغناء، سحبت لي الكرسي المجاور لك دون أن تنهض فجلست دون أن أنظر إليك، كنت قريباً إلى درجة أن أشم عطرك الذي كأنك أخذت حماماً به أو ربما هو من تحرش بي بقوة طالما أحببته عليك، كان يليق بك حد الشبه كأنكما شخصٌ واحد، أحياناً أشعر أنه جزءٌ منك كلون عينيك أو شكل ذقنك دائماً كان الـ (Cartier) يزيدك لذة وإغراء، حاولت أن لا أركز معه ولا أنظر إليك لا أريد أن أظهر ضعفي أمامك ولو بنظرة، جاء النادل مرحباً بنا بابتسامة وسألنا إن كنا قد قررنا ماذا سنطلب، قاطعه آدم قائلاً:

- سامر أطلب لي ولعليا على ذوقك.

استغربت كلامه لِمَ لا نطلب نحن؟ لِمَ سامر هو الذي يطعمنا حسب مزاجه، ثم أضاف:

- أعطني مفاتيح سيارتك لقد نسيت علبة السجائر فيها.

Telegram: electronic_library

نهض بعد أن أخذ المفاتيح وقال لي:

- تعالي.

- إلى أين؟!

- نحضر علبة سجائري.

لم أكن أريد الذهاب معه بالإضافة، أني استغربت طلبه، ما حاجته إليّ وهو ذاهب لإحضار سجائره، فكرت أنه يريد أن يتشاجر معي ولكن بعيداً عن أعين رهف وسامر فطالما أحب الخصوصية في كل شيء حتى في خصامنا، قلت له:

- الطريق طويل حتى السيارة وأنا أنتعل كعباً عالياً يؤلم قدمي.

أخذ يدي بيده وكأنه لم يسمعني ونهضت معه دون أن أضيف كلمة؛ خرجنا من المطعم وتوجهنا إلى المرأب حيث السيارة وهو ما زال صامتاً ولم يتفوه بكلمة واحدة، وضع المفتاح في باب السائق وفتحها، كنت أقف في جواره ولكني أنظر بعيداً حتى شعرت بيده تمسك بذراعي وتسحبني، ضمني إليه ويداه تلتفان حولي التصقت به تماماً وكأني أول مرة أتعرف إليه، فمعرفتنا بالأشخاص من حولنا تقاس حسب المسافة التي تفصل بيننا ونتعرف إليهم بطريقة أخرى إن طرأ أي تغيير على هذه الستيمترات التي تقرر ما نكون عليه معاً، ضمني إليه وكأنه لم

Telegram: electronic_library

يفعل من قبل وهمس في أذني «لِمَ أحبك إلى هذا الحد؟»، لم أكن أملك جواباً لسؤاله ولا أعرف ما هذا الحد الذي يقصده، كنت وقتها كطفلة ضائعة وجدت أخيراً بيتها، دفنت رأسي في صدره وبدأ البكاء يثرثر وحده ضمني بقوة وكأنه يُطالبني ببكاءٍ أكثر، يحب أن يسمع ثرثرة بكائي ويحتفظ هو بصمته، ابتعدت عنه قليلاً أمسك ذقني بأطراف أصابعه وهو يتأمل وجهي الذي لا أعرف ما حاله مع الدموع والمكياج وبقيت مغمضة العينين لا أريد أن أرى شيئاً كان يكفيني ما أشعر به وأنا بين ذراعيه قال:

- أحبك عليا.

فتحت عيني لأسمع هذه الكلمة وأقرأها في عينيه وكانت عيناه تلمعان وسط كل هذا الظلام وذلك الضوء القليل الذي يتلصص علينا.

كنت سأقول له وأنا أعشقك قبل أن يضع إصبعه على فمي ويقول:

- لا تكذبي.

- هل أنا كاذبة؟!

- لا تُحبينني.

- لو لم أكن كذلك لكنت سعيدة.

- وهل أنت تعيسة معي؟!

Telegram: electronic_library

- بل كاذبة..!

و قبل أن أكمل سرق شفتيّ مني ونسيت ما أردت قوله ونسيت من أنا وذبت بين ذراعيه كقطعة ثلجٍ جربت أن تُقبل الشمس، قرأت مرة مقولة تقول: «لا تحبي رجلاً يفسد كحل عينيكِ بل أحبي من يُفسد أحمر شفتيكِ».

وأنا أملك رجلاً يُجسد إفساد كل شيء مرةً كُحلي وأخرى أحمر شفتي وأخيراً قلبي، كانت قبلتي الأولى ويومها تعرفت إلى شفتيّ بطريقة جديدة عندما انعدمت المسافة بينها وبين إحساسي حتى أصبحا شيئاً واحداً، لم أفعل شيئاً سوى أن تركتهما له فعاث بهما فساداً وأقام ثورة انتفض فيها إحساسي عليّ ليعلن ولاءه له.. حتى قُبلنا نَصفها بطرائق سياسية فساستنا يتدخلون حتى بين الشفاه.

***

في كل مرة أسافر بالطائرة وهي مرات معدودة كنت أجلس قرب النافذة أو تلك الفتحة الزجاجية الصغيرة التي تبقى دائماً وأبداً صغيرة، كنت أتساءل في داخلي لم يصرون على حجمها هذا؟ خصوصاً أن منظر الأرض وأنت معلق في السماء يكون رائعاً لكن ليس في كل مرة تستمتع وأنت تنظر إلى الأسفل تحتاج أحياناً أن تضيق هذه الفتحة أكثر لتُصغر لك حجم ما تركت أو ما

Telegram: electronic_library

خسرت، أؤمن تماماً أن أكثر الأماكن حُزناً هي المطارات رغم استثناء بعض المطارات العربية، حيث تكون جنة لمن يتعداها أحياناً وهو هارب من حطام الوطن الذي يريد أن يظفر به، لكن في النهاية ستسلمه هذه الصالة الواسعة التي طالما حلم بها وهو ممسك بتذكرة رحمة إلى علبة صغيرة تطير في الهواء لتتقيأه أخيراً، في أرضٍ غريبة لا تعرف لونه ولم تشم يوماً رائحته ولكن ترتسم على جبينه عربياً فرائحة النفط مُميزة. يهبط هناك وهو لا يُجيد أن يقرأ أي لافتة من تلك التي تعج بها شوارعها، غريب الجلد واللسان وغريب الدم.. هذه هي جنتك أيها المنفي، فحتماً يجب أن تكون علبتهُ التي طار بها بثقوبٍ صغيرة تسمح له بالتلصص على ما ترك خلفه، فلو كانت أكبر لربما عاد أو أصيب بالجنون، ليست كل الأوطان تُرى من نافذةٍ كبيرة بعضها يكون من الصحي لك أن تبني جداراً على تلك النافذة وتكتب عليه لا شيء يستحق المشاهدة وصحتي أهم، لكن السبب الحقيقي لهذه النوافذ الصغيرة أنها تُثقل وزن الطائرة لأنها مكونة من ثلاث طبقات من الزجاج لتتحمل الحرارة والضغط، وكان من الأفضل أن تكون الطائرة بلا نوافذ لتكون أخف وأكثر تحملاً، ولكن بدون هذه النوافذ لن يركبها أحد لأنها ستكون فعلاً كعلبة معدنية قد

Telegram: electronic_library

احتجزت فيها، فهذه النوافذ شر لا بد منه وللبعض خيرٌ لا خير فيه، قلت لي مرة بعد عودتك من رحلة إلى القاهرة.

«تساءلت وأنا أنظر إلى هذا الوطن من الأعلى: هل إن حفرنا أرضه نجد مياهاً جوفية أم نفطاً؟! لكن بعد قليل من النظر عرفت أننا سنجد دماً، برأيك هل تتغذى تربتنا أكثر من دجلة أم من أوردتنا!! كم شربت هذه الأرض دماً وكم ما زالت عطشى حتى باتت لا تثمر شيئاً ولا تعطي شيئاً فطبع الماء واهب وطبع الدم آخذ».

عرفت أن من مثلنا يجب أن لا يستعمل النوافذ البتة، وإن كان متجهاً نحو المستقبل فنوافذنا لا تطل إلّا على الماضي أو ربما الحاضر الذي لا يقبل أن نطويه بتاتاً، فها أنا الآن أتجه إلى مستقبل جديد وأنا ألصق عيني بهذا الشباك الصغير كأني أستجديه أو أتوسل إليه أن يحافظ على دقة المنظر ولا يطمس معالم قد ألفتها وأتذكرك وأتذكر ما قلته عن هذه الأرض التي تبدو صغيرة ومسالمة من الأعلى، فكل الأشياء تكون رائعة ونحن ننظر إليها من فوق، كأنت كنت تجلس محنيّاً على عودك، كنت رائعاً مثلها لكن من الأعلى.. من بعيد.

تولد الجبال عالية وتولد الوديان هكذا، لن تجد وادياً حديث النعمة أصبح جبلاً فجأة أو جبلاً خسر أسهمه ليصبح وادياً هذا هو

Telegram: electronic_library

احترام الطبيعة لذاتها، فلكلٍ مما تحوي قوته التي لا تضعه في مقارنة مع غيره ولكن تضعه في اختلاف كالجبال والوديان، فمهما ارتفعت الجبال لن تغلب الوديان عمقاً ومهما انحدرت الوديان لن تبلغ الجبال طولاً، لا نعرف نحن أبناء هذه الأرض أو أبناء الطبيعة حسب معتقد كل منا أن نأخذ احترامنا لذواتنا منها؛ لا نحترم اختلافاتنا ومميزاتنا وعيوبنا أو ربما هي واحدة، فمميزات شيء ما هي عيب بالنسبة إلى شيء آخر لا يملكها. لا أعرف لم لا نتجاور بذلك الهدوء والاحترام الذي يجلس فيه الجبل إلى جانب الوادي حتى أصبح ذكر أحدهما يجعل الآخر يخطر في البال فوراً، ربما يتبادل الجبل والوادي أطراف الحديث، يخبر كلٌ منهما الآخر بما يراه ويعجز الآخر عن رؤيته، فالطبيعة بذاتها تكمل بعضها بعضاً ونحن البشر كذلك، خُلقنا باختلافاتنا الكثيرة لنكمل بعضنا بعضاً لا لنسخر بعضنا من بعض جهراً ونتبادل الحسد خفية، وبعض الاختلاف ينجب حبّاً وإن كان مستحيلاً، كأن يعشق الطير سمكة أو يجتمع اثنان من طائفتين مختلفتين في بلدي إلى طاولة عشقٍ واحدة، هذا الوطن الذي شهد أغرب زيجات في كل الأديان ففي العائلة الكبيرة تجد كردياً تركمانياً عربياً مسلماً ومسيحياً أذكر تلك الصديقة التي كانت من أب شيعي من النجف وأم مسيحية من بغداد، وصديق والدي الذي سألت عن شكله المختلف تماماً عن

Telegram: electronic_library

المكان الذي ينتمي إليه وهو جنوب العراق حتى أخبرتني أمي أن والدته مسيحية. لم نكن نستغرب قط عندما نسمع هذه الأمور حتى وإن كان العكس، أن تتزوج مسلمة رجلاً من ديانة مختلفة عنها. كنت أفكر وأنا صغيرة أن الأمر حرام كما زرعه في عقولنا تجار الدين وأصحاب التفرقة الذين يتقاضون رواتبهم على هذا الأساس، ولكن بتقدم العمر واستخدام العقل قليلاً نجد أن الدين واحد والرب واحد مهما اختلفت الطقوس والأسماء والفرائض، فلن يدخل الجنة سوى الإنسان الجيد ولن يدخل النار إلّا المسيء وهذا أول درس حفظناه في درس المادة الإسلامية على بساطة المفردات التي كنا نرددها دون فهم، ولكن الأمر فعلاً، بهذه البساطة بعيداً عن تعقيد أصحاب اللحى الطويلة من كل الديانات حيث زرعت مفاهيم كثيرة خاطئة وخطيرة على وحدة وطن واحد، يوماً ما سألتني صديقتي المسيحية: «هل حرام في دينكم أن تأكلوا من طعامنا»؟ فابتسمت في وجهها وقلت: «من يسرق طعامك كل يوم إذن، ويشاركك فيه غيري»، وبعد صمت قالت: «البارحة عاد أخي منزعجاً لأن صديقه رفض دعوته للغداء عندنا وقال له: لا يجوز لنا أن نأكل في بيت غير مسلم»، لا أعرف حقّاً من أين أتى هذا الصبي بهذه الفكرة وعموماً، هي فكرة مزروعة في رأسه بسبب والديه طبعاً. أجبتها وأنا في دهشة من كلامها «هناك

Telegram: electronic_library

قصة لا أعرف مدى صحتها وأشعر بتحيزها ربما، ولكن يحكى عن النبي محمد ﷺ أنه كان يأكل في بيت اليهودي ويبات في بيت المسيحي، أي إن الاثنين يجوز أن تأكل معهما ولكنه استبعد اليهودي قليلاً لأنه لا يأمن أن يبات عنده، وتبقى هي قصصاً ولكن الذي أعرفه تماماً أن نبينا لم يرفع سيفاً في وجه مؤمن وأول من لجأ إليه كان ملك الحبشة الذي بعتنق الدين المسيحي». كلامي أسعدها قليلاً، لكن أعتقد بعد عدة سنوات حتى الوصول هنا إلى هذه السنة لن يزعج صديقتي هذه إن أكل صديق أخيها في بيتهم أو لا أو حلل طعامهم، فهو بات يحرم عليه من هم من دينه نفسه، لا أعرف إن كنا شعباً طائفياً أم لا، ولكن تَشَبُعنا في بعضنا وهذا الانصهار في الأنساب حتى تجد ملامح كل الأديان والأماكن المختلفة تجتمع في وجه طفل واحد يدل أننا لم نكن هكذا يوماً، حتى هذا الموت الذي يهجم علينا كل مساء ليخطف من كل بيت نجمة ومن كل شارعٍ قمراً لا ينظر إلى الهوية قبل أن يفعل فعلته، نموت معاً على رصيفٍ واحد بانفجارٍ واحد فتختلط دماؤنا على ذلك الرصيف الذي اختلطت فيه ألوان طباشيرنا المختلفة. نموت مصفوفين بعضنا قرب بعض، كأننا نلعب الغميضة قبل بضعة أعوام، تدور كل هذه الأفكار في رأسي وأتذكر أحداثاً كثيرة عندما نتحدث أنا ورهف عن أهلها وسامر، فهاتفها المجنون الذي

Telegram: electronic_library

اخترق نومي الثقيل بعد يوم متعب طويل من العمل والطريق المزدحم خلط الأفكار في رأسي.

منذ مدة ورهف منزعجة من أقارب لها يترددون إليهم بكثرة ولم تكن مرتاحة إلى تلميحات قريبتهم التي لديها شاب بعمر مقبل على الزواج، خصوصاً وأن هذا الشاب لا ينقصه شيء من وجهة نظر أهلها، فهي تجلس وتمتدح ابنها كثيراً وكذلك تبالغ في اهتمامها برهف حتى بدأت تعاملهم رهف بجفاء وتمنت أن يكون ما تفكر فيه مجرد وهم وأنهم ودودون لا أكثر، ولكنها في كل الأحوال أخذت موقفاً احترازياً من خلال معاملتها لهم بطريقة غير مُبالية بلطفهم المتزايد وتتجنب أن تخرج لهم أحياناً عندما يزورونهم بحجة أنها نائمة أو مريضة. كنت أسخر منها بعد كل مرة يأتون لزيارتهم وأقول لها رابحة إن تزوجت قريبكم هذا في كل الأحوال لن يكون أكثر بروداً من حبيبك المُجمد، تشتمني وتقول لي: إن كنت أجده جيداً فلأتزوجه أنا، كانت مضحكة وهي غاضبة بحاجبين معقودين وتفكر جدياً في حال لو تقدم هذا الشاب لها كيف سيكون موقفها وهي تعرف أن أهلها سيوافقون عليه لعدة أسباب: أولها، أنه من الطائفة نفسها وآخرها أن لا تتزوج سامراً وبين الأول والأخير مجموعة مواصفات لعريس جيد كما يسمونه هنا في شرقنا المُغلف الذي يهتم بغلاف الأمور لا بجوهرها،

Telegram: electronic_library

فنحن مجتمع تغريه المظاهر جدّاً ويعشقها، فلا بأس إن كانت ابنة أحدهم تعيسة في زواجها ما دام زوجها مادة دسمة في الخوض للحديث عنه وعن أصله وفصله وما يملك، فآخر ما نهتم به نحن الشرقيين هو القلب.. وما القلب؟! حتى أتحفني يوماً رجل متعلم ولا يمكن أن أقول إنه مثقف، فالفرق بين الكلمتين كبير، حين دخل في نقاش لم يكن له به صلة. كان النقاش روحانياً أكثر مما هو مادي. كنا نتحدث عن ماهية المشاعر والأحاسيس التي يملكها الإنسان والتي غالباً لا يستطيع وصفها أو لمسها ولا يعرف أين تكون وكيف تتكون، فالحب والكره والسعادة والتعاسة مشاعر فقال مصححاً لنا كلمة ذكرناها كثيراً وهي القلب: «القلب مجرد مضخة للدم لا أكثر وليس له أي علاقة بالمشاعر، فالمشاعر عبارة عن أفكار يفتعلها العقل وتنفذها خلايا الجسم، فإن كنت عاقلاً بما يكفي لن يكون عقلك أفكاراً تتلف خلايا جسدك غالباً».. كان كلامه منمقاً جدّاً إلى درجة مقنعة، والفكرة التي قالها بكل ما فيها جديدة عدا أن القلب مضخة ولكن إن كان القلب مضخة، فما هو العقل؟! وكيف يمكن أن تكون عاقلاً كما قال، حيث تركب عقلاً لعقلك يمنعه من افتعال المشاعر أو فكرة مؤدية إليها؟!! خلط الأمر كثيراً أكثر مما هو معقد وزاد عليه، لو كانت فكرته صحيحة لما حزنا لموت أحد ولا سعدنا بمقابلة حبيب،

Telegram: electronic_library

فإن كان القلب مضخة للدم فالعقل صندوق معلومات والحب والمشاعر غير مرتبطة بأي منهما. ماهية المشاعر والإحساس بها لم تعرف حتى الآن، كما هي الروح شيء لا يُلمس ولا يفهم، ولهذا السبب فالمشاعر ثمينة لأننا حتى الآن لا نعرف خامتها ولا مصدرها، فهي تصيبنا بمغص في القلب وضجة في العقل فيخيل إلينا أن أحدهما متورط فيها أو سببها، ولكنهما بريئان منها، مشاعرنا السلطة العليا فينا فهي أكبر من أن يحكمها قلب أو عقل.

كان إحساس رهف في محله، وعموماً هذه الطريقة مستهلكة جدّاً وكانت واضحة منذ البداية أن هؤلاء الأقارب يترددون ويكثرون من الحب لرهف لسبب واحد لا ثاني له. ولا تأتي مصائبها إلّا وأنا نائمة فأصحو على بكائها وكلمات لا أميزها. كنت غالباً ما تعاني هذه الحالة معي، يُقضني هاتفك فنتحدث وأنا صاحية تماماً ثم تتركني لأعود إلى نومي، وعندما أستيقظ أتصل بك وأنا غاضبة لأنك لم تتصل أو لم أجد منك حتى رسالة طوال هذا الوقت. مرة تضحك مني ومرة تصرخ حتى قلت لي: «أنت تعانين الزهايمر في فترة ما بين غفوتين».

لكن هذه المرة ورغم التعب الذي غلفني كان صوت رهف منبهاً قوياً لكل حواسي إلى درجة أن قفزت من السرير بعد أن قالت:

Telegram: electronic_library

- خطبني فهد وأهلي وافقوا.

ثم دخلت في حوار مع البكاء طويل بقيت أنا فيه صامتة. أعرف أنهم لن يفرضوا عليها الزواج به ولكن إن لم يكن هو فغيره وإن لم يكن غيره فلن يكون سامراً أبداً. الأمر معقد ويزداد تعقيداً رغم أن ما يطلبونه هو حقهم وليس خارجاً عن أي عرف أو دين لكن أن تتزوج شيعية سنياً في بلدي فالأمر أصبح يحتاج إلى وقفة صمت من الطرفين ليراجع كل تاريخه أو يقلق حيال مستقبله. ليس الأمر هكذا بالنسبة إلى الجميع هنا. ولكنه في الآونة الأخيرة أصبح منتشراً وأصبح سؤالاً مهماً أن يعرفوا من أي جهة أنت وإن كنت غير متدين أو ملتزم قبل أن يعطوك ابنتهم التي ستؤسس عائلة وتربي فيها أطفالاً على أساس طائفتك، سألتها إن كانت قد قالت لسامر وكان سؤالي غبياً فأول من تتصل به عند حدوث شيء كهذا هو حتماً:

- أغلق الخط في وجهي وحاولت أن أتصل به بعدها لم يجب علي، لا أعرف لم يفعل هذا ما ذنبي أنا؟ كعادته ألجأ إليه فيتخلى عني.

- لم يتخلَّ عنك يوماً لا تقولي هذا.

وانفجرت باكية وبقيت أنا صامتة لم أفهم تصرفه، كيف تأتيه هي منهارة فيقرر أن ينهي الحوار بهذه الطريقة. حاولت أن أهدئها

Telegram: electronic_library

وبدأت أخبرها أن لا شيء يمكن أن يفرض عليها، يمكنها أن ترفض وينتهي الأمر، لكني كنت أعرف أن الأمر لن ينتهي دون جدال ونقاش عقيم يغضب فيه والداها منها جدّاً ويذكرانها أنهما يعرفان سبب الرفض وأن تبقى دون زواج للأبد أهون عليهما من أن تتزوج سامراً، هكذا هما دائماً، تبدأ محاولاتهما غالباً باللطف المفرط معها حتى تعرف أن وراءه شيئاً، وبعد أن يكشف اسم الخاطب هنا تبدأ المعركة الحقيقية ليذكراها أنها كم تخيب آمالهما بها ويتهماها أن دم أخيها لم يعنها يوماً وهو يجري في عروقها، هذا الكلام كان يؤلمني أنا عندما تحدثني عنهم فكيف يكون وقعه عليها هي وهم يتوجهون إليها بالرفض والتأنيب ويُعيدونها إلى الأيام الأولى التي خلا فيها بيتهم من «مصطفى» ذلك الشاب الوسيم البريء الملامح، لا أعـرف حقّاً كيف استطاعوا قتله دون ذنب أو سبب. كانت أياماً موجعة وثقيلة حتى أمي التي لم تعرفه جيداً ولم تره سوى مرات قليلة كانت تبكيه كل مساء في خليطٍ من دموع لهمام وغيث وأبي نصيبٌ فيها وربما أنا، فالأم العراقية منذ الأزل لا تكون أمّاً إلّا بكيسٍ كبيرٍ من دموعٍ ودعاء.

أنهيت مكالمتي معها واتصلت بك وأول كلمة قلتها بدل الألو:

Telegram: electronic_library

- أحبكِ.

ابتسمت وفرحت بها لا تباغتني هكذا بهذه الكلمة إلّا عندما تكون مشتاقاً إلي وراضياً عني كل الرضا، ولكني لم أستطع أن أطير معها أكثر فدموع رهف ما زالت معلقة على هاتفي فلا يمكن تجاهلها أو نسيانها.

- وأنا أكثر، حبيبي اتصلت بي رهف وهي منهارة.

قاطعتني قائلاً:

- أنا مع سامر الآن.

- سامر!! أين أنتما وكيف هو؟!

- عندما أعود سأتصل بك.

لم أفهم شيئاً منك ولكن من الجيد أن يلجأ سامر إليك لأنه غالباً ما يتصرف بحماقة عندما تضيق به الأشياء، طمأنت رهفاً أنكما معاً وأن لجوءه إليك يعني أنه يشعر بالورطة التي هما فيها ولم يتصرف ببرود كعادته، أقله ستجد تبريراً لعدم إجابته على اتصالاتها وتستريح، لكني عهدتك عاقلاً تأخذ الأمور بحكمة مهما ضرب الجنون عقلك وتبقى واعياً مسيطراً على ذاتك، لكن أن تهب جنونك كله دفعة واحدة لسامر هذا الرجل الهادئ الصامت عندها يمكن أن تحدث كارثة.

عندما انتهيت من سامر كلمتني وأخبرتني أن كل شيء

Telegram: electronic_library

سيكون جيداً وإن رهفاً وسامراً سيتزوجان في النهاية. لم أكن أعرف من أين لك كل هذه الثقة، لكني دائماً كنت أثق بحدسك حتى خانك معي لفرط ثقتي بك، لم تبح لي بتفاصيل لقائكم وقلت لي إنها كانت مجرد ثرثرة رجالية وأعقاب دُخان.

كان يومها الخميس وبقينا نتكلم حتى الفجر، كنت دافئاً جدّاً وحنوناً جدّاً لم تكف عن قول أحبكِ البتة بعد أي شيء أقوله، كأنها كانت ردك الوحيد على كل كلامي، كان هدوؤك حزيناً كنت مسالماً كالأطفال، سألتني:

- ماذا يمكن أن يحدث فتتركيني؟

- لم هذا السؤال؟

- هل ستتركينني يوماً ما؟

- أبداً..!! لا أستطيع التنفس بدونك.

كانت كلماتك تخرج من عقل رجلٍ مخمور شعرت أن الأفكار تتضارب في رأسك، تسألني مرة ولا تنتظر جواباً وتسألني مرة أخرى فتجيب أنت على نفسك، عرفت ما يجول في عقلك، تفكر ماذا لو كنا بدل سامر ورهف؟ كيف سيكون حالنا وكيف سنتصرف؟ هل سأوفق أن أهرب معك كما قلت لسامر أن يفعل مع رهف ليتزوجها؟ هل سأنتصر على شرقيتي أم تنتصر هي علي؟

Telegram: electronic_library

لكنك كنت تعرف تماماً أني أتنفس من خلالك وأنا لم أعرف قط هل ستكون لي يوماً رئةٌ ثالثة تُسعفني من بعدك؟.

الجمعة يومٌ ثقيل رغم رتابته المملة يمر بسرعة لأنه يوم عطلة وفائدته الوحيدة أني أستيقظ متى شئت دون مساعدة منبهي الذي أكرهه، بعض الأيام تظن أنها أسوأ يوم في حياتك حتى يقرر أن يغير نظرتك إليه فيكون الأجمل، كانت هذه الجمعة مختلفة ومجنونة، أخذت حماماً طويلاً ربما كان تفكيراً طويلاً وليس حماماً طويلاً. أؤمن جدّاً أن أعظم الأفكار تأتي وأنت تحت الماء؛ كل الأشياء تفقد هيبتها تحت الماء حتى الدموع إلّا الفكرة تولد وتنمو وتكبر وأنت تحاول أن تتخلص من الصابون وتتخلص من غباوتك.

تساءلت لم كنت يا آدم بهذا الحزن البارحة ولِمَ سألتني هل سأتركك يوماً أو ماذا ستفعل فأقرر التخلي عنك كنت أعتقد أن لقاءك مع سامر أثر سلباً فيك ولكن لِمَ لا يكون الأمر بعيداً عن هذا اللقاء لم لا يكون أنك قد فعلت فعلاً شيئاً جعلك تفكر هل سأتركك إن عرفته، حاولت طرد فكرتي لكنها اختبئت تحت منشفتي وبين خصلات شعري المبلل. دخلت الغرفة وأنا أفكر ماذا فعلت يا آدم وهل يمكن فعلاً أن أتركك يوماً لأي سببٍ كان؟

Telegram: electronic_library

رن الهاتف وكانت رهف وكعادتها تقتحم بعد أن تسمع الألو وأحيانا أنفاسي قبلها:

- سامر هنا وهو يتكلم مع أبي.

- فعلاً!!!. وهل اتفقتما أن يأتي ليكلمه؟

- لا أعرف بقدومه عليا.. لم نتكلم منذ البارحة.

كانت الدهشة تسيطر عليها فهو ليس صاحب تصرفات غير متوقعة لكنه قرر أن يكلم والدها للمرة الألف ربما رغم رأيه الذي لا يتغير، لكن هذه المرة لم يكن سامر هو نفسه الذي نعرفه سحب من وسطه مسدساً ووضعه على الطاولة وقال لوالدها: «الموت واحد لا يتكرر، إن لم توافق على زواجي برهف ستكون نهايتي بهذا إما بيدي وإما بيدك الخيار لك».. ربما ما تخسره بسبب السلاح لا تسترده إلّا به لكنك لا تحتاج دائماً إلى الرصاص.. فكرة غريبة تحتاج إلى التأمل فهو قد شارف خسارتها بسبب شيء لا يد له فيه، فرقت بينهما رصاصة اختارت صدر أخيها دون غيره وخرجت من شخص ينتمي إلى طائفة سامر دون غيره، ربما لأننا شعب يجتمع ويتفرق بسبب رصاصة يتوحد وينقسم على وقعها، كم استهلكت هذه العلاقة دموعاً وكم نزف هذا الحب شتائم؟ كم من مرة لعنا ما هما عليه ولعنا جذروهما وقسوة هذا الوطن. بعض الحب لا يتركك إلّا وقد أفرغك تماماً من كل ما تملك، بعض

Telegram: electronic_library

الحب يقتات بالدموع وبعضه بالدم، أفرغ حبهما بئر دموعهما وشاء أن يُغير ميوله؛ ربما نحن من نخيط ثوب حُبنا فتكون قياساته وأبعاده خطأ أيدينا، لكن لن تجد حبّاً ينظر إلى بطاقتك الشخصية قبل أن يلتصق بأطراف ثوبك. لا ينتظر الحب قول التحية والجمل التعريفية؛ الحب طفلٌ يقفز هنا وهناك ويتشبث بهذا وذاك. كيف يمكنك أن تكسر قلب طفلٍ أمسك يدك، كيف يمكن أن لا تُرخي قلبك وتنسى يديك؟

بفلسفته العنيدة اللّامفهومة يعشق جمع متضادين ويخرق قوانيننا البشرية ويهزأ من حدودنا الوهمية ويسخر من كل تصنيف وانتماء ولون ودين ولا تعنيه أعوامنا ولا يتفحص جلودنا ذلك العنيد، هو الحب يكون دوماً بخلافنا. كم نخشى انفلاته وكم نخبئ أجراسه؟ يختبئ العاشقون خلف نظاراتهم الشمسية وتحت معاطفهم البنية. كم نخاف الحب جهراً وكم نجهر بكرهنا فخراً نتستر على نظراتنا الجائعة وندفن قلوبنا الضعيفة.

أثر هذا الموقف في والد رهف ووقف طويلاً عنده، ليس من السهل أن تخسر عمرك لأجل امرأة أحببتها في مجتمع ذكوري كمجتمعنا الشرقي هذا، ولأنه رجل ويعرف ما يعني أن يضع رجل مثله حياته في كفة وزواجه ممن أحب في كفة أخرى حال الصمت بينهما طويلاً، ربما كانت صدمة لأبيها وربما خاف فعلاً أن يفعل

Telegram: electronic_library

هذا العاشق شيئاً بنفسه فيعيش هو في ذنب إلى آخر عمره. وافق أخيراً، على طلبه ولكن بعينين دامعتين ربما هي سعادته لأن ابنته أحبت رجلاً يستحقها وربما لأنه صعد الموقف إلى هذا الحد وربما لأنه تذكر «مصطفى».

لم أصدق صوتها الباكي السعيد الذي يغص فرحاً وهو يهذي «وافق أبي..» بكيت لأجلهما وفرحت وبدأنا نفكر معاً ماذا سوف ترتدي يوم خطبتها وكأن العائق كان فستاناً ولكن هكذا هو عقل النساء يفكر في كل شيء معاً حتى في أصعب الظروف، قالت لي: «وددت لو أخرج وأحتضنه وهو يكلم أبي، خفق قلبي وهو يُخير أبي بيني وبين حياته بعينين دامعتين سرق بهما دموع أبي أيضاً».

وفي زحمة الفرح سألتها:

- هل يملك سامر مسدساً؟!!

- لا.. لا أعرف.

ربما لم يكن مهماً إن كان يملك أو لا، فالسلاح في بلدي متوافر أكثر من الخبز، ولكن شخصاً كسامر لا يمكن أن يقتني مسدساً وإن كان لأجل الدفاع عن النفس والحماية لا أكثر، ولا يمكن أن يهدد بالانتحار بمسدس غيره وإن كان الأمر مجرد خدعة لوضع والد رهف تحت الضغط وإجباره على الموافقة، ربما أخيراً، جاء بنية سليمة، جاء لأجل الحب، دائماً نحمل الأشياء

Telegram: electronic_library

وزر أفعالنا السيئة، فها هو السلاح جاء كرسول حُبٍّ ليحل السلام، جميع الأشياء وجدت لمصلحتنا حتى نقرر نحن عكس ذلك.

التقينا مساء الجمعة في المعهد وبعد حصة الموسيقى خرجنا معاً، كنت سعيدة وأريد فقط أن أخبرك عن الذي حدث مع رهف، كنت تجلس باسترخاء كعادتك وتستمتع بالقهوة والجزء الأخير من سيجارتك، أخبرتك القصة وما فعل سامر لأجلها ابتسمت وقلت:

- أحمق، لم يحشُ المسدس ليكون مقنعاً أكثر، كان يخاف أن يقول له والدها اذهب إلى الجحيم فيضطر للانتحار فعلاً.

وانفجرت ضاحكاً، كنت أشعر أن لك يداً في هذا الجنون الذي أقدم عليه هذا المسالم وأن لقاءكما سيؤدي به إلى مصيبة. ضحكت معك من فرط ما ضحكت حتى كدت تقع من على الكرسي الذي تجلس عليه ولا أعرف لم كل هذا الضحك، ربما كنت أنت أيضاً سعيداً لأجلهما مثلي حتى قلت لي:

- لو فعلها لكنت أنا في السجن الآن بتهمة التحريض على الجنون.

وعدت إلى الضحك من جديد.

- وهل كانت فكرتك؟!

Telegram: electronic_library

- ومسدسي.

- كيف تفعل هذا؟! ولمَ لم تخبرني؟!!

- المهم النتيجة، ولم أخبرك لأن النساء لا يحفظن سرّاً.

- أصبحت شرقياً تقليدياً تتكلم عن النساء عموماً.

- ألا تؤمنين بذكائي؟ جررتك إلى موضوع آخر غير الذي كنت تشاجرينني عليه، أصلح أن أكون رجل سياسة.

- أكرهك.

- احلفي!

قبلت يدي وأنت تضحك وتقول:

- أنا أعشقك.

- كيف لا أعرف أنك تملك مسدساً؟!

- حتى أنا لا أعرف، ليس بشيء مهم وأنا لا أتذكره حقّاً، لن أحتاج أن أستخدمه حين أخطبك أليس كذلك!

ضحكت من سؤالك ومن الحالة المزاجية التي تعتريك يومها كأنك لم تضحك منذ زمن، جميع كلامك كان سخرية وضحكات عالية كنا سعيدين وكأن همّاً انزاح أخيراً، عن كتفينا.

كم جميلة هي الحياة عندما تقرر أن تكون جميلة، لا أعرف ما الذي يقلب حالها أحياناً؟ هل تتلاعب بها الهرمونات كما تفعل بالنساء بما أنها أنثى؟! أم يتغير مزاجها حسب ما يكون عليه حبيبها

Telegram: electronic_library

معها؟! غريبةٌ هي، إن غمرتها السعادة تمارس بذخاً رهيباً على رعاياها وقد تهب اليتيم أباً وتزوج الصحراء بستاناً، وإن تعكر صفوها تضيق كثقب إبرة.

لا أعرف إن كنا نحن من نعقد الحياة أو هي من تفعل هذا بنا، لكن في الحالتين نحن نعشق الحياة ونتشبث بها حتى وإن كنا من سكان هذا الوطن العربي الكبير، نعيش بأمل وإن كان خيطاً هذا العيش قصير..

***

وما أجمل أن تفتح باب بيتك لتجد نورساً أبيض يحط فيه بسلام، كنت أجدها كالنوارس أخذت بياض أشرعة السفن وصفاء البحار، انشغلت عنها فترة وكان ضميري يؤنبني لذلك، لكن لم يكن ممكناً أن أكلمها وأنا لست بخير، ستتصيد الأحرف ما إن تخرج من فمي وتوقع بي أسئلتها وربما حنانها فبدل أن أسأل عنها سأثرثر لها عني؛ استقبلتني بابتسامة وقالت:

- أعرفكِ حنونة!

عانقتها وهمست لها:

- لا شيء أمام حنانكِ.

كانت هي وأمي على اتصال دائم، لكنها توصي أمي أن لا تخبرني شيئاً عنها لترى متى سوف أفتقدها، دائماً كنت أفتقدها

Telegram: electronic_library

وهي دائماً في بالي، لكن يا مريومتي الغالية أنتِ لا تعرفين حبيبي، يتفقد هاتفي وحقيبتي وأزرار قميصي وأفكاري ويغار من كل شيءٍ ذكوري أو أنثوي وله صلة بالذكور، وأنا امرأة ضعيفةٌ في حبه لا أقوى على موجات غضبه، أغرق في بحري إن عقد حاجبيه لستُ سوى سمكةٍ صغيرة وهو ذلك المحيط. أسمعتِ بسمكةٍ صارعت بحراً وغلبته!!

كان اسم خالة مريم يسمعه هو عادل وأعذاراً واهية لأكون قرب هذا العاشق الصامت الـذي أحس هو بحبه رغم كل محاولاتي لأخفيه.

جاءت تزورني لأني لم أفعل منذ مدة أو ربما لتجد بين ملامحي إجابة واضحة لعدم ردي على اتصالات عادل التي لم يصر عليّ فيها ولم تتعدَ الاتصالين حتى عرف أني لا أنوي الرد وربما فكر أني لست بخير.

لم يكن باليد حيلة وأنا أحب رجلاً مجنوناً شرقي الملامح والغيرة، كنت أطيل النظر إليه وهو يتناقش في أمور مجتمعنا، محرماته وممنوعاته، كم هو رجلٌ متحرر لا يُضيق أي فكرة في رأسه يقول إنه يؤمن بكل الحريات حتى الإلحاد ما لم تدعس أي من هذه الحريات إصبع رجله، يختلف عن جميع أبناء جنسه ووطنه ولا يرى الأشياء من منظور ذكر وأنثى. كانت له النظرة

Telegram: electronic_library

نفسها لأن الذي أمامه إنسان على اختلاف جنسه، كنت أشعر أنه طائر حر يؤمن أن السماء تكفي للجميع، وسألته يوماً:

- تقول إنك تؤمن بحرية الآخرين ما لم تضرب لك إصبعاً.. ماذا عن حريتي أنا؟!

- تضرب قلباً..

ثم صمت وأشعلت سيجارة سحبتها من بين شفتيك وقلت:

- كيف لحريتي أن تضرب قلبك؟

أخذت سيجارتك من يدي دون أن تنظر إليّ وأعدتها إلى شفتيك وبعد أن سحبت منها جرعة دخان قلت:

- حبي لك من يفعل.

دائماً كان حبك لي أزمتك ربما لو كان أخف حدة أو أهدأ وطأةً لتنفست أكثر، كنت رجلاً يغار إن تشبثت قلادتي بعنقي أكثر لقصر سلسلتها وكان يستفزك أي شيء يمكن أن يستقر في فجوة نهاية عنقي ولم أكن أفهم سر عشقك لهذه المنطقة الصغيرة بالذات، تمسك بقلادتي وتسألني لم هي قصيرة لهذا الحد حتى تستقر في هذه الفجوة؟ أجيبك: «موضة»، وترد بأنها موضة غبية، وأنا لا أعرف ما الغباوة فيها، قلت مرة وأنت تمرر إصبعك فوقها:

- من هنا أرى قلبك.

- وكيف هذا؟!

Telegram: electronic_library

- نبضات قلبك تجعل هذه المنطقة تهتز لرقتها وأنا أحب أن أراقب قلبك وهو ينبض من هنا.

- لذلك تكره قلائدي القصيرة؟!

- ربما..

أجبت بعدم اكتراث كأني كشفت سرك الذي لم تكن تود أن أعرفه فقابلت اكتشافي بعدم الاهتمام..

كانت خالة مريم متعبة الملامح وكأن المرض فعلاً قرر أن يظهر أنيقاً في وجهها الجميل. بقيت أتأمل شكلها وهي تتحدث مع أمي بأمور عدة وتساءلت كم هي امرأة قوية ما زالت تجلس مستقيمة الظهر واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى وتشرب قهوتها بكل أنوثة الدنيا.

استأذنتها أمي ذاهبةً للصلاة فأجابتها بابتسامة وهي تتمتم «ادعي لنا».

التفتت إليّ بنصف ابتسامة وهي تحرك يدها على الكنبة التي تجلس عليها لتدعوني بهذه الحركة أن أجلس جنبها، نهضت من مكاني وجلست بقربها وأنا أنظر إلى الأرض وهي تتأملني:

- أي.. وبعدين؟

نظرت إليها وأنا مبتسمة وخجولة.

- بعدين ماذا؟!

Telegram: electronic_library

- لا أعرف، أنت أخبريني.

- أعرف أني مقصرة معك وا.....

قاطعتني بصوت خافت وحنون.

- من هو؟!

التفت إليها وعدلت من جلستي وأنا أنظر إليها بدهشة، لم أفهم سؤالها وعدة أفكار طارت في رأسي وقتها وجميعها تحمل اسمك. هل هي الآن تسأل عنك أنت بالذات أم تسأل عن أحد آخر أو أحد معين أو ربما تسأل عن اللّا أحد، بقيت صامتة كمن يثبت على نفسه تهمة كان يمكن أن يتداركها بسؤال أو إنكار أو ابتسامة حتى، لكني اخترت دون أن أختار أن أصمت فقط، فهذه المرأة تجعل منك إنساناً مسالماً ومستسلماً إلى أبعد الحدود وهي تفتش في أغراضك الروحية وأنت ممتلئ بالرضا، حال الصمت بيننا قليلاً كأنها كانت تنتظر مني رداً فعلاً ولم يكن سؤالها بداية لشيء تعرفه وستسرده بعد هذه الجملة الافتتاحية حتى كسرته قائلة:

- تعرفين يا عليا أن العين يمكن أن تُخطئ أي شيء تراه إلّا امرأة عاشقة؟ ودعك من عين أمك فهي تعاني ضعف النظر.

ابتسمت من قولها هذا ولم أستطع أن أنظر إليها فهي كشفتني

Telegram: electronic_library

ولا أعرف منذ متى وأنا لا أجيد الإنكار، خصوصاً إن كان الأمر يتعلق بك وأمام خالة مريم، واسترسلت قائلة:

- كل شيء فيك يقول إنك امرأة عاشقة، توردك وانطفاؤك بريق عينيكِ وصوتك وأخبارك التي أسرقها من حديثي مع والدتك دون أن تدري، وعدم ردك على عادل.

قررت أن أوقف عقلي عن أي فكرة الآن لأنها تتلصص على عقلي وتترجم ما فيه لم يبقَ إلّا أن تقول اسمك.

وضعت يدها على كتفي تربتها فوضعت رأسي على كتفها وحضنتها حتى دخلت أمي وانتهى حديثنا السري هنا، كم تمنيت أن أحدثها عنك وأن أشكو لها منك وأن أذكر محاسنك ومساوئك وأن أخبرها كم أعشقك ولا أعرف إن كان صمتي عن قصتنا هو بدافع الخجل أو أننا في بلد اللّا حب أو لأنها هي بالذات لا ينفع أن تعرف بهذا الحب.

***

أشتاق إلى عينيك وإلى بحة صوتك وأستلقي على سريري بعين نصف مغمضة بسبب الصداع، منذ أن عرفتني وأنا أعاني الصداع هذا الشيء الذي يقتل كل الأفكار في رأسي ويستلقي في جواري فاتحاً ذراعيه.

لا أعرف لم أخبرك عن صداعي أكثر من اشتياقي، ربما لأني

Telegram: electronic_library

أهذي خلاله، هل تغير صوتك؟ هل تبدل لون عينيك؟ وما أخبار قلبك.. أما زال متصدعاً بي؟ أحتاج إلى أسبرينة وإلى عينيك.. أحتاج أن تضمني إليك..

كان عالمك مليئاً بالنساء لكن أنا المرأة الوحيدة التي فيه. أذكر يوم قلت لي:

- أنت المرأة التي أردت.. والتي أضعت.

ربما من فرط حرصنا على ما نريد نزهد فيه فزهدت.

لا أعرف ما أخبارك الآن ولكن روحك تزورني كل مساء. تفكر بي بكثرة حتى تُقلق أحلامي. قرأت يوماً إن خطرت ببال أحدهم عجزت عن النوم، وكم تمنيت سابقاً أن تقلع عن التدخين وأمنيتي الآن أن تقلع عني.. لا تفكر بي أحتاج أن أنام.

غالباً ما كنت أستغرب كيف لقصص الحب أن تنتهي إن كان الحب حاضراً؟ وكيف لحبيبين أن يتركاه مرمياً على طاولةٍ وحيداً أو على رصيف ربما في مقهى أو على وسادة؟

الحب لا يُصلح كل شيء، الحب أحياناً هو من يحتاج إلى إصلاح، أترك القلم أحياناً وأرجع بظهري إلى الوراء أسنده إلى الحائط وهذه النافذة الصغيرة هنا تخبرني الكثير رغم صمت ما خلفها، تخبرني عن ضجيج وطني وعن لون الشمس. يقول بدر

Telegram: electronic_library

شاكر السياب: «الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام حتى الظلام هناك أجمل، فهو يحتضن العراق».

لكن السياب يقصد شمساً أخرى غير هذه حتماً، فهذا الشاعر الذي عاش من ١٩٢٦-١٩٦٤ لا يعرف شيئاً عن شمس الألفية التي نعيشها ولو أطال الله بعمره أكثر لحذف هذا الشطر من قصيدته الطويلة..

لكنه كان محقاً أن الشمس ليست واحدة فلكل أرض شمسها الخاصة أو للشمس نفسها سلوكيتها الخاصة حسب ما تبصر عينها أرضها، الشمس هنا هادئة ومُهذبة ومختلفة تماماً عن شمس الوطن المتبرجة القريبة من جباهنا، أما الظلام الجميل الذي كان يراه يحتضن العراق فأصبح الآن يطمس ملامحه ويغرق في خوفٍ طويل حتى صوت خلخال شمسنا الصاخب.

المنفى جميل أحياناً لأنه صامت يتيح لك المجال أن تطرح الأسئلة وأن تجيب عنها بنفسك، الوطن ثرثار هو من يسأل وهو من يُجيب ودائماً إجاباته خاطئة، هنا نقتص نحن من ذواتنا وهناك يقتص منا الوطن.. الوطن.. الوطن كلما رددت هذه الكلمة أتذكر أحمد مطر كم يحب هذا الرجل الوطن، وكم يشتم الوطن ربما لأنه فهم أن الوطن ليس أرضاً ولا سماء ومجموعة حدود تحدّك وتفصلك عمن حولك، فهم أنه هو الوطن وبحياته يعيش الوطن

Telegram: electronic_library

وإن مات ما من شيء يدعى الوطن وإن لم يكن حرّاً فلا عشنا ولا عاش الوطن..

نموت كي يحيا الوطن

يحيا لمن؟

لابن زنى

يهتكه.. ثم يقاضيه الثمن؟!

لمن؟

لاثنين وعشرين وباء مزمناً

لمن؟

لاثنين وعشرين لقيطاً

يتهمون الله بالكفر وإشعال الفتن

ويختمون بيته بالشمع

حتى يرعوي عن غيه

ويطلب الغفران من عند الوثن؟!

تفِ على هذا الوطن!

وألف تفِ مرة أخرى!

على هذا الوطن

من بعدنا يبقى التراب والعفن

نحن الوطن!

Telegram: electronic_library

من بعدنا تبقى الدواب والدمن
نحن الوطن!
إن لم يكن بنا كريماً آمناً
ولم يكن محترماً
ولم يكن حُراً
فلا عشنا.. ولا عاش الوطن.

ورقة بيضاء هو أصل كل قصة ورواية وفيلم ولوحة وأصل كل الأشياء غالباً أبيض حتى نقرر تلطيخه، على عكس النفط فهو يبدأ أسود ولكنه ينتهي إلى البيت الأبيض.

الدين والسياسة والنفط ثلاث أرجل لطاولة واحدة يحدد من فوقها مصير دول العالم الثالث، العالم الذي هو وحده يتطور بالرجوع إلى الوراء لأننا أصحاب حضارة اكتفينا بهذا القدر من التحضر الماضي والآن هو وقت العبادة والحرب. لا أعرف حقّاً لم يرتبط التخلف بالدين ولم ترتبط السياسة بالنفط ولم ترتبط العبادة بالعذاب، أأضغط على القلم أكثر ليسيل لعاب الأسئلة أكثر أم ألهث خلف إجابات تُرهقني وربما تُحذف من هذا النص الروائي؟! سيقول لي الناشر لا تخرجي عن الحدود الرومنسية للقصة ستتشوه الصورة، ومن قال إن الصورة ليست مشوهة؟! لا أحد ولكنه يقصد لا تتدخلي في السياسة واستري على حالك،

Telegram: electronic_library

الغريب أن السياسة لم تعد كما كانت تدعى «سياسة»، الآن هي أحوال شعب وقصة حياة وموت قصة جوع وفقر ومرض وقصة وطن لو حافظنا على تمزيقنا له هكذا سيحذف من الخريطة حتماً. أخاف أن تلحق كلمة سابقاً بكلمة العراق تستوقفني جملة «الاتحاد السوفياتي سابقاً» مرعبة هذه الكلمة، كيف تدخل جملة بهذا الحجم والبهاء لتكسرها كلمة أخرى استترت حتى تنتهي من غرورك السمعي للفظ فتهز رأسك آسفاً نادماً على الذي كان، الذي كان.. أساساً نحن شعوب تبدأ قصصها الطفولية بكان يا ما كان نزرع في طفولتنا المقبلة فعلاً ماضياً ناقصاً لن يصبح مستقبلاً ولا حاضراً أبداً، ولن يكتمل فاستمع أيها الصغير إلى هذه القصة بهدوء لأنها كان يا ما كان، لا تحلم ولا تفكر كن كما كان أجدادك واكتفِ بالمجد السحيق، هل المنفى هو الذي يبث فيك كل هذا السم للوطن أم أنك تأتي مسموماً بالفطرة ويُنتشل منك السم شيئاً فشيئاً هنا ولكن لا يمكن أن لا تتشردق به وهو يخرج من روحك ولا يمكن أن لا يتعثر بدمك حتى يخرج منك كاملاً وتحظى بدمٍ جديد منقى وأزرق كزرقة البرد التي تعتري العرب. هنا دمٌ باردٌ أطفأ غليانه جواز أوروبي لا تدفع ضريبة عند ضياعه ولا تلعن جدك السابع للحصول على واحد جديد، فالجدير بالذكر أن جوازي العظيم هو أسوأ ثاني جواز في العالم بسبب عدم

Telegram: electronic_library

الحصول على تأشيرات دخول إلى الدول الأخرى بعد الجواز الأفغاني...

بعد مرور أكثر من شهر على زيارتها لي وجدت رسالة على الفيسبوك كُتب فيها «مريم تحتضر».

كلمتان فقط أسقطتا دلو ماء بارد على رأسي وتجمدت بلا حراك أو إحساس، لم أكن مستعدة للخسارة أو لخسارة كهذه ولم أكن مستعده لخسارتها هي بالذات ولم يزد عادل في رسالته على هاتين الكلمتين. تجنب التحية والـوداع. أخبرني وشكا وجعه بكلمتين فقط، لا أعرف لِمَ تمتلئ حياتي بالمقاعد الفارغة ولا يأخذ الراحلون مقاعدهم معهم ويحتفظون بحيزهم حتى بعد رحيلهم ولا أعرف إن كان في هذا الفعل أنانية منهم أو قلة حيلة، فالجميع مجبر على الرحيل وللجميع أسبابه ولا يتركون سوى الصمت خلفهم ومقاعد باردة تبحث عن إجابات لأسئلة ملت منها وتركت أوراقها بلا إجابات.

حتى اليوم لا أعرف لم رحل أبي وهل كان ضرورياً أن يرحل؟ هل الحرب التي خاضها وأخذت عمره وبقيت حتى اليوم تمضغ سنوات أمي بأسنانٍ لامبالية كانت حقيقة؟! كانت ضرورية! لهذا اليُتم وهذا الترمل؟!

Telegram: electronic_library

رحيل همام.. رحيلها.. رحيلك... أكل ذلك من ضروريات الحياة؟!

نحصل على الإجابات أحياناً عندما تُكسر للسؤال هيبة، والأسئلة الشامخة لن تقبل يوماً جواباً يطفئ شهوتها..

اتصلت بها غير مرة وكان هاتفها يرن حتى يكف عن ذلك ويظهر بدل صوتها صوت عاملة الخدمة تُخبرني أن اتصالي لم يجب عليه أحد، فكرت أن أتصل بعادل ولكني أعرف أني لن أنفذ ما فكرت فيه وكان السبب أنت.

لو أخبرت أمي كانت ستطلب مني أن أتصل به حتماً ولن أجد جواباً مقنعاً لها كي لا أفعل فطالما كانت الأمور المتعلقة بك غير منطقية، أمسكت الهاتف وكتبت لك كما فعل عادل بالضبط ولم أزد حرفاً.. «مريم تحتضر».

وصلتك رسالتي وبعد ثـوانٍ من إرسالها جاءني تقرير بتسلمك إياها، ثم رن هاتفي برسالة منك: «الله أرحم الراحمين».

صُدمت من ردك ومن البرود الذي اعترى رسالتك، لم تكن يوماً قاسي المشاعر أمام الموت وإن كان يخص أحداً لا تعرفه ولم تهتم بما قد أشعر به وأنا أكتب لك رسالة كهذه وأنتظر ردك أو حضنك وأنت أكثر إنسان يعرف ما بيني وبين الموت من ضغائن

Telegram: electronic_library

وخوف وكره، بدأت أشعر بخذلانك لي شيئاً فشيئاً في كل موقف نواجهه معاً؛ بعد خلافنا الأخير أصبحت أكثر قسوة وبروداً.

أرى في عينيك لهفة وألمس في يديك دفئاً لكني محرومة منهما وممنوعةٌ عنهما، ترتبط الغيرة عندك بالقسوة أو ربما هما مرتبطتان معاً أصلاً عند الجميع.

كنت أتساءل أحياناً لِمَ الرجل الشرقي يجمع بين الغيرة والقسوة وبين الحب والغيرة، لِمَ عندما يغار رجالنا يكونون قُساة وكأن قلوبهم لم تعرف الحب البتة، على عكس رجال الغرب عندما يغار أحدهم على حبيبته يقترب أكثر ويحاول الالتصاق بروحها أكثر ويدخل نزاعات وتحديات أمام أي خصم يحاول أو لا يحاول التقرب ممن يحب ويحاول الفوز بقلب حبيبته مرة أخرى، وإن كان بين يديه فعلاً لِمَ نحن الشرقيين نربط القسوة بكل شيء، بالحب وبالتربية وبالتعليم وحتى بالعبادة.

كلما كان الحبيب أكثر قسوة وكلما تشبثنا به كانت التربية أكثر قسوة كلما كنا جيلاً مستقيماً وكلما كانت المعلمة صارمة حفظ الطلاب الدرس وكلما كانت العبادة منهكة لروحك وجسدك تقبلت منك في اللحظة، من أتى بهذه الفكرة حتى اعتنقناها وعمل الجميع بها؟ من دسها تحت جلودنا حتى أصبحنا بهذه السمرة؟

Telegram: electronic_library

بعد فترة من صمت هاتفي وروحي اتصلت:

- ألو.

- كيف حالكِ؟

- الحمد لله.

- كيف عرفت أنها كذلك؟! جاء سؤالك مهتماً قليلاً وبصوتٍ هادئ.

- وصلتني رسالة من عادل عبر الفيس وكان هذا نصها.

بدأت نبرة صوتك تتغير وقلت:

- وهل بعثتِ رسالتك هذه لتخبريني بما أرسل لك عادل أم بحالة مريم الصحية؟

بدأت الدموع تنهمر من عيني وكأني كنت أنتظرك حتى أطلق سراحها أو أنتظر قسوتك التي بدت معتادة في هذه الفترة وكان وقعها يتزايد كبداية هطل المطر خفيف ورقيق لا يبلل أحداً ولا يُمرض أحداً، وبدأت تتسارع دقات قلبي.

وتسارعت معها دموعي وبـدأت أتنفس بصوتٍ واضح وأصبحت الدموع تخرج من عيني ساخنة تجرح كل ما تمر فوقه ولا أعرف إن كنت أبكي رسالة عادل أم أبكي سؤالك لي وقسوة صوتك. بكيت وبكيت وبكيت وكنت أنت الرجل العاجز على

Telegram: electronic_library

الطرف الآخر من الهاتف وبقيت صامتاً فترة أو بقيت صامتاً قسوة حتى جاء صوتك متأخراً:

- لمَ تبكين؟

وكأن للبكاء سرعة معينة كسرعة الصوت وله زمنه الخاص حتى يصل إلى مسمعك فتسألني بعد انهمارٍ طويل أتلفت به عينيّ وقميصي سؤالاً متغابياً لايشفي جرحاً.

قلت بصوت متشردق بالدموع:

- أريد أن أراها.

عدت للصمت من جديد كأنك تفكر في ما ستقول لي أو كأن جملتي هذه جاءت طلباً ينتظر منك توقيعاً بالموافقة أو الرفض، ربما هو كان كذلك فعلاً، فأنا أيضاً كنت أنتظر ردك الذي أفهم منه تأييدك لرغبتي أو لا.

- عليا لن تري عادلاً وإن حدث هذا اعتبري الذي بيننا منتهياً.

أغلقت الهاتف بعد هذه الجملة الحنونة التي فطرت بها قلبي كأني كنت أطلب منك أن أرى عادلاً أو كأن عادلاً هو مشكلتنا الوحيدة. لا أعرف لِمَ أحياناً، أجدك ضعيفاً أمام هذا الإنسان رغم أنك تعرف أنه لا يعني لي كما تعني أنت؛ أنت الرجل الواثق بنفسه جدّاً والذي يعرف هالة النساء حوله والذي من المفترض أن يكون

Telegram: electronic_library

على يقين من حبي له، كل هذه الأشياء تجعلك لا تضع نفسك في مقارنة به، خصوصاً إذا كانت مقارنة بالنسبة إلي أنت الذي لا تُقارن بأحد عندي بمحاسنك وعيوبك كنت أعشقك كشيء لا يتجزأ فلم أحاول أن أجزئك يوماً ولم أفكر حتى أن أغيرك. أحببتك كما أنت، كنت تعرف كم أحبك وتعرف أنني لست أنا المرأة التي يمكن أن تتلاعب بقلوب الرجال، لكنك كنت تُمطرني قسوة وعناداً وتطلب مني أن أفهمها على أنها حب كما قلت سابقاً، فالحب في مفهومنا الشرقي هو قسوة كلما قسوت عليك هذا يعني أني أحبك.. غريبون نحن أهل الشمس.

***

قلت لي مرة: «هناك رجال لا يمكن قتلهم إلّا من الداخل». أعجبتني الجملة يومها ولما لاحظت ذلك وعرفت جهلي بها أضفت قائلاً «لغسان كنفاني»، «تعرفين، كم هي صحيحة وعميقة هذه الجملة، الرجل يموت من داخله أو يبدأ الموت فيه من الداخل حتى وصولاً إلى خارجه، أغلب الرجال هنا هم ميتون داخلياً لكن خلاياهم ما زالت تعمل فتحرك هذا الجسد «قاطعتك» وهل أنت منهم؟!».

«الميتون أم الذين يموتون؟!» وقبل أن أجيب عن سؤالك أكملت قائلاً:

Telegram: electronic_library

«لو كنت ميتاً لما أحببتك، الموتى لا يُجيدون الحب ربما جربوه مرة قبل أن يكونوا هكذا، لكني أنا من الرجال الذين لا يمكن قتلهم إلّا من الداخل وسأموت لو خرج هذا الوطن مني، سأموت إن فعلتِ أنتِ كذلك».

كان كلامك يومها وكما هو أحياناً، أكبر من أن أرد عليه لأني ببساطة لا أعرف ما الذي يعتريك في لحظات كهذه لتذكر غسان كنفاني والموت والوطن، ربما هم فعلاً مرتبطون بعضهم ببعض لكني لا أعرف ما علاقتهم بك في هذه اللحظات ولا أعرف أيضاً لم نرتبط أنا والوطن عندك بالإحساس نفسه، حتى عندما تتغزل بي يأتي الوطن حاشراً أنفه بيننا كما تقول لي دائماً وأنت تتأملني: «لم عيناكِ هكذا جميلتان» فأذوب خجلاً وحبّاً فيك وأنت تراقبني بهذه الطريقة.

لتكمل قائلا: «يا الله كم عيناكِ عراقيتان» كأننا نعيش في بلد ثانٍ تشتاق فيه إلى الأول وتراه من خلال عيني حتى أصبحت أرى أن غزلك بهما واجب وطني مقدس..

عندما التقينا في اليوم التالي بعد رسالة عادل لي كنت منتفخة العينين إلى درجة لم تسمح عيني لقلم الكحل أن يجد طريقه خلالها فبدا وجهي كالمرضى، عندما دخلت المعهد كنت تجلس في مكاننا المعتاد عند تلك الشجرة البعيدة إلى طاولتنا الصغيرة

Telegram: electronic_library

التي لا تتسع إلّا لاثنين، تقدمت نحوك فاستقبلتني بابتسامة فهذه عادتك تنسى ما حدث إن كنت أنت المخطئ كأنك تعترف بأخطائك بابتسامة وربما تعتذر بها وعليّ أنا أن أسامحك دون نقاش، وضعت حقيبتي على الطاولة وبعدها نظاراتي الشمسية التي كنت أضعها وحدت بنظري عنهما ونظرت إلى عينك مباشرة لأجدك مذهولاً مصدوماً من شكلي، ربما لأني لم أبد يوماً هكذا معك أو ربما لم تجد سبباً لأكون بهذا الوجه، بقيت تنظر إليّ باستغراب وعيناك منفتحتان إلى أقصاهما وعقدت حاجبيك بعدم رضى وربما بغضب وبدأت أنا أشعر بحرارة في عيني تُنبئ عن دموع ساخنة لم تبرد منذ البارحة:

- أكل هذا بسبب مريم؟!

وضعت وجهي بين يدي وغرقت في بكاء طويل لم يقل حدة عن بكاء الأمس وكأني أهب عيني للدموع وأتنازل عنهما ما إن تنفذ دموعي حتى أبدأ بالبكاء، أعيُن غرقت في بكاء إنساني أين أنا ومن حولي بكيتُ بصوت مرتفع لم أسمعه ولم يهمني حتى أخذت يدي بيديك وبدأت تضغط بيدك عليها وتطلب مني أن أتوقف عن البكاء، لم تكن محاولاتك لإسكاتي إلّا لتزيدني بأرطال من الدموع لم أتخيل أنها موجودة في هذه العيون

Telegram: electronic_library

المسكينة، أمسكت يدي بقوة شعرت معها أني سأفقد أصابعي بها وقلت بصوت غاضب تحاول أن لا يسمعه غيري:

- انهضي معي بدأ الناس ينظرون إلينا.

نهضت من مكانك وسحبتني للنهوض معك لكني لم أكن أقوى على الحراك وكل شيء كنت تقوله أو تفعله وقتها يزيد من ضعفي ومن أمطاري الساخنة التي أحسست أني سأفقد وجهي أيضاً لحرارتها، أمسكتني بكلتا يديك من تحت ذراعي وساعدتني على النهوض وحملت حقيبتي بذراعك وأخذت تلبسني نظاراتي محاولاً أن تخفي وجهي الباكي عن الفضوليين الذين كانوا يحدقون إلينا. حاولت يا آدم وقتها أن أوقف موجة البكاء التي اجتاحتني لكني لم أستطع، كان البكاء شهياً إلى درجة لم أتوقف عن تناوله حتى ابتلعني وغرقت في بحره أنا التي تهتم بكل من حولها لم يهمني شيء يومها غير البكاء فقط، كأني أتيت إليك في مكاننا هذا للقاء البكاء، كنت على موعد معه لا معك وسرت معك بخطوات لا أذكرها ربما كنت مغمضة العينين وأنت تُسيرني وتدلني على الطريق لم أفتح عيني إلّا وأنت تضعني في سيارتك وتسحب نظارتي بقوة وتصرخ:

- ما بك أجننتِ!!

لم أكن مجنونة وقتها يا آدم كنت مذبوحة.

Telegram: electronic_library

كنت كما أنا اليوم على إحساس المساء نفسه، احتفظت أنا بدموعي واحتفظت أنت بقسوتك الكافية لتسمي ما أنا فيه جنوناً، فتحت باب السيارة محاولةً الترجل منها فقد ضقت ذرعاً وبدأ الهواء ينفد من صدري فسحبتني من يدي بقوة وأغلقت الباب لأجد نفسي بين ذراعيك وصدرك تضمني بقوة تفوق قوتي التي كانت تعاكس فعلك، حاولت لبعض الثواني أن أبعدك لكنك كنت تشد عليّ بقوة حتى أحسست بنبضات قلبك، شعرت أني سأخترق صدرك فقلت لك وأنا أجهش بالبكاء كمن مات له عزيز وسمع الخبر تواً:

- دعني أذهب أشعر أن الهواء ينفد من صدري.

- تنفسي صدري.

تشبثت بك بقوة كأني أنفذ ما قلت وأتنفس من خلال رئتيك وبدأت أهدأ وأنا أشعر بنبضك وأشم رائحتك وارتخت يدي التي غرزت أظفارها بك دون وعي كأني كنت أريد اختراقك أو الاندماج بك حتى نصبح جسداً واحداً كنت متعبة من كوننا جسدين تتحكم أنت فيهما وحدك وربما نمت بعدها بين ذراعيك، ذاكرتي مشوشة حيال ذلك اليوم وأذكر أنه كان ماطراً وجنونياً رغم أنه يوم طويل لنا بقينا فيه معاً حتى ساعة مُتأخرة حظيت فيه بحبك وحنانك الذي لا أعرف ما مدة صلاحيته.

Telegram: electronic_library

السعادة غالية الثمن عادة ولا تأتي إلّا بعد أن تحصل عليه ما عدا بعض الناس فالسعادة بالنسبة إليهم مجانية دون مقابل.

لا نحصل على الاهتمام الذي نرغب فيه إلّا بعد أن ندفع مقابله فحضنك الذي أحتاج إليه جدّاً وأفكر فيه دائماً جاءني على حين غرة وبعد انهمار طويل فعرفت أن ثمنه غالٍ جدّاً، كومة دموع وألم وانهيار إلى حد السقوط وعزائي بهذا أنه ليس الوحيد الذي يقتضي أجـراً لحدوثة وللحصول عليه فحنان الأم المفرط واهتمامها يأتيان وأنت مريض وطريح الفراش فتحظى بكل الاهتمام وكل الوجبات التي تحب والتي كانت تمتنع هي عنها لأنها مُتعِبة، نجاحك في عملك أو في مراحلك الدراسية ونشوة الفرح التي تعتريك بعد هذا النجاح لم تكن مجاناً قط فقد حصدت منك ليالي سهر وتعب وجهد.

لا شيء بالمجان في هذه الحياة وأحياناً تدفع ثمن الأشياء دون الحصول عليها ولا يوجد من ترفع له مظلوميتك، لا أحد فوق الحياة لا قاضٍ ولا قضبان.

عندما قدمت لك كل هذا الحب والصدق انتظرت منك سعادة أبدية تجمع رأسينا على وسادة واحدة وطبقٍ واحد، ولكن..

هي الـ «لكن» علتنا واختصار لكل الوجع مرعبة هي الكلمات

Telegram: electronic_library

الجميلة التي تحظى بعدها بقليلٍ من الصمت ومن ثم كلمة «لكن».

أنا أحبك.. لكن....

اشتقت إليك جدّاً وانتظرت قدومك... ولكن.....

تُفسد جمال ما نقول وتفسد نبضات قُلوبنا التي تتعثر بها بعد أن تسارع النبض فيها لكلمة حُبٍ منتظرة، لموعدٍ مؤجل، لسعادة ما بعدها سعادة.

الأوضاع تزداد سوءًا وكل شيء هنا مهدد بالانقراض وأول هذه الأشياء نحن. أصبحت حصيلة الشهداء الذين نراهم على شاشات التلفاز أرقاماً لا أكثر بالنسبة إلى هذا البلد وبقية البلدان كأن هناك من قال إننا في مسابقة الموت، فأي الأوطان سينقرض أولاً ولم يفكروا من سيتسلم الجائزة بعد هذا الفناء، بدأ الجميع يفكر في السفر والكل يريد الهرب بهذه الروح التي سيتلقى شخصٌ ما جائزة على إزهاقها. وها هي مسابقة جديدة تبدأ، من يستطيع الفرار من هذا الوطن ومن سيبقى هنا يلعب الغميضة مع الموت عله يُخطئه، فالعراق بلد الحضارات والموت، ومن ضمن من فكروا في الهجرة لأن الوطن لم يعد يتسع لأنفاسهم لأنها تثقل صدره، أخي غيث فهو أب لطفلين لا يريدهما أن يتذوقا مرارة اليُتم الذي تذوقه هو، ربما من فقد أباً أو أمّاً هو أكثر الأشخاص

Telegram: electronic_library

خوفاً على أطفاله من هذا الفقد لأنه وحده يعرف ما يعني، منذ مدة والأمر يدور في رأسه وكل يوم يقبل أطفاله ويحتضنهم كأنه لن يراهم بعد اليوم يرى في خروجه إلى الشارع كدخوله ساحة حرب لا يعرف ما سوف يُصيبه فيها، كان يعرض موضوع السفر بين الحين والآخر على أمي التي كانت دائماً ما تجابهه بالرفض وتطلب منه أن يسافر هو وعائلته أما هي فلا تريد أن تترك العراق قط، لا أعرف لِمَ يرتبط كبار السن بالوطن كجذور الأشجار بالأرض هل هو التصاق زمني كلما مر وقت كبير على وجودك في مكان ما التصقت به أكثر وأصبحت جزءًا منه! أم هي الروح الوطنية التي تجبرنا على البقاء في وطن يسرق منا كل يوم أعز ما نملك، أم لوجود أبي تحت ترابه فتصر هي على البقاء حيث هو؟ لكنها أضعف من أن تتحمل فراق غيث وأولاده يكفيها همام الذي تبكيه كل مساء ويكفيها أبي، لم تعد تحتمل هذه المرأة غياب رجال حياتها أكثر من هذا وكأن بلدنا يقتات بالرجال فقط، يمضغ بعضهم ويبصق الآخر خارج جوفه لكنه في كل الأحـوال لا يستطيع السفر دوننا أنا وهي فيستسلم للأمر الواقع ويصمت على مضض أو يسألها أحياناً كمحاولةٍ يائسة «هل يرضيك أن يَتَيَتَم أطفالي»؟ تأتي جملته كرصاصة في قلبها وتعتصره فتنهار دموعها وتبكي الماضي والحاضر فيلوم نفسه لقوله هذا ويحتضنها وهو

Telegram: electronic_library

يعتذر ويقبل رأسها ويدها. ربما أكثر من جرب الفقد فينا هي أمي فلا يحق لأحد منا أن يحاجّها به فهي أكثر منا معرفةً به ومجرد مقارنتها بأحد يجرح هذا حزنها ويسخر منه، همام كذلك يطلب منا أن نلتحق به بين الحين والآخر ويخبرها أن بعده أتعبه ولأنه ما زال طفلاً يحتاج إلى حنانها وحضنها. لا أعرف من كان يحرض الآخر على فكرة السفر غيث أم همام وربما هما الاثنان معاً أنا وحدي كنت خارج هذه الفكرة لأني لن أترك وطني أبداً، خصوصاً وأن هذا الوطن لا يقبل أن يترك هذا الوطن، فوطني كان أنت ولا أحد غيرك، لا أشعر بانتمائي إلى شيء أو أحد كما أشعر بانتمائي إليك، أحياناً أشعر أن ملامحي بدأت تشبه ملامحك وأشعر أحياناً أنني كنت ابنتك في عالمٍ آخر غير هذا أو ربما والدتك في عالمٍ غير هذين العالمين، فأنا أؤمن أننا كنا غير ما نحن الآن في زمنٍ آخر ومكانٍ آخر لذلك نتشابه مع أحدهم لا تربطنا به أي صلة قرابة أو نحب أحدهم من أول لحظة نلتقيه فيها أو نكره أحدهم ما إن نراه، فإما أن تكون ربطتنا به علاقة طيبة في عالم ثانٍ أو العكس، لذلك نبتسم لرؤية أحدهم أو ننزعج ما إن نراه دون أي سبب أو سابق معرفة.

أخبرتك يوماً عن فكرة غيث عن الهجرة وقلت لك إنه لا

Telegram: electronic_library

يرى أي مستقبل للحياة هنا ويريد أخذنا معه أنا وأمي فقلت وأنت تخرج سيجارة من علبة سجائرك وتستعد لإشعالها:

- أمك لا بأس أما أنت فلا.

ضحكت من كلامك الذي كان يخرج بطريقة مضحكة وأنت تضع السيجارة بين شفتيك وتقدح بالولاعة لإشعالها فنظرت إليّ بطرف عينك مستغرباً وقلت:

- لم تضحكين؟

- من طريقة كلامك، تتكلم بثقة وكأنك ولي أمري.

- أولست كذلك؟!

- اممم، لا أعرف.

- حسناً.

قلتها وأنت تحيد بنظرك بعيداً عني وتنفث دخان سيجارتك اللعينة التي تغيظني وهي تتقلب بين شفتيك وأصابعك.

- بما تفكر؟

- أتظنين أن دجلة يمكن أن يهاجر ويترك العراق؟

أجبتك وأنا أضحك.

- لو كان يستطيع لفعل ذلك.

- أجيبي دون مزاح.

- طبعاً لا.

Telegram: electronic_library

- أنتِ دجلة.. بالنسبة إلي أنت دجلة، أنا أراكِ هكذا لذلك لن تكوني في مكان آخر غير الذي خلقتِ لأجله.

قلتها وأنت تنظر إلى عيني وعيناك تلمعان ببريق رائع لم أره بهما من قبل، قلت لك وأنا أنظر إلى عينيك وتلوح بين شفتي ابتسامة خجولة:

- سأكون دجلة إن كنت أنت العراق.

وها هي دجلة وضعتَها في طائرة وأرسلتها إلى وطنٍ غيرك..

آه من فضول هذا الوطن يأتي دون دعوة وإن لم يجد له مقاعد فارغة على طاولة عاشقين لا تعرف سوى رقم اثنين يسترخي بالجلوس في أحضاننا، بين غزلنا ونبضات قلوبنا، وطنٌ لاننفك منه مهما ابتعدنا يسحبنا إليه أو يأتي هو راكضاً إلينا.

في حياة كل إنسان لعنات كثيرة لا ترحل عنه مهما حاول، لونك ولغتك الأم ووطنك.. لن تتغير أول لعنة وإن جلست تحت الشمس طوال عمرك أو استخدمت كل معالجات البشرة طوال حياتك، ولعنتك الثانية تسمح لك أن تتعلم عدة لغات تتفاخر بغيرها لكنك لن ترخي رباط حزنك أمام سواها ولن تجلس باسترخاء على غيرها، فمهما ابتعدت عنها تبقى عن تلك الحروف غريباً ولن تتعرى أمام غريب، ولعنتك الكبرى عبارة عن جذور تمتد معك أينما ذهبت وتشعر أنك قصصتها وتخلصت منها ما إن

Telegram: electronic_library

وضعت قدمك في طائرة لكنها تبقى خفية لتتشبث بك بحرية وتدعك تطير أينما شئت ليُذكر اسمك في كل الأماكن فلان من أصول ( ) تأتي لتجلس بين القوسين كهوية تبتسم لك وتفاجأ أنت بها وإن كانت تبيت في جيبك بطاقة أوروبية.

وأنا امرأة سعيدة بلعناتها الثلاث لكن لعنتي الرابعة كانت سعادة يوماً ما وأصبحت في لحظة سبب تعاستي.. أنت لعنتي..

التقيت رهف السعيدة، هكذا أصبحت أسميها فهي الآن إنسانة أخرى أو إنسانة سعيدة ببساطة تبتسم طوال الوقت متفائلة متفتحة للحياة كزهرة، بدأت صديقتي الجميلة تعيش سنها وتهتم بمكياجها وتنظر إلى كل الأشياء بعين الجمال بعد أن أصبحت تضع الكثير من الكحل وتهتم بحاجبيها الكثيفين، هو الحب بغباوته يصنع منا ما يشاء أو نصنع نحن بغباوتنا منه ما نشاء، ممكن أن يكون جنتنا وهو نفسه ممكن أن ينقلب إلى جحيم يزداد لا مبالاة كلما هممنا به وما إن تركناه أرضاً حتى هم بنا، ولكن سامراً شهر في وجهه مسدساً لذلك اهتدى وأصبح يمشي مستقيم الخطى، حتى الحب في بلادي يمكن أن يُهدد وأن تُشهر في وجهه رصاصة وربما ورقة تهديد، سعيدة أنا لأجلهما وحزينة لأجل مريم ولطالما اجتمعت السعادة والحزن في داخلي جنباً إلى جنب كتوأمين في رحمٍ واحدة حتى اعتدت طعمهما معاً، لم نلتقِ أنا

Telegram: electronic_library

وهي منذ مدة كنا نكتفي بالاتصالات الإلكترونية والهاتفية بسبب وضع البلد وبسبب انشغالها بالإعداد لحفلة الزفاف. قلت لها بعد عناق طويل وبعض كلمات الشتائم التي تركتها في أذني وهي تحتضنني بقوة:

- تبدين مشرقة.

- عليا أشعر بالسعادة وكأني لم أعرفها يوماً.

- انتظرتما كثيراً حبيبتي من الطبيعي أن تحلقا فرحاً الآن.

- ربما، تعرفين سامر تغير.

- كيف؟

- أصبح أكثر اهتماماً بي كأننا في أول حبنا.

ضحكت من كلامها وقلت لها:

- على أساس أنكما معاً منذ خمسين عاماً.

- لا تبدئي بالسخرية أتكلم بجدية كأنه كان يعرف كل ما أريد وما كنت أشتكي منه وخبأه لي إلى هذا اليوم الذي نكون فيه أمام العالم معاً.

- الرجال لا يستطيعون فعل أكثر من شيء في وقت واحد.

- لم أفهم!

- كنت تطلبين منه الاهتمام والحرص والحب وهو كان

Telegram: electronic_library

محاطاً بالتفكير والقلق بشأنكما وشأن كل شيء فلم يكن يستطيع التنسيق بينهما.

- لكني كنت مثله قلقة بشأننا ومهتمة به جدّاً.

- في بيتك مستقبلاً سوف تعدين الغداء وتنظفين الأرضية وتغسلين الملابس وتهتمين بالأطفال وبه عندما يأتي متعباً من عمله، أما هو فجربي أن تحدثيه بموضوع بسيط وهو يغير مصباحاً معطلاً سيكون موقفه واحداً من اثنين إما أن يطلب منك أن تصمتي ليركز بما بين يديه وإما يتركك تثرثرين ولا يسمع أساساً ما قلت حتى لو قلت له إني أحب رجلاً آخر.

وانفجرت ضاحكة وبقيت تراقبني وتحبس ضحكتها لتبين لي أن ما قلته سخافات لا أكثر وأكملت قائلة:

- لا تكتمي ضحكتك اضحكي.

ضحكنا معاً وهي تحاول أن تجد شيئاً تضربني به وأنا أضحك أكثر من احمرار وجهها وهي تضحك وتعرف أن ما أقوله صحيح ولا تستطيع الرد.

- تسدين نفس من يجالسك منذ متى وأنت هكذا؟!

- منذ البداية ولكنك أنتِ من تغيرت وأصبحت متفائلة.

وعدت إلى الضحك من جديد وهي تشتمني وتهددني أن تتركني وتذهب إن بقيت أتحدث هكذا، كانت رهف أكثر إنسانة

Telegram: electronic_library

أضحك معها من قلبي وأنسى معها كل شيء. أعود معها إلى الزمن الذي كنا خاليتين فيه من أي هم وقلق.

كان قد مر أسبوع على رسالة عادل «الفيسية» التي لم أقابلها بأي رد أو أي فعل حتى تجنبت إخبار أمي بحالة مريم. ضغطت على نفسي أكثر من اللّازم لأجلك يا آدم حتى بدأت أقسو على من أحب لكني كنت على يقين إن رحلت مريم دون أن أودعها فلن أسامحك أبداً، لذلك كنت أدعو الله يوميّاً قبل أن أنام أن يشفيها مما هي فيه فهي لا تستحق الخبث وإن كان على شكل مرض ولم أنسَ الأمر ولكني بجلوسي مع رهف نسيت نفسي ولم أخبرها شيئاً عني أو حتى عن مريم ورسالة عادل، كنت أكتفي بالاستماع لها وهي تحدثني عن مخططاتها حول حفلة الزفاف وماذا تنوي أن تفعل وإلى أيّ كوافير تذهب، وكنا نثرثر بأمور أنثوية بحتة. كنت أرى بريق عينيها وهي تتكلم عن كل شيء يخص هذا اليوم وكانت سعيدة فعلاً رغم قلقها الذي يُصيب أي امرأة حيال هذا اليوم وكيف ستبدو وهل ستكون جميلة أم لا وهل سيتم كل شيء كما تريد وهذه الأمور التي تدور في رأس كل النساء عادةً كنا نغرق في حديث طويل حتى قاطعنا صوت قائل:

- وعندما أطلب أن أراكِ تقولين مشغولة.

رفعت رأسي لأجد هالة ولا أعرف حقّاً أي صدفة جمعتنا

Telegram: electronic_library

اليوم، نهضت من مكاني وسلمت عليها بحرارة أو سلمت هي عليّ هكذا فأنا لم أرها منذ أيام، كنا في سوريا وكنت أعتذر عن مقابلتها عندما عدناإلى العراق بعد أن أحببتك خوفاً أن ألتقي عادلاً أو تغضب أنت إن عرفت بصداقتي الوطيدة معها وهي الصديقة المقربة جدّاً لعادل، ما إن رأيتها حتى عاد موضوع مريم يأكل رأسي وشعرت بالانزعاج. كنت قد قطعت حبل التفكير والقلق وتركته في البيت وجئت لأقابل رهفاً، جئت لصخبنا ولطفولتنا المعتادة ولم يكن ينقصني أن تأتيني هالة بما تركت عمداً، جلست معنا لبعض الوقت رغم أنها جاءت بصحبة بعض الصديقات وبعد قليل من الأسئلة المعتادة عن الحال والصحة وما الجديد في حياة كلينا وبعد أن عرفتها إلى رهف طبعاً سألتني باستغراب:

- أتعرفين بأمر خالة مريم؟!

شعرت بمغص في قلبي ربما أنا الوحيدة التي يأتيها المغص قلبيّاً لا معديّاً شعرت بانقباضه وتقلصه وشعرت بتقصيري وجبني وشعرت بخيبتي بك، أجبتها وقد بدا الحزن واضحاً على ملامحي.

- أجل أعرف.

- حالتها سيئة يا عليا.

Telegram: electronic_library

جاءت جملتها قاسية جدّاً، جاءت مؤنبة ومستغربة وحزينة كأنها تذكرني بها، تعاتبني وتقول لي: هذه مريم ماذا تفعلين أنتِ!؟ ربما حَمّلت جملتها أكثر مما تحمل وربما حملتها ما أشعر به أنا تجاه نفسي، ثم استأذنت وعادت إلى صديقاتها وتهت أنا في شرودي وتأنيبي لنفسي ولك ربما أو حتماً. قال لها عادل إنه أرسل رسالة لي عبر موقع الفيسبوك ولم يتلقَ رداً مني عليها أو أني لم أقرأها أصلاً، لأني تعمدت يومها أن لا أفتحها حتى لا تظهر لديه مقروءة، وأنا أعرف أني لن أستطيع الرد عليها، فإن يفكر أني لم أجدها ولم أقرأها لانشغالي أفضل من صمتي الذي لن يفهمه أبداً.

استيقظت يوماً على صوت الهاتف ووجدت رسالة قد وصلتني منك كتبت فيها: «لو خانت الدنيا وخان الناس وابتعد الصحاب عيناكِ أرضٌ لا تخون». استغربت رسالتك وسعدتُ بها رغم أنها كانت منطقية بعد أن تحدثنا مساءً عن صديقك أو الذي كنت تراه كذلك، خان عهد الصداقة التي بينكما وطعنك من الخلف، كنت يومها منزعجاً جدّاً متوتراً وحزيناً فاحتويت أنا كل ذلك الحزن وكل ما كنت تشعر به وبقيت أقول لك: إنني هنا ولن أغيب يوماً فليرحل من يرحل، لا تحتاج إلى أحد ما دمت إلى جانبك فكانت رسالتك على ما يبدو تكملة لحديث الأمس، بعدها بدقائق وصلتني رسالة أخرى منك كتبت فيها: «فاروق جويدة،

Telegram: electronic_library

نسيت أن أقول إنها له قبل أن تفكري أنها لي ككلمات غسان تلك المرة» وأرفقت مع الرسالة وجهاً مضحكاً جعلني أضحك وأتذكر يوم أعجبت بتلك المقولة التي رددتها أمامي وكانت لغسان كنفاني وظننتها من بنات أفكارك اللّاتي أود قتلهن، كنت تعرف أن عيني أرضٌ لا تخون لكنك كنت تبعدني عن أي أحد بدافع الغيرة المفرطة التي تُشعرني بعدم ثقتك بي وعدم قدرتي على قياس الأمور والتعامل معها؛ عدت كطفلة لا تعرف أن تتصرف من تلقاء نفسها لأنها تخشى أن تُخطىء أو أن ترى أنت ما فعلته خطأ. كنت أحتاج إلى مساحة أكبر أتنفس بها وتثق أنت من خلالها أني أرضٌ لا تخون، لا أن تضعني في قفص وتردد عليّ هذه الكلمات. قال لي يوماً أحدهم: «ليس الأمين هو من لا يسرق، الأمين هو من وجد فرصة ومالاً ولم يسرق». جملته عميقة بالقدر الكافي لتعمم على كل الصفات التي نُنعت بها، ليست صفة الأمانة فقط ولكن على كل شيء يمكن أن نتحلى به ونحن تنقصنا فرصة لو وجدت لاختفت هذه الصفة منا إلى الأبد.

حاولت أن أضع نفسي في العلبة التي اخترت أن أكون فيها، حاولت أن أتنفس الفراغ وعشت التوحد معك أنت فقط ولا شيء سواك، أصبحت كأحد شرايينك وتجولت في دمك واخترقت نبضك لكنك يا آدم رجلٌ متطلب رجل لا يعرف للقناعة طريقاً

Telegram: electronic_library

مهما انخرطتُ في حبك كنت تريد المزيد ومزيدك من المزيد أصبح يؤذيني، تبعثر نومي على مزاجك، تبدأ كل شيء وتنهيه متى تريد تفسد مخططاتي، تعبث بجدول مواعيدي، بخزانة ثيابي، بعلبة أصباغي، أصبحت تقرر عني متى أقوم بأعمالي المنزلية ومتى أؤجل كل شيء ما إن حضر صوتك أو ظلك؛ آه من حُبك كم أحببته. كان حبك رجلاً آخر غيرك يقاسمك قلبي. حتى بدأ يعتصر قلبي حبك رجل أناني يغار حتى منك ويقلق عليّ مني طالما لم أستطع لومك فألوم أي أحد غيرك وإن كان أنت وهو واحد..

سأنتهي من هذه السطور وأنتهي بينها ولن تجد شيئاً منها. لن تجوب المكتبات بحثاً عني ولن تجمعني الصدفة بك مرةً ثانية وإن كنت أنا على شكل حروف وكنت أنت على شكل عيون، بعد أن فرقنا مشفى لن تجمعنا مكتبة.

كُنا في المعهد وبعد أن تركتني لتذهب إلى حصة التمرين، وبينما أنا أنظر إليك وأنت تبتعد بخطواتك بعيداً عني، التفت إليّ، ابتسمت وأرسلت لي قبلة في الهواء جعلتني أبتسم فرن هاتفي فجأة وعقد الاسم الذي ظهر عليه حاجبي وألغى تلك الابتسامة، كان عادلاً هو المتصل وكنت أنت قد غبت عن نظري عندما دخلت تلك القاعة حيث تتمرن أنت ومجموعة طلاب من المعهد

Telegram: electronic_library

استعداداً لحفلة قريبة. بقيت جامدة عدة ثوان حتى كاد الاتصال ينقطع وربما قبل آخر رنة له قررت أن أضغط على زر الإجابة.

- أهلاً عادل.

قلتها بابتسامة مجاملة ومعتذرة عن كل ذلك الإهمال وعدم الرد كأني سأبدأ بالاعتذار بعد هذه «الأهلا» أو أجعل العتب منه أخف بعد هذه التحية الودودة.

- أهلاً عليا.

قالها وهو بكل هدوء العالم وحزنه حتى غابت ابتسامتي التي رسمتها هذه المرة لأجله فقط ولتقصيري تجاهه وتجاه مريم. بقيت صامتة أنتظر أن يقول شيئاً فعلى مايبدو أنه اتصل ليقول شيئاً ما وكان عليّ أن أصمت لأعطيه كل الوقت ليسرد حزنه الذي بدا واضحاً من مجرد تحيته وحروف اسمي، قال بعد ثوانٍ من الصمت:

- أين أنتِ، أقصد هل أنت مشغولة؟

- لا أبداً، هل أنت بخير؟

بدأت أقلق من نبرته وبدلاً من أن أسأله إن كانت مريم بخير سألته إن كان هو بخير، كأني كنت أتعمد أن أخفي علمي بأي شيء عنها حتى ولو بيني وبين نفسي. لم أعد أحتمل تأنيب روحي لي

Telegram: electronic_library

وأنا أهمل إنسانة كانت الأقرب إليّ على مدى سنوات، كنت فيها ضعيفة ووحيدة. قال وكأنه يعد الحروف حتى لا يُخطئ جمله:

- مريم في المستشفى.

نهضت من مكاني ما إن قال لي ذلك وبـدأت أطرافي ترتجف، بدأت أنهال عليه بالأسئلة كيف؟ ولماذا؟ ومنذ متى؟ وهل هي بخير؟ وماذا قال الطبيب؟ وأي مستشفى؟ ملأت الدموع عيني وهو يخبرني أن حالتها سيئة جدّاً وهي في المشفى منذ البارحة مساءً فقدت الوعي لبعض الوقت وعندما صحت من غيبوبتها القصيرة سألت عني فاضطر أن يتصل بي. قال ذلك وكأنه يخبرني أنه يعتذر لاتصاله أو ربما نادم لاتصاله أو أنني لا أستحق هذا الاتصال مهما كان ما قصده وقتها فهو محق، فقد كنت سيئة وبسببك أنت يا آدم، كنت قاسية وجاحدة لامرأة كنت أشعر أنها أمي أحياناً. امرأة ربما أيامها في هذه الحياة معدودة وتحتاج من الجميع أن يكونوا حولها، فمهما كان الإنسان مؤمناً أو قوياً لا أحد منا لا يخاف الموت. مهما كانت تخفي حزنها وخوفها وتمارس قوة لا أعرف من أين تستمدها كانت مريم خائفة كانت تحتاج إلى أن أكون بقربها وأخبرها أنها ستكون بخير وأنها تبدو أصغر مني فتضحك وتسخر من كلامي لكنها تسعد به في داخلها. كنت قريبة منها رغم فرق السن الذي بيننا وكانت تراني ابنتها التي تمنت ولم

Telegram: electronic_library

تحظَ بها فلِمَ تحرمها أنت والحياة من ابنة لن تكون يوماً هي أمها، بعد هذا الاتصال لم يعد بوسعي أن أتجاهل الأمر أكثر ولم أكن أستطيع أن أمتثل لأوامرك أكثر فأنت حتماً ستفهم، حتماً ستعرف أن الأمر يستحق منك أن توسع نطاق غيرتك وتمنحني بعض الهواء وإن كان لأجل غيري. جلست على مقعدي أنا والخوف إلى الطاولة نفسها. كانت ساعة التمرين طويلة جدّاً وأنا أنظر كل دقيقة إلى ساعتي. كنت أريدك إلى جانبي، احتجت أن تقويني لأستطيع أن أقويها أو أن أتقبل فكرة فقدانها. انتظرتك طويلاً حتى هطلت عليّ أخيراً بابتسامة، قلت شيئاً فشيئاً وأنت تقترب نحوي حتى وقفت أمامي وسألتني باستغراب:

- لمَ وجهك شاحب؟! هل انخفض ضغطك مرة أخرى؟

نظرت إليك وقد بدأت الدموع تنهمر كعادتها فهي تقتات الصبر حتى مجيئك، جلست وأنت تمسك بيدي:

- حبيبتي ماذا جرى؟

- مريم في المستشفى اتصل عادل الآن وقال ا.....

لم أكمل كلامي وأنا أبكي كالصغار حين يشتكون لوالديهم من إساءة الآخرين إليهم لكنك كنت أقوى من دموعي وقاطعتني:

- من من؟!! ألم نتفق أنك لن تردي على اتصاله؟!

- آدم افهم بربك ليس وقت غيرتك الآن.

Telegram: electronic_library

- ماذا أفهم أنك تحتجين بأي سبب للحديث معه.

ضقت ذرعاً بعد جملتك هذه وبكيت بشدة وأنا أخبرك بكل ما قاله لي عن حالتها وأين هي الآن وأنها تريد أن تراني قبل.. لم أكن أريد أن أفكر في شيء وقتها، أردت أن أكون معها فقط وأعرف أنها ستكون بخير ولكن يجب أن أكون معها.

- لن تذهبي إلى أي مكان وكذلك المستشفى بعيدة.

- تعال معي.

- وبما ستعرفينني إليهم؟

- أذهب مع والدتي.

- عليا، لن تذهبي وانتهى الأمر.

وانتهى الأمر؟ هكذا تنهي نقاشاتك معي عادة وتعرف أن الأمر انتهى لأني لن أفعل شيئاً أنت نهيتني عنه. عدت وأنا أفكر هل يجب عليّ أن أكون هكذا معك؟ هل من الصائب أن أمشي خلفك مغمضة العينين حتى أخسر نفسي شيئاً فشيئاً؟ ربما أخسر حبي لك فالحب يجعلنا سعداء يا آدم وليس العكس، وأنا كنت قد أصبحت حزينة معك منذ مدة. الحرية أمر ضروري في أي علاقة ليست حكراً على علاقة الشعوب بالأوطان والطيور بالأقفاص، الحرية كالماء يجب أن توجد في أي مكان ولولاها تختفي منه الحياة، وأنت بدأت تُقتر عليّ الحرية حتى قطعتها تماماً، وكنت

Telegram: electronic_library

ترى في ذلك حبّاً وكنت أرى أن في ذلك تعاسة ولن أسمح أن أكون معك تعيسة. قررت أن أنتفض وأن أغير طريقة حبك لي وأن أكف عن الانقياد خلفك في كل شيء. قررت أن أكون أنا وعليك أنت أن تتقبل ذلك، غيرت وجهتي من البيت إلى المستشفى حيث توجد مريومتي الحبيبة، لم أعد أتحمل أن أتركها أكثر من هذا، خصوصاً بعد أن اتصل عادل وحتماً عرفت عن اتصاله بي فكيف لي أن أجعلها تنتظر. ذهبت إليها وأنا أنتظر أن تستقبلني كما تفعل دوماً بابتسامتها ووجهها المشرق، بأناقتها وشعرها المصفف بطريقة رقيقة. ذهبت إليها وأنا التي تريد منها قوة وأريد منها طمأنينة وقررت وأنا في طريقي الطويل إليها أن أخبرها عنك وأن أثرثر لها بك لكي تقول لي ما الحل معك وكيف أطفئ فيك كل تلك الحرائق قبل أن تحرقني وتحرقك. شعرت بغباوتي وأنا أخبئك عن الجميع، ربما لو عرف الكل بتورطي في حب رجلٍ مثلك لكنت أقل حزناً ولكنت أنت أكثر رضى لكني تأخرت.

وصلت إلى المستشفى وأنا أسأل عن غرفة مريم إدريس وشعرت برغبة في الركض، كنت أشعر أني أضعت الكثير من الوقت وأن الوقت بدأ ينفد مني ومريومتي تنتظرني وقد طال انتظارها حتى أني نسيت أن أتصل بأمي وأخبرها أين أنا، وعندما تأخرت في العودة اتصلت هي بي وأنا في طريقي إلى غرفة مريم

Telegram: electronic_library

أقطع السلالم الطويلة لأني أخاف المصعد. كانت أمي قلقة فأخبرتها أين أنا وقلت لها: إن مريم ليست بخير فقالت إنها ستكون عندي بعد قليل..

وصلت إلى غرفتها حيث كانت كأميرة نائمة. مستحيل أن تكون هذه المرأة مريضة بالسرطان، أي مرضٍ هذا ليجعل منها الأجمل كانت نائمة بسلام وابتسامة ترتسم على شفتيها، وكان عادل يجلس بجوارها على كرسي قريب منها يخبئ وجهه بيديه وهو منحنٍ إلى الأمام. كانت الغرفة خالية إلّا منهما وقلت بصوت منخفض قليلاً وأنا أسحب أنفاسي بقوة:

- هل هي نائمة!؟

رفع عادل وجهه وكان غارقاً في دموعه ونهض من مكانه وتوجه نحوي واحتضنني بقوة وقال:

- ماتت.

تسمرت في مكاني حيث أقف وشعرت فجأة ببرودة تجتاح كل أوردتي. عادل يحتضنني بقوة ويشهق بالبكاء وأنا لا أحتضنه ولا أفعل شيئاً عيناي على مريم النائمة أمامي والتي يقول عنها إنها ميتة، حتماً إنه يهذي. لم أشعر به وهو يمسكني بقوة وصوت بكائه يكاد يخترق طبلة أذني، كنت أنظر إليها من خلفه حتى جاء صوتٌ من خلفي أوقف بكاء عادل قائلاً:

- كما توقعت.

Telegram: electronic_library

ابتعد عني عادل قليلاً ونظر إلى وجهي كأنه يسألني بعينيه وأنا ما زلت أنظر إلى مريم ثم التفت لأجدك تقف عند باب الغرفة وعيناك تحترقان نظرت إليّ وأنت تطبق أسنانك بقوة خيل إلي أنك ستصفعني لكنك أعطيتني ظهرك ومضيت مبتعداً. مر الوقت كأنه متوقف وسريع لا أعرف إن كانت تلك اللحظات داخل حساب الزمن أم لا، لكني لا أذكر ما جرى بعدها فقد فقدت الوعي.

ها هي مريم ترحل قبل أن أراها كجسدٍ وروح رحلت دون أن تعرف أني جئت إليها، جئت عندما طلبتني. لقد ذهبت وهي تظن أني خذلتها ولم أهتم بأمرها. مريم ماتت يا آدم وأنت تخليت عني لأنك تراني امرأة خائنة، امرأة تخون حبيبها في مشفى وأمام ميت. مريم الرائعة اختفت ولم تعد موجودة بعد اليوم، اختفت قبل أن أخبرها عنك. اختفت وحطمت قلبي. أنا امرأة لا تتحمل الفقد وأصبح الفقد ملازمي. استيقظت لأجدني ملقاة على سرير في غرفة تشبه الغرفة التي كانت فيها ورأيت وجه أمي عندما فتحت عيني وكانت تبكي وتنظر إليّ بحزن. نهضت من مكاني وأنا أصرخ أين مريم أين أخذوها وشعرت بدوار وكأن صوتي غير مسموع. شعرت أني أتكلم ولكني لا أسمع صوتي. احتضنتني أمي وحاولت تهدئتي كنت أريد أن أراها؛ كنت أريد أن أعرف إلى

Telegram: electronic_library

أين أخذوها كان يجب أن تراني قبل أن تذهب؛ كانت تريد أن تقول لي شيئاً وكنت متأكدة أنها أرادت ذلك. ذهبت وفي قلبها الكثير من الكلام، ذهبت وهي زعلانة مني. كنت أريد مريم، وبعد حقنة مهدئ بحثت عنك، نظرت إلى أمي وأنا في خدر المهدئ وسألتها: أين آدم؟ ونمت قبل أن تجيبَني أو قبل أن تسألني من آدم؟ بقيت يوماً كاملاً في المشفى أحصل على مخدرات مجانية كي أرحمهم من صراخي وبكائي المتواصل، وكنت أسأل عنك بين الحين والآخر، لا أعرف إن كنت أسأل داخلي أم أسألهم.

خرجت بعد يوم ونصف يوم من المشفى وأنا أتكئ على غيث وأمي. لم أرَ عادلاً ولم أسأل عنه وحتماً لم أرَ مريم ولن أراها بعد اليوم. عدت إلى البيت ارتميت على سريري ونمت يوماً أو اثنين، لا أعرف كم نمت ولم أسأل. كانت أمي تضع الطعام في فمي وتعطيني دواء لا أعرف لماذا وتدعني أنام من جديد. كانت متألمة هي الأخرى لما حدث لكنها أم عراقية ووحده هذا البلد يعرف ما تعني هذه الكلمة، فهذا الوطن يعرف نساءه جيداً وقسا عليهن جيداً جعل منهن ثكالى وأرامل وأيتاماً. فهذا الوطن يأكل الرجال حتى صنع من النساء مخلوقات أقوى مما يبدو عليه وهن أجسادهن كأن تقول جبلاً وتصمت، فالاسم يكفي لأن تتخيل ما

Telegram: electronic_library

يمكن أن تتحمل هذه المخلوقة وما تحملت عبر السنين وبقيت واقفة كما هي تئن بصمت وتبكي بصمت.

ربما كنت أحتاج إلى القسوة حتى أنهض من جديد. لذلك وبختني أمي بقوة بعد أيام من الحنان وأخبرتني أن الحياة لا تنتهي بعد أحد، ويجب أن أكون أقوى من هذا فالعمر ما زال طويلاً ولم أرَ منه شيئاً حتى الآن، لا أعرف لِمَ نهون المصائب على أنفسنا بأن هناك أكبر منها، لذلك يجب أن نستعد منذ الآن وننهض لنجهز لها في كل مرة يسقط منا شيء لا نلتفت إليه أو لا نقوى على استرجاعه، ربما لذلك نحن شعوب قاسية لأنها دائماً تتوقع الأسوأ فتجهز له قوة وتطبخ له قسوة، وماذا عن الحزن؟ أليس هناك وقت لنحزن فيه حتى ننتهي من الحزن فنقوم أصحاء؟ أين حرمة الأشياء؟! لم نكابر مادمنا ضعفاء ولِمَ نبكي خلسة وفي الخفاء؟! ربما لو تركوا أمي تبكي عندما مات أبي كما تريد حتى تنتهي من حزنها وتنهض وهي مكتفية منه لكانت الآن أفضل، لو لم يهددوها بأن الغد أصعب ويجب أن تجهز له كومة لا مُبالاة لكانت الآن أسعد. عندما لا تنتهي من شيء إلى آخر نقطة فيه يبقى يلاحقك إلى آخر يوم في حياتك، لأن موعده قد انطفأ لكن بقي لديك الكثير منه مهما بذرته على مدى السنين لن ينفد وخصوصاً الحزن، ما إن تنتهي منه دفعة واحدة وتنفض ترابه وتنهض أو ترميه

Telegram: electronic_library

خلف ظهرك حتى يبقى يأكل سني عمرك كما يشاء حتى آخر لحظةٍ فيها.

وضعتني في الحمام وطلبت مني أن آخذ حماماً طويلاً وأخرج بعده قوية ومؤمنة، فهي لا تحتمل أن أكون هكذا فما في داخلها يكفي لا ينقصها أن تراني على هذا الشكل، كان هذا كلامها لي، هي ترفض أن آخذ وقتي في الحزن وتخبئ هي حزنها للمساء تنفرد به كعاشقين، بقيت تحت الماء قرابة الساعة وتمنيت أن أغسل حزني فيسقط عني وأخرج بعد هذا الحمام الطويل كما طلبت مني أمي أن أكون، لكننا شعوب تلبس الحزن جلداً.

كان هاتفي يرن عندما خرجت من الحمام وعند آخر رنة انقطع الاتصال، كنت قد أهملت هاتفي طوال تلك المدة ولا أعرف شيئاً عن أي شيء. وجدت عدة مكالمات من رهف وهالة وآخرين إلّا أنت لم أجد منك شيئاً كأنك كنت حُلماً والآن صحوت منه، آخر متصل كان هالة حتماً تعرف بما حدث وربما أرادت أن تطمئن إليّ فكرت أن أتصل بها ولكن بعد ثوان لم أجد القدرة على فعل أي شي حتى الكلام، وبينما أنا أفكر عاودت الاتصال، بقيت أنظر إلى الهاتف ولا أعرف إن كنت سأرد أم لا ولكن أخيراً قررت أن أرد:

Telegram: electronic_library

- عليا.

- أهلاً هالة.

- كيف حالك حبيبتي.

- الحمد لله.

- البقاء لله.

بقيت صامتة ولم أعرف بم أرد عليها، هي تعزيني الآن بمريم ولا أملك رداً أو فكرة بعد أن كانت مريم روحاً تخبرك أن هذا الكون ما زال فيه سلام، الآن أنا أستقبل التعزية بهذا السلام، تفهمت صمتي كانت هي الأخرى متأثرة بوفاتها ولكنها كانت أقوى مني بكثير، وأضافت قائلة:

- ألن تأتي للعزاء، غداً آخر يوم؟

أنا لم أحضر يوماً عزاءً في حياتي. كانت أمي تمنعني من هذا الواجب وتعتذر عن حضوري في أي مجلس بحجة أني ما زلت صغيرة أو مريضة أو أي شي آخر، ربما لأنها لا تريدني أن أرى كل هذا الحزن مجتمعًا تحت سقف واحد يقدم الدموع قرباناً إلى ذلك السواد الذي يعم كل شيء، أو ربما لأنها تريد أن تبكي بحرية، فكل المواسين الذين يحضرون يبكون أنفسهم أو عزيزاً لهم، كل منهم يبكي شيئاً يخصه. أهل الميت وحدهم من يبكون الحاضر ويكون حزنهم طازجاً، أما البقية فهم يبكون الماضي

Telegram: electronic_library

سواء كان قريباً أو بعيداً حزنهم عتيق يحمل المرارة والصبر فتكون دموعهم هادئة أمام تلك الدموع الطازجة التي لم تنطفئ حرارتها بعد ولم تصل إلى آخرها فتتذوق المرارة فكلما بات الحزن صار أعمق.

لكن الأمر الآن مختلف، فأنا أملك حصة من تلك الدموع الطازجة وأنا لي من ذلك العزاء إرث، قلت لها وأنا عازمة على الذهاب للعزاء:

- هل سيكون في بيتهم.

- لا في الكنيسة.

لم أفهم ما قالت ولم أستوعبه، كيف يكون العزاء في كنيسة؟ عادة ما يكون العزاء في بيت الميت وصيوان عزاء في باحة المنزل أو شارع البيت أو في أحد الجوامع ويكون للرجال أما النساء ففي البيت، قلت لها باستغراب:

- كنيسة؟!

- ألا تعرفين أنها مسيحية؟

ذهلت ولم أصدق ما قالت، أكانت مريم مسيحية!! كيف لم أكن أعرف وأنا التي أعرفها على مدى سنوات؟ كيف لم يبدُ ذلك وكيف لم ألحظهُ في كل كلامنا في كل نقاشاتنا معاً؟ كيف استطاعت أن تخفي هذا الشيء ولِمَ لم تجهر به؟ نعرف كلانا أن

Telegram: electronic_library

لا فرق إن كانت مسيحية أو مسلمة أو أي ديانة أخرى، ولكن لِمَ أخفت ذلك وكيف لم ألحظه أنا؟ بقيت في كومة تساؤلات تضرب رأسي وكأني أتعرف إلى إنسان أعرفه منذ زمن للمرة الأولى. انتابتني مشاعر غريبة، هل كنت بعيدة عنها إلى درجة أنها أخفت هذا الشيء أم أي نظرة تراها تنظر إليّ بها كي لا تصارحني بهذا الأمر أو حتى تعمل على إخفائه، بعد لحظات من الذهول أجبت هالة وأنا شبه غائبة:

- لا.. لا أعرف.

- عليا لا تنزعجي ولا تتحسسي أعرف ما تفكرين فيه الآن لأني فكرت فيه سابقاً، أنا عرفت الأمر مصادفة ولم يخبرني به أي منهما لا عادل ولا مريم وبقيت مذهولة، لم يخفيا الأمر حتى فهمت أنهما هكذا ببساطة لا يعنيهما، ولا فرق عندهما إن عرف الآخرون أو لا.. عليا، ألست تَعرفين مريم رحمها الله كيف كانت تفكر؟!

بقيت هالة تحاول أن تبرر الموقف أو توضح لي الصورة حتى لا أنزعج لأنه لا يوجد أقسى من أن تنزعج أو تزعل من إنسان ميت لا يستطيع أن يدافع عن نفسه أو أن يقول رأيه ويصحح لك فكرتك فقامت هالة بهذا الدور، ربما لأنها تشعر بقسوته رغم

Telegram: electronic_library

أن الأمر لا فرق له عندي، إلّا أني حزنت لأني كنت بعيدة إلى هذه الدرجة التي لا أعرف بها ديانة مريم.

لم تعرف عني شيئاً طوال تلك الأيام حتى بعد أن عرفت ماذا حدث من رهف التي اتصلت بك لتطمئنك إليّ فصدمت أنك لا تريد أن تعرف أي شيء يخصني ولم تفهم لماذا أنت هكذا؟ رفضت أن تبرر لها موقفك وزدت فقط من قلقها حتى حملت نفسها وجاءتني لتفهم ماذا يحدث، شعرت بيدها وهي تمسح رأسي بينما كنت نصف نائمة، فتحت عيني لأجدها مستلقية على السرير إلى جانبي ونظرت إلى عينيها فابتسمت لي، خبأت وجهي فيها فحضنتني وبدأت أشعر بحرارة تنساب على خدي، بكيت بكل الهدوء الذي في الكون في حضنها وهي تربت كتفي وتمسح رأسي وتخبرني أن كل شيء سيكون أفضل، لكني وحدي كنت أعرف أن لا شيء سيكون أفضل ولا شيء سيعود كما كان، لا مريم ولا أنت ولا أنا، شعرت وقتها أن حضن رهف فقط هو الذي أحتاج إليه، أحتاج إلى حضن رفيقتي وصديقة عمري، وحدها هي التي لا أحتاج أن أبرر شيئاً معها ولا أحتاج أن أشرح؛ تتقبلني بكل طهري وأخطائي وتجد طريقها إليّ كلما احتجت إليها. تنتظرني أن أنتهي من حزني وبكائي وحاجتي إليها لتعدل من جلستها وتطلب مني أن أغسل وجهي وأعود بينما تعد هي لنا القهوة.

Telegram: electronic_library

جلسنا نشرب قهوتنا بصمت، أنا أنظر بعيداً وتنظر هي إليّ وبعد قليل من الصمت قالت:

- كيف حالك الآن؟

- لا أعرف.

- يجب أن تعرفي، لن تبقي هكذا طوال عمرك ستتجاوزين الأمر.

- البارحة كان عزاء مريم ولم أذهب.

- ما زال هناك يوم سنذهب غداً أنا وأنتِ.

نظرت إليها وكأني أهزأ من نفسي لما سأقوله ولما هي لا تعرفه مثلي.

- البارحة كان آخر يوم أو ربما هو يوم واحد فقط في الكنيسة.. مريم مسيحية.

قلت جملتي وكان كل الوقت لي بأن آخذ رشفة من قهوتي وأخبرها بأنها مسيحية، لأنها كانت عاقدة الحاجبين تحاول التركيز فيما أقول وفيما لا تفهم، بقيت تحدق إلي وربما اعتقدت أني تلقيت ضربة على رأسي أو لم يفدني الماء والقهوة لأصحو بعد، قالت بعد صمت:

- عليا حبيبتي مَن المسيحية؟

- مريم.

Telegram: electronic_library

- كيف هذا؟! منذ متى؟

-منذ البداية، أنا التي لم تكن تعرف فقط.

أخذت دقائق لتفكر أو ربما لتستوعب الأمر ثم قالت:

- وعادل؟!

نظرت إليها باستغراب من سؤالها ماذا تقصد بـ«وعادل»، حتماً هو كذلك.

- ماذا تعتقدين! مسيحي طبعاً..

- ليس شرطاً.

- كيف؟!!

- يمكن أن يكون من أم مسيحية وأب مسلم، ليست غريبة عندنا هذه الزيجات.

لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة وربما لم أفكر في عادل وماذا يكون ولا أعرف حقّاً ما الذي كنت أفكر فيه في تلك الفترة، ربما كنت حزينة إلى درجة اللّاتفكير، فالموت والفقد لا يحتاجان إلى العقل بل يحتاجان إلى عينين وكومة من دموع فقط.

- لا يهمني ما يكون.

- بل يهمك.. لو كنت مكانك لغضبت من كونه صديقي ولا أعرف معلومة مهمة كهذه عنه.

- تعرفين أن لا فرق عندي.

Telegram: electronic_library

- ربما بين الأديان، ولكن أنسيتِ أنه يحبك؟!

بقيت أنظر إليها وكلامها يدور في عقلي وأحاول أن أفهم إلى أي مكان تريد أن تصل إلى أن أضافت قائلة:

- لا يحب مسيحي مسلمة.

على ما يبدو أن رهف لم تتجاوز عقدة الاختلافات المذهبية والطائفية فهي ترى أول خطوة في الحب هي التوافق الديني رغم أنها لم تنتبه لها عندما أحبت سامراً؟ لم أشأ أن أدخل في نقاش معها، كنت أضعف من أن أحاور أحداً في أمور معقدة كهذه، ولكن كلامها جعل فكرة جديدة تولد في رأسي، هل يجب أن أغضب من عادل حقّاً لأنه لم يخبرني بشيء كهذا أو حاول إخفاءه؟ وتلتها فكرة هل امتنع الإفصاح عن حبه لأنه من دين غير ديني أم أن الأمر لا يهمه؟ وربما كان هو مسلماً وربما لم يقل لأنه يعرف مسبقاً إحساسي تجاهه؟ ورغم كل هذه الأفكار بقي الموضوع برمته غير مهم إن كان عادل مسيحياً أو مسلماً فأنا أحبه كما هو ولن تغير المسميات نظرتي إليه سوى بعض الفضول لمعرفة الجزء الذي لا أعرفه عنه وعن مريم، ثم أضافت قائلة كمن ندم على ما أقدم عليه من حديث فقرر العودة إلى بدايته:

- عموماً إن العزاء ليس مهمّاً ما هو إلّا مجاملات وواجب، أتعتقدين أن كل من في العزاء يعز عليهم الذي مات؟ أبداً، ولكن

Telegram: electronic_library

الكل يأتي لإسقاط فرض لا أكثر، ووحدهم الذين يعنيهم الذي رحل يغلقون على أنفسهم بعيداً عن الجميع كحالتك الآن.. عليا أعرف أنك تحبينها كثيراً وربما تعني لك الكثير ولكن هذه هي الحياة.

كنت أعرف أن هذه هي الحياة، ولكني لم أفهم بعد لم أنا مشمولة بخطة الفقد التي تمارسها عليّ هذه الحياة ولِمَ تحاصرني بأشخاص أحبهم وأعتادهم ثم تسحبهم مرة واحدة.

يبدو أن هذا الموضوع شغل رهفاً عن الموضوع الذي كان يحيرها وجاءت من أجله وتخيلت أني في حالة سيئة بسببه، لكنها تذكرته أخيراً، بعد أن تجاوزت مفاجأة ما أخبرتها به فقالت كمن تذكر شيئاً مهماً:

- صحيح، ما الذي جرى بينك وبين آدم؟

أجبتها باستغراب:

- هل تحدث معك؟

- أبداً، اتصلت به لأطمئنه إليك واستغربت عدم اتصاله بي وكنت أعرف أنك في حالة نوم دائمة تقريباً كما أخبرتني والدتك فحتماً إنك لم تكلميه وحتماً سيكون قلقاً بشأنك فاتصلت به وفوجئت..

Telegram: electronic_library

- ربما بين الأديان، ولكن أنسيتِ أنه يحبك؟!

بقيت أنظر إليها وكلامها يدور في عقلي وأحاول أن أفهم إلى أي مكان تريد أن تصل إلى أن أضافت قائلة:

- لا يحب مسيحي مسلمة.

على ما يبدو أن رهف لم تتجاوز عقدة الاختلافات المذهبية والطائفية فهي ترى أول خطوة في الحب هي التوافق الديني رغم أنها لم تنتبه لها عندما أحبت سامراً؟ لم أشأ أن أدخل في نقاش معها، كنت أضعف من أن أحاور أحداً في أمور معقدة كهذه، ولكن كلامها جعل فكرة جديدة تولد في رأسي، هل يجب أن أغضب من عادل حقّاً لأنه لم يخبرني بشيء كهذا أو حاول إخفاءه؟ وتلتها فكرة هل امتنع الإفصاح عن حبه لأنه من دين غير ديني أم أن الأمر لا يهمه؟ وربما كان هو مسلماً وربما لم يقل لأنه يعرف مسبقاً إحساسي تجاهه؟ ورغم كل هذه الأفكار بقي الموضوع برمته غير مهم إن كان عادل مسيحياً أو مسلماً فأنا أحبه كما هو ولن تغير المسميات نظرتي إليه سوى بعض الفضول لمعرفة الجزء الذي لا أعرفه عنه وعن مريم، ثم أضافت قائلة كمن ندم على ما أقدم عليه من حديث فقرر العودة إلى بدايته:

- عموماً إن العزاء ليس مهمّاً ما هو إلّا مجاملات وواجب، أتعتقدين أن كل من في العزاء يعز عليهم الذي مات؟ أبداً، ولكن

Telegram: electronic_library

الكل يأتي لإسقاط فرض لا أكثر، ووحدهم الذين يعنيهم الذي رحل يغلقون على أنفسهم بعيداً عن الجميع كحالتك الآن.. عليا أعرف أنك تحبينها كثيراً وربما تعني لك الكثير ولكن هذه هي الحياة.

كنت أعرف أن هذه هي الحياة، ولكني لم أفهم بعد لم أنا مشمولة بخطة الفقد التي تمارسها عليّ هذه الحياة ولِمَ تحاصرني بأشخاص أحبهم وأعتادهم ثم تسحبهم مرة واحدة.

يبدو أن هذا الموضوع شغل رهفاً عن الموضوع الذي كان يحيرها وجاءت من أجله وتخيلت أني في حالة سيئة بسببه، لكنها تذكرته أخيراً، بعد أن تجاوزت مفاجأة ما أخبرتها به فقالت كمن تذكر شيئاً مهماً:

- صحيح، ما الذي جرى بينك وبين آدم؟

أجبتها باستغراب:

- هل تحدث معك؟

- أبداً، اتصلت به لأطمئنه إليك واستغربت عدم اتصاله بي وكنت أعرف أنك في حالة نوم دائمة تقريباً كما أخبرتني والدتك فحتماً إنك لم تكلميه وحتماً سيكون قلقاً بشأنك فاتصلت به وفوجئت..

Telegram: electronic_library

لم تكمل رهف كلامها وسكتت فجأة كأنها قالت شيئاً كان من المفترض أن لا تقوله.

- بما فوجئت! لا يهمه أمري!

أجبتها وكأني أعرف موقفه هذا مسبقاً ولم أستغرب عدم مواصلتها الحديث.

- ما الذي حدث يا عليا ليكون غاضباً وحاقداً عليك إلى هذه الدرجة ولا يريد أن يعرف أخبارك رغم أني أخبرته بوفاة مريم وبالحالة التي تمرين بها؟

- لا شيء.. لم أعد أهتم.

- لا تكذبي على نفسك، أنت الآن لا تفكرين في شيء لأنك مأخوذة بما حدث أخيراً ولا يعني هذا أنك لم تعودي تهتمين.

ربما كنت وقتها هكذا.. مأخوذة كما قالت رهف بما حدث ولكني كنت أحتاج إلى وجودك إلى جانبي، كنت أحلم بك طوال فترة نومي وعندما أصحو، كانت كل رنة هاتف أتخيلها أنت وكل طرقة باب أظنها أنت، لكنك يا آدم أقسى من أن تنسى أو تلتمس لي عذراً لتكون معي، وإن لم يكن لأجلي فلأجلك وتحتج بي وبحالتي وبيأسي وانهياري لتكون قربي ومعي ولي، لكنك رجل لا ينسى ولا يسامح ولا يغفر لأنك رجل لا يسمع، كنت تقول دائماً: الأشخاص الذين لا يصغون إلّا إلى صوت عقولهم حمقى،

Telegram: electronic_library

لكنك لم تدرك أنك لا تسمع إلّا صوت عقلك ولم تدرك حينها ما أحمقك لتكسر قلبينا ولتفرط فينا إلى الأبد، لتهب للمسافات البعيدة أنفاسنا وتغربنا وضياعنا ولولا ما فعلت لكنت الآن معك.

وهل يجوز لك أن تُسمي ما حدث حماقة؟! غباوة أم غيرة؟! كل تسمياتك لم تبرر ما فعلت، كان يجب أن تهب لي عقلاً آخر مع عقلي عله يستوعب، عله يفهم وعله ينسى وأعود إليك.

طالما كنت أرى أن غضب النساء غيوم مهما تجمعت ومهما تزاحمت وتصارعت وغضبت، كلما زاد لونها وأصبح قاتماً ستمطر أخيراً بعد يوم أو اثنين، بعد شهر ستمطر وتروي الحب ولا تقتله، تُعيده نضراً بعد ليلةٍ طويلة من مناخ حزين وثقيل، وغضب الرجال بركان مهما كان هادئاً وحكيماً مهما كان عتيقاً وقديماً ما إن ينفجر حتى يدمر كل شيء ويمحو كل أثر خلفه، وبعد أن ينتهي من حممه يبحث عن زهرة برية نبتت يوماً فوق سطحه.

غبت عني فترة كافية لأعرف أني لا أستطيع العيش بدونك لا أستطيع وإن كنت تراني تلك الخائنة فقد زالت تلك القوة التي كنت أختبئ فيها وسقطت كل أمنياتي بأن تطرق بابي يوماً لتحتضن ضعفي وألمي. اشتقت جدّاً إليك، بل كدت أموت شوقاً إليك

Telegram: electronic_library

وشعرت أني أختنق وأني أحتاج إليك وإن كنت قد طردتني من قلبك، حتماً ستغفر وحتماً ستفهم مهما زاد صمتي. قلبك سيخبرك أني لست كذلك، لست حبيبتك الخائنة فأنا ملاكك دائماً كما كنت تقول لي، الملائكة لا تخون يا آدم وأنا لست ملاكاً، لكن ملاكك لا يخون. كيف يمكن أن أخونك وأنت الرجل الوحيد على هذا الكوكب! طالما احتملت غيرتك لكني لا أقوى على شكك وظنونك التي تتلاعب بك وأنا بعيدة عنك لا يصلك صوتي؛ من سيدافع عني أمامها وأنت اخترت أن لا تسمع أحداً ولا ترد على أحد، حتى سامر لم تكن ترد على مكالماته كأنك قررت أن تعيش إلى آخر عمرك وحيداً بعيداً عن الجميع.

شعرت أني أخسرك وشعرت أنك تتألم وحدك وتختبئ من الجميع ومني. تعاشر غيرتك العمياء وظنك الأخرس فمن سيدلّك على الطريق الصحيح غيري ومن سيأخذ بيدك ككل مرة غيري أنا!

أصبحت حياتي موحشة وشعرت أني أعيش وحيدةً في غابة لا وجود لكائن فيها. أخذت إجازة طويلة المدى من العمل واعتزلت الهاتف اعتكفت في غرفتي، حتى أمي أصبحت بعيدة عنها، وأطفال غيث الذين كانت أسعد أوقاتهم عندما يدخلون غرفتي يقفزون هنا وهناك وينثرون أشيائي ويعبثون بكل شيء

Telegram: electronic_library

ويسألونني في كل مرة إن كانوا يستطعيون أخذ هذا وذاك، أمازحهم وألعب معهم وتغمرني أحضانهم الدافئة وقبلاتهم الصغيرة، أصبحوا الآن بعيدين عن باب غرفتي ويخافون أن يدخلوا عالمي الحزين الذي لا وجود فيه لضحكاتهم وألعابهم. تستغل «ورد» الفتحة الصغيرة من الباب التي تتركها أمي بعدها وهي خارجة دون أن تغلقه تماماً وتنظر إليّ من خلالها متلصصة تراقب حزني من بعيد وتطمئن إلي وتسأل إن كان هنا أم رحل؟ من قال إن الأطفال لا يفهمون ولا يدركون! ورد ابنة الخمسة أعوام تعرف ما أنا فيه وتشم رائحة الحزن وإن كانت حتى الآن لا تعرفه، وكم أدعو الله أن لا تتعرف إليه يوماً، لكنه زائرنا الثقيل الأنيق الذي لا نوصد الأبواب في وجهه بل نستقبله بالأحضان. وكنت أنا أحتضن حزني بكل قوتي ونبكي معاً، يطل غيث عليّ بين الحين والآخر يمسح رأسي ويقبل جبيني ويخرج تاركاً إياي معه، فرجالنا يغارون على نسائهم من كل الذكور إلّا الحزن يتركونه يبات بين أحضانهن ليالي طويلة يأخذ مايريد ويفعل ما يشاء.

سمعت يوماً أحدهم وهو يقول: «إن كنت تغار على أنثاك فجنبها الحزن فهو يسرق منها أكثر مما قد يفعل الآخرون».

وكنت أنت تغار عليّ من كل شيء إلّا الحزن، تركتني له

Telegram: electronic_library

وتركتني به. مرت أيام وأنا لا أعرف إن كنت أبكي رحيلك أم أبكي رحيل مريم؛ عندما تختلط الأحزان وتجتمع من الأجدر بك أن تبكي نفسك فهي الأحق من الآخرين بالبكاء، بدأت أشعر أنك لن تتصل ولن يكسر حبك لي ذلك العناد ولن تسمح لك غيرتك بعصيانها ولم أعد أقوى أنا على هذا البعد والحرمان أكثر.

اتصلت بسامر وقد كان ما زال لا يعرف عنك شيئاً لم تجب على اتصالاته ولم تفتح له باب بيتك ولا يعرف إن كنت موجوداً في البيت أو سافرت دون علم أحد. صدمني كلامه ولم أفكر للحظة أن بإمكانك أن تسافر وتتركني، لم أتقبل الفكرة ولم أصدقها؛ لا يمكنك أن تفعل ذلك، لايمكن أن تفعل هذا بي؛ وهل يمكن أن يكون ذلك اليوم المشؤوم هو آخر يومٍ أراك فيه؟! مستحيل أن يكون هذا صحيحاً مهما كانت الحياة غير منصفة، لكن لن تجور عليّ إلى هذا الحد ولن تضربني في المكان نفسه مرتين. طلبت من سامر أن يأتي ويأخذني إلى بيتك، حتماً ستفتح لي وحتماً اشتقت لرؤيتي أنا حبيبة قلبك ولا تملك قلباً بدوني، بدأت أردد كلماتك لي في عقلي كأني أشحذ قوة منها سأتقبل أي شيء منك إلّا أن تكون قد رحلت دوني، دون أن أعرف ودون أن تودعني، كنت أشعر ببرد يضرب عظامي. ارتديت ثيابي على

Telegram: electronic_library

عجل ومرت ساعة على اتصالي بسامر وكانت أطول ساعة في حياتي حتى رن هاتفي وكانت رهف من تتصل:

- رهف..

- اخرجي أنا وسامر ننتظرك في الخارج.

لم أضف كلمة، أغلقت الهاتف وخرجت مسرعة دون أن أخبر أحداً أني خارجة. كانا يجلسان في السيارة أمام البيت، فتحت رهف باب السيارة ونزلت وما إن وصلت عندها حتى احتضنتني ثم ابتعدت قليلاً قائلة:

- لِمَ ترتدين أسود بالكامل؟!

نظرت إلى نفسي وكأني لا أعرف ماذا كنت قد ارتديت ثم رفعت نظري إليها وقلت لها وأنا آخذ نفساً عميقاً:

- لا أعرف، لم أنتبه.

لا أتذكر كيف مر ذلك الوقت بعد اتصالي بسامر وفكرته التي زرعها في رأسي عن احتمالية سفرك المرعبة فأصبحت أتحرك دون تفكير. لا أتذكر أني فتحت خزانتي واخترت شيئاً لأرتديه ولم أنتبه أني لا أحمل حقيبتي حتى كان الهاتف فقط هو الذي معي وملامحي الشاحبة الخالية من أي مساحيق تجميل، أمسكت رهف بيدي وقالت:

- أريدك أن تهدئي وتنفسي ببطء، سنجده، أعرف أنك

Telegram: electronic_library

مرعوبة من فكرة سفره وقد لمت سامراً على كلامه معك، هو لا يعرفه عندما يختبئ عن الجميع، لكن أنا وأنتِ نعرف هو لا يريد أن يقابل أحداً لا أكثر.

شعرت بقليل من الارتياح لما قالته رهف وعدت أتنفس ببطء ثم ركبت معهما وانطلقنا إلى بيتك وقال سامر ممازحاً:

- ألن تسلمي عليّ؟!

نسيت أن أسلم على سامر، حاولت أن أركز في كلام رهف وأن آخذه على أنه حبة مهدئ حتى أصل عندك فأنت لا تكتفي بسرقة قلبي فقط حتى عقلي أصبحت دونه، خجلت مما قاله وابتسمت:

- أعتذر سامر حقّاً كيف حالك؟

- بخير الحمد لله لكن صديقتكِ تتعبني.

رمقته رهف بنظرة وضحكا ثم مدت لي رهف حقيبتها وقالت:

- ضعي شيئاً على وجهك الشاحب، إن كان هناك أمل أن يستقبلنا فلا أمل في أن يتعرف إليكِ.

ضحكت وقلت لها: لا أريد. كانت هي وسامر يحاولان التقليل من قلقي وإشغالي بكلامهما وكنت أبتسم لمحاولاتهما إضحاكي وكم كنت أقدر لهما ذلك رغم ما كنت أشعر به كنت

Telegram: electronic_library

سعيدة لمنظرهما وهما في سيارة واحدة يجلسان جنباً إلى جنب، تمسك يده بين الحين والآخر ويلمع في يديهما خاتمان جميلان هذا المشهد هو ما جعلني أبتسم حقّاً وأشعر بالاطمئنان، فكما تقول فيروز «وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا»، قلت في نفسي سينتهي هذا الكابوس قريباً وسنعود معاً وإلى الأبد. وبعد طريق لا أعتقد أنه كان طويلاً لكني شعرت أنه كذلك لفرط ما نظرت إلى ساعتي كأني أملك موعداً معك وإن فوت هذا الموعد بتأخري لن أجدك بعدها ما حييت.

أوقف سامر السيارة فجأة، لم أكن أعرف عنوان بيتك من قبل، في كل مرة كنت أسألك عنه كنت تضحك وتقول لي: «على أساس أنك ستعرفين إن وصفته لكِ». كان يكفي أن أعرف في أي منطقة تسكن لأني كنت سيئة في معرفة الأماكن والاستدلال عليها وطالما سخرت مني لذلك، عم الصمت ونظر إليّ سامر من خلال المرآة المعلقة أمامه وقال:

- هذا هو البيت عليا، من الأفضل أن تنزلي وحدك ونحن سننتظرك في السيارة.

كنت أرتجف وكان قلبي يخفق بقوة، بقيت عدة ثوانٍ أتأمل بيتك وأنظر إلى الباب وكأني كنت خائفة منه وخائفة ألّا يستجيب لي ولا يرأف بيدي التي تطلبك منه؛ كم خفت أن يكون هذا البيت

Telegram: electronic_library

خالياً منك وكم كنت أرتعش رعباً أني جئت لأزور الفراغ فقاطعت رهف ذهولي ونظراتي الخائفة قائلة:

- سأنزل معك هيا.

شعرت بالقوة عندما قالت ذلك، كنت أحتاج إلى أن أستند إليها إذا صفعني بابك بخبر رحيلك. كنت أحتاج إلى يدها تشد على يدي وترسخ خطواتي على الأرض التي كانت تتضاءل صلابتها تحت قدمي، نزلت رهف وفتحت باب السيارة الخلفي ومدت لي يدها أمسكتها ونزلت ولم أفلت يدها كنت خائفة يا آدم، كنت خائفة جدّاً، كنت أرجو الله أن تكون هنا وكنت أدعوه طوال الطريق أن لا تخذلني وأن لا تكون قد تنازلت عني إلى الأبد وتركت لي صمتك الذي يقتات بأيام عمري.

كان الباب الخارجي نصف مفتوح وكم أشعرني بالراحة عندما وصلت إليه ولم يتطلب مني سوى دفعه قليلاً لينفتح وأدخل أنا ورهف، وبعد عدة خطوات توقفنا أمام الباب الرئيسي الذي يؤدي إلى الداخل. بدوت لرهف أني لن أطرقه أبداً ففعلت هي ذلك بدلاً مني كانت الساعة العاشرة صباحاً الوقت نفسه الذي انفجرت فيه تلك السيارة قرب منزلي يوماً ما، فتحت الباب قليلاً في البداية وبدأ قلبي يرقص في صدري وصعدت الدماء إلى رأسي، شعرت أني سأرمي نفسي في حضنك ما إن أراك وأنفجر

Telegram: electronic_library

بالبكاء فقد طال انتظاري لك يا آدم كثيراً ولم أعد أقوى على شيء في هذه الحياة دونك، وها أنا عند بابك طفلة يتيمة وعدتها أن تكون لها أباً ما حييت. تخيلت شكلك وأنت تفاجأ بي وتخيلت أن تبتسم ثم تخفي ابتسامتك وتعقد حاجبيك. تخيلت ذقنك كيف سيكون شكلها وأنت حتماً اعتزلت أدوات الحلاقة في مقاطعتك لهذا العالم ولي؛ كنت سأراضيك وأقبل كل شيء منك، فقط أن تعود إليّ. أنت تعرف أني لست كما ظننت لكنك غاضب مني لأنك تحبني وتعشقني، وأعرف أنك لا تقوى أن تعيش بدوني لكنك حبيبي العنيد الذي يجب أن أراضيه في كل مرة سواء أكان هو المخطئ أم أنا. مر الوقت بطيئاً وتزاحمت كل هذه الأفكار في رأسي حتى فتح الباب كاملاً أخيراً.

في الساعة العاشرة صباحاً من ذلك اليوم انفجر قلبي..

لم تكن أنت كانت هي.. بثوبها العاري الأكتاف الطويل الذي يظهر ما تحته لشفافيته وقصة شعرها الأشقر القصير لم تكن ملامحها غريبة لكني لا أعرفها، ربما هذا ليس بيتك وسامر أخطأ في العنوان؛ مرت دقائق صمت وذهول وشدت رهف على يدي وسألتها:

- هل هذا بيت آدم؟!

فنظرت هي إليّ متجاهلة رهف وقالت بصوت واضح:

Telegram: electronic_library

- حبيبي! هناك من يسأل عنك.

من حبيبها الذي نادته؟!! هل سمعت سؤال رهف جيداً؟! هل يوجد آدم غيرك هنا؟! تواردت هذه الأسئلة في عقلي وبعد عدة ثوانٍ ظهرت خلفها وأنت لا ترتدي سوى سروال قصير دون قميص.. كنت أنت ولا أحد غيرك بذقنٍ طويلة لم أرها هكذا من قبل وشعر غير مرتب، كنت تبدو كمن استيقظ من النوم توّاً. وقفت أمامي مذهولاً ومررت يدك على عينيك كأنك تعتقد أن وجودي أمامك حلم ووقفت هي إلى جانبك وأمسكت بذراعك وأفلت أنا يد رهف فقد خارت كل قواي وامتلأت عيناي بالدموع وأنا أراك نصف عارٍ وفي ذراعك امرأة تكاد تكون عارية وكأنها باتت بين ذراعِيك أياماً لم أجد كلمة أقولها لك فقد جئت ولم أجدك فليس هذا آدم الذي جئت من أجله، ليس هذا آدم الذي أحببت. بقيت مصدومة من منظركما المؤلم معاً وأنت تنظر إليّ ولا تجد ما تقوله. سحبت يدك من يدها كمن يريد أن يسقط عنه تهمة لبسته من رأسه حتى قدميه، وأمام صمتنا وذهولنا لم تقوَ رهف على مجاراة هذا الصمت فسألتك بحدة:

- من هذه يا آدم؟!

وكأني كنت ما زلت واقفة أنتظر منك ردّاً وأنا أعرف أنك لا تملك شيئاً تقوله تركتكما وانسحبت بهدوء ودموعي تسبق

Telegram: electronic_library

خطواتي الثقيلة. أهذا أنت يا آدم!؟ أحقّاً كنت أنت!!؟ لم أتخيل فكرة أكثر وجعاً من رحيلك ولم أفكر يوماً أنك قد تخون.. كم كان الباب بعيداً هذه المرة؟ كنت أتقدم نحوه وهو يبتعد، كل ما أردته يومها أن أجتاز ذلك الباب، هذا أقصى ما فكرت فيه وأنا أرى كل شيء مشوشاً وغير واضح، فقد بعثرت دموعي كل أبعاد الرؤية وأصبحت كل الصور أمامي غير واضحة، شعرت أن الأرض تدور وأنا أدور معها. أمسكت بطرف الباب وكان بارداً جدّاً سمعت رهفاً تصرخ عليا وسقطت...

وحده الحب يجعلنا طيوراً ووحـده من يقتل فينا تلك الأجنحة التي تحلق عالياً بعيداً أو تعد حصى الطرقات.. أن تهب لك الحياة قطعة شكولاته لن تكن مسؤولة عن تاريخ صلاحيتها؛ إن استمتعت بها أو تسممت بسببها لا تلمها، لُم من وضع تاريخاً لهذه السعادة، غالباً نحن من نضع فترات زمينة معينة لكل شيء ولا يخلو كلامنا من الأبدية التي لا نؤمن حتى بوجودها، سيئة هي هذه الحياة بالقدر الكافي الذي يسمح لها أن تهب لك مفاجأة في غير وقتها وما أكثر مفاجآتها كأن تهدي إليك ظروفاً مغلقة على عدد أيامك فيها وتسمح لك بأن تكشف سر بعضها والبعض الآخر تُخبئه لك إلى وقت ضيقك، إما أن تُطيرك فرحاً وإما أن تُسقطك من شاهق، وعموماً الحياة تُحب المرتفعات فاحمل على

Telegram: electronic_library

ضهرك مظلتك المتهرئة وواجه الريح معها وقم كما تفعل في كل مرة تسقط فيها ولا تعاتب مظلتك فقد نخرها جميع من حولك.

وحدها الصِعاب تلد الرجال هكذا يقولون غالباً، وأنا أرى أن الصعاب وحدها تكشف الأصناف والأنـواع، فبعضهم يبدون رجالاً وبعضهم يبدون نساء وبعضهم يبدون مجرد كائنات حية، لكن مفاجآت الحياة تؤكد لك ما يبدون عليه أو تُطلعك على ماهيتهم المخفية عن حدود رؤيتك، فليس كل ما تراه حقيقة. لذلك، خلق لنا البصر والبصيرة وغالباً ما يكون أحدهما مصاباً بضعف النظر، كتلك المرأة البسيطة التي أعادت لي محفظتي بعد أن أسقطتها سهواً في السوق والتي كانت تحوي ثروة بالنسبة إلى امرأة بمثل مظهرها. بقيت أنظر إليها صامتة وهي تمدني بمحفظتي وهي مبتسمة وغادرتني قبل أن أشكرها. لم تنتظر مني شكراً ولم تنتظر من محفظتي شيئاً في حين يسرق البعض كل يوم جيوب شعب كامل حتى يثقب له جيبه، أجلس في صالة الانتظار أنظر إلى أعداد الناس هنا وأدقق في ملامحهم. كل واحد منهم جالس وفي جواره يجلس حزنه. أوفياء لأحزاننا نحن إلى درجة أني يمكن أن أحكي لك قصصاً عن أناس لا أعرفهم ما إن أدقق في ملامحهم الحزينة، فهناك من خسر قلباً وهناك من خسر مالاً وتجلس في جواري امرأة فقدت ابنها وأجلس أنا في جوار آخر وقد فقدت

Telegram: electronic_library

وطناً كل منا في هذه الصالة يعد خساراته كأطفاله الصغار ويخاف أن يهاجر دونها وهو الذي يسافر هرباً منها، لكننا نجد من خسارتنا أحياناً ثروتنا، نحب أن نُحصيها في لحظة شجن أو في دخول مناظرة مع أحدهم ونتبارز فيها من منا أشد حزناً ومن منا خسر أكثر..

لِمَ الخيانة طقس رجولي والبكاء أهم الطقوس الأنثوية!؟

الخيانة هي الرعشة التي ينتفض لها القلب وتفوق رعشة الجسد عند الجنس، وبما أننا شعوب مهووسة جنسيّاً فقد أصبح الجنس قياساً لكل شيء حتى الخيانة وربما هي ترتبط مع الجنس بعلاقة جنسية غالباً ما يتبادلان أطراف الحديث فوق الأسرة، أصعب الأحاسيس التي يمكن أن تعصف بذاتك أو تأتي به أرضاً هي الخيانة، كاهتزاز الأرض تحت قدميك أو سقوط صاروخ على غُرفتك وأنت نائم تستيقظ وأنت تصرخ وتبكي دون وعي أو إدراك ويغمى على عقلك فجأة فتتحرك بلا عقل وتتصرف بلا عقل، أذكر يوم انفجرت سيارة مفخخة تبعد عن بيتي عشرة أمتار فقط، كانت الساعة العاشرة صباحاً؛ كنت نائمة واستيقظت على صوت انفجارها أو ربما على سقوط كل شيء في البيت. قفزت من سريري وأنا أصرخ وأبكي ولا أعرف ما السبب للاثنين. لم أكن أفكر في شيء ولم أكن أعرف ما حدث، كانت حالة هلع

Telegram: electronic_library

انسحب فيها العقل واختبأ لأنه لا يملك تفسيراً منطقيّاً لما حدث فجأة وهو يلهو بقيلولته. بقيت هكذا قرابة النصف ساعة وكل من في البيت يحاول أن يهدئني ويخبرني أنْ كل شيء بخير، ورغم هذا لم أكن أرى سوى شفاه متحركة وأنا أضم ساقي إلى صدري وأبكي بكل ما أوتيت من قوة وأرفض أن يلمسني أحد. يومها حتماً، لم أكن أنا، كان اللّاوعي يتحكم في وعيي واللّاعقل يحاول أن يسترجع العقل، هي لحظات أو دقائق تكون فيها كالمجنون لأنك ببساطة لا تستوعب ما يحدث ونحن نخاف كل الأشياء التي لا يستوعبها عقلنا بل نصاب بالهلع، الخيانة كسيارة مفخخة تنفجر فجأة أو تكتشفها فجأة فتنفجر أنت.. لن تهدأ بعدها بنصف ساعة ولن تستوعب شيئاً سيتوقف عقلك أياماً وتتجمد أطرافك وستشعر أن سيفاً مر في جسدك طوليّاً فقسمك اثنين، تنشطر وتتشظى وتتألم وتؤلم.

الخيانة كالموت نفقد في كليهما أحداً ولا نستوعبهما أبداً، يهب لنا الأموات جرح رحيلهم وعذرهم لم يكن هذا اختياراً بالنسبة إليهم، وتهب لنا الخيانة جرح الرحيل نفسه ولكن لإنسان اختار أن يرحل بطريقة مؤلمة أكثر من الموت، فلا نلتمس له عذراً لأن لا عذر للخيانة.

أبشع كلمتين خطتهما اللغة العربية هما: كلمة «آسف» وكلمة

Telegram: electronic_library

«خيانة»، لا عزاء فيهما. ربما لو لم تكن هناك كلمات اعتذار لما أخطأنا البتة، ولما سامحنا قط، رغم أننا لا نسامح لهذه الكلمات بل لأسباب في داخلنا نختلقها لننسى ونضع ضمادة الأسف فوق جروحنا ونكمل دون خسارات.

أنا امرأة يا آدم لا تؤمن بالاعتذار ولا تؤمن بالأخطاء؛ أجد أن كل الأشياء نفعلها مع سبق الإصرار ولا شيء مصادفة ولا شيء عنوة، لكننا أضعف من أن نعترف أن ما نفعله هو اختيارنا ورغبتنا وشهوتنا فنلبس كل هذه الأفعال ثوب الخطأ ونقول عنه خطأ، وبعدها تأتي كلمات الاعتذار عن هذا الخطأ وننتظر في المقابل ورود الغفران والعفو..

أحاول أن أهدأ وأتنفس وأكتب ببطء حتى لا أتشردق بالحروف، لكي تصف وجعاً ما، عليك أن تخفي تلك الحمى التي تعتري إحساسك وذلك اللهيب الذي يُوقد في صدرك وإلا لن تكتب حرفاً ولن تجد ما تبوح به غير الدموع وهي خرساء. ورغم محاولاتي هذه أقف عاجزة عن وصف إحساسي وأخفق فأطلب فنجان قهوة آخر بلغتي الإنكليزية الخجولة وأحملق في وجوه الغرباء. الناس هنا ليسوا فضوليين إن رأوك سعيداً يبتسمون في وجهك وإن كنت حزيناً تُتمتم ملامحهم بالأسف ويجتازونك متناسين وجودك. لا أحد هنا يتلصص على دموعك وإن سقطت على طاولة مقهى أو فنجان قهوة، ربما يسألك أحدهم إن كنت

Telegram: electronic_library

تحتاج إلى مساعدة وما إن تبتسم له شاكراً حتى يرد لك الابتسامة ويغادرك بهدوء. عربيتنا الجميلة هي وحدها التي تُثرثر، امرأة حسناء لكنها ثرثارة، تصل كلماتي إلى نهايتها وما زال وجعي في بدايته، إنها إحدى ترهات القدر.

بعض الأقدار عبثية لا تمتلك أي حكمة وليس بالضرورة أن يكون القدر شيخاً حكيماً يقرر عنا ما يجب فعله ويضع يده فوق رؤوسنا ليباركنا بمننه، القدر أحياناً رجل سكير أو مجنون، رجل عابث أو عاشق.. القدر أحياناً رجل خائن..

شعرت بألم في رأسي وقطرات ماء تلامس وجهي، دموع رهف ساعدت على استعادتي الوعي أكثر من صراخها، كانت تحتضنني وتحاول إيقاظي كنا أنا وهي في سيارة سامر ولم يكن فيها سوانا، نظرت إليها وسألتها:

- أين نحن؟!

- كيف حالكِ؟ بمَ تشعرين؟

عدلت من جلستي وكأني أعدت شريط ما حدث منذ البداية:

- لم يكن حلماً؟! أليس كذلك!

كل شيء كان يقول إنه ليس حلماً، ليست فقط الدموع في عيني رهف. سألتها ماذا حدث؟ آخر ما أذكره مقبض الباب الذي لسعتني برودته ولا أعرف إن كانت تلك البرودة من يدي أم منه.

Telegram: electronic_library

أخبرتني أني فقدت الوعي وكأنه أصبح متلازمتي هذا الإغماء. هروب وقتي قصير من كل ما أضيق به ولا أتحمل وجعهُ. أخبرتني أنك أخذتني بين ذراعيك وحملتني حتى السيارة وأخبرتها أن تكون إلى جانبي ولا تتركني قط، طلبت منها أن تعتني بي -بعد أن توقفت أنت عن ذلك- ولم تجد شيئاً تقوله لسامر الذي كان مصدوماً ونزل مسرعاً من السيارة يسألكما ماذا حدث؟ ولِمَ أنا دخلت على قدمي وخرجت هكذا؟ لو كنت تملك ما تقول لأخبرتني به ولكنك كما أنت سيد الصمت والقسوة، خذلتني يا آدم.. كسرتني.

- أين سامر؟

- نزل ليدخن سيجارة.

- منذ متى وهو يدخن؟

اكتفت بالنظر إليّ وكأنها تقول: منذ الآن. كانا حزينين أكثر مني ربما، أو ربما حزينان علي، عاد سامر بملامح ليست كالتي رأيتها آخر مرة ووقف عند النافذة القريبة مني وسألني إن كنت بخير؟ أجبته بنصف ابتسامة إنني بخير وطلبت منه أن يوصلني إلى البيت شاكرةً ذلك، بقيت طوال طريق العودة إلى البيت ملتصقة بتلك النافذة بعيدة عن رهف التي تجلس إلى جانبي في الخلف وأشعر بنظراتها تراقبني وتراقب صمتي وسامر يفعل مثلها، ما

Telegram: electronic_library

حدث يا آدم كان أكبر من كل الكلام ومن كل الدموع. لذلك صمت حزناً وخيبة وألماً وخجلاً لا أعرف لم كنت أشعر بالخجل من رهف وسامر؛ شعرت للحظة أنني أتعرى أمام غريبين ولا أملك قوة أن أنظر إلى أي منهما. طلبت مني رهف أن أعود معها إلى البيت لكني رفضت، كنت أريد أن أكون وحدي مثلما تركتني وحيدة ورحلت.

كم من الحزن يلزم لأنساك!؟ كم من الخيانة تلزم لأكرهك!؟ كم من الذاكرة كنت أحتاج لأعرف أنها هي نفسها التي أخبرتني أنها تريد مضاجعتك!؟ كم من الأحاسيس أقتل لخيانتها لي!؟ طالما أخبرتني أنك حبيبي دائماً، أول رجلٍ وآخر الرجال لم تقل لي يوماً كم أنت هش لتصدق كذبة اخترعها عنادك ورد عليها جسدك ورغبتك!؟ ربما رغبت فيها من قبل وربما تمنيت أن أغضبك بأي شيء لتذهب إليها؛ تعاقبني بها وتجلدني بها وتطفئ رغبتك، فالخيانات طقوس الرجال المقدسة ذنوبهم المغتفرة.. فقط لأنهم رجال.

لم تسعفني ذاكرتي يومها ولا بعدها لأعرف من كانت تلك التي باتت بين أحضانك، تلك التي اعتزلت العالم لأجلها وأنا التي كنت أرى عزلتك وحدةً وبكاء، لكن الدموع طقوس نسائية، طقوس النساء المقدسة ولا يحب الرجال نساءً بلا مقدسات،

Telegram: electronic_library

أخبرتني رهف بعد أيام بطريقة استفهامية «هل عرفتها»؟ نظرت إليها وأنا أنتظر أن تُكمل فكان الكلام يسقط من بين شفتيها وتعيد جمعه. سألتها وهل تعرفينها!؟ فلم تعد تجمع شيئاً وباحت بكل ما تفكر فيه لأيام وهي تتساءل إن كنت قد تذكرتها أو لا.

«هي نفسها التي كانت تغازله يوم الحفلة وغضبتِ منه بسببها ونصحتك وقتها أن لا تفتعلي مشكلة معه فهو أكبر من أن يجاري إحداهن». فكنت أصغر من أن تحتفظ بي وأسقطتني ولن تجدني بعدها يا آدم مهما بحثت، قال لي يوماً عـادل: «أنا والفرح كالسياسيين العرب يجتمعون إلى طاولة واحدة ولكن لا يتفقون البتة» فاكتشفت أني اجتمعت مع الفرح عاماً كاملاً وأكثر بقليل في كل الأماكن ولكن لم نتفق في أي منها..

الأحزان تجذب بعضها بعضاً وتقيم حفلة في المساء، الآن فقط، شعرت بما عانته أمي لحظة موت أبي، لحظة تلقيها خبر غيابه الأبدي، فكما قلت من قبل الخيانة والموت متشابهان جدّاً، فأنا أبكيك تماماً مثلما فعلت وأفتقدك تماماً مثلما افتقدت وأشعر بكل الألم يسكن قلبي مثلما بات الألم ثقيلاً في قلبها، لكنه ذهب وفيّاً لها وللوطن، ذهب مُجبراً لا مُخيراً وكانت امرأته الأولى والأخيرة وحبه الأبدي. أتساءل إن كانت قد تحاملت عليه أحياناً أو كرهته لأنه رحل وتركها وحيدة، لكن وإن شعرت بهذا سيكون

Telegram: electronic_library

كلمتنا تأخذ أكثر حرية وتخلع عنها نقابها وتشعل سيجارة. كان يعرف أني امرأة خجولة تخاف أن تبوح بأفكارها الغريبة عن هذا الشرق. ورغم أنه شرقي تماماً إلّا أنه كان مُشرقاً ليس كشرقنا المظلم، كنت أنتظر لقاءه طوال اليوم بينما كنت أفكر فيك، وتساءلت إن سألني عنك بما سأخبره؟! وإن لم يفعل للياقته هل سأنفجر أنا بك!؟

حاولت أن أهدأ وأسترخي، حاولت أن أقنع نفسي أننا انتهينا وأنك لم تعد هنا ولا داعي لقلقي من مقابلته غداً، فأنا الآن حرة وأنت الآن رجل خائن، ورغم ذلك بقيت أفكر ما سيكون موقفك إن عرفت بهذا اللقاء؟ ماذا ستفعل وكم ستغضب؟ فغضبت من نفسي لأني ما زلت أهتم بك، أهتم بأمرك وبغضبك وبقلبك رغم ما فعلت، ولكن هناك أمور نشعر بها أو نفعلها بحكم العادة أو بحكم الحب، ترددت قليلاً في مقابلته وبعدها تمنيت لو أني لم أتصل به. كان نصفي يقويني أن أعود إلى حياتي الطبيعية قبلك ونصفي الآخر يشعرني أني ما زلت ملكك وما زلت أنتظر منك فعلاً أو قولاً يوضح لي تلك الصورة رغم أن لا توضيح أكثر من الذي رأيته، لكن هذا هو غباء الحب بعينه.. بينما كنت أفكر في كل هذا رن هاتفي باستلامه رسالة نصية تمنيت لبعض الوقت أن تكون من عادل يلغي لقاءنا أو يؤجله رغم أني أعرف أنه لن يفعل،

Telegram: electronic_library

فهو لم يخذلني يوماً ولو بلقاء ثم أعرف أنها رسالة من شركة الاتصالات تروج عرضاً جديداً فيها فهدأت فكرتي ونهضت بتثاقل أرى ما جاء به هاتفي البعيد..

«قلت يوماً إن في عينيكِ شيئاً لا يخون.

يومها صدقت نفسي.

لم أكن أعرف شيئاً في سراديب العيون.

كان في عينيكِ شيء لايخون.

لستُ أدري كيف خان!».

فاروق جويدة..

لم يكن عادل ولم تكن الشركة كانت رسالة منك، بعد صمتك الطويل جاءت رسالتك صادمة، أكانت اعتذاراً أم دفاعاً أم هجوماً؟! أو ربما تكملة لنصٍ قديم أرسلته لي يوماً!. كتبت أسفل رسالتك (فاروق جويدة) لم تعد تحتاج إلى رسالة ثانية تَذكر فيها ما نسيت أن تخبرني به كاسم الشاعر، بت الآن خالياً من كل شيء حتى النسيان.. هل كتبت الرسالتين في الوقت نفسه أرسلت واحدة وخبأت الأخرى؟! أكنت تتخيل أني سوف أكون خائنة أم قررت أني سأفعل وانتهى الأمر. وعلى أساس معرفتك السابقة بهذه الخيانة قبل وقوعها قررت ماذا تفعل، ترد الخيانة المفترضة بخيانتك الواضحة؟!! أي الرجال كنت!؟ أي الرجال

Telegram: electronic_library

أنت!؟ أي قسوة زرعت فيك!؟ وأي حدسٍ تملك لترسل رسالتك هذه بعد مكالمتي مع عادل!؟ كأنك تتلصص عليّ؟ لكم شعرت أحياناً أنك كذلك، لكن لو كنت تتلصص فعلاً لعرفت أني لم أحب يوماً غيرك، لم أحلم بغيرك ولما قتلني أحدٌ غيرك.

تساءلت إن كان هذان النصان لفاروق جويدة من قصيدة واحدة، وهل يمكن لعاشقٍ أن يتغزل بعيني حبيبته الوفية في مطلع قصيدة ثم يفند ذلك في نهايتها؟ أي حبيبةٍ كانت حتى لا يتعدى وقت معرفة خيانتها قصيدة واحدة؟ أم أنه كتب قصيدته على مهل وترك للأيام أن تضع خاتمة لها!؟ وأي عاشقٍ كنت لتختارها لي وترسلها على جزءين! أقرأت مطلعها فقط فأحببتها ولم تكملها حتى آخر سطر أم رأيتني كحبيبته تفي وتخون بمسافة أسطر قصيدة!؟ انتابني فضول حولها وبحثت عنها في الإنترنت فوجدت أنه كتب قصيدتين الأولى بعنوان «عيناكِ أرضٌ لا تخون» وكانت في العام ١٩٨٢ وكتب بعدها بعام قصيدة بعنوان «ما قد كان كان»، طار فرحاً وحبّاً في قصيدته الأولى وسقط مخذولاً في قصيدته الثانية، وعرفت أيضاً، أن هذا الشاعر هو من كتب كلمات أغنية «لو أننا لم نفترق» لكاظم الساهر. أغاقت نافذة البحث وقررت أن أستمع إلى هذه الأغنية، لطالما كنت أحبها وكانت تشعرني بالحزن واليوم فقط عرفت شاعرها ولربما كتب هذه القصيدة

Telegram: electronic_library

المغناة أيضاً لها.. لحبيبته، سمعتها هذه المرة بطريقة مختلفة، كانت تلمسني كلماتها فهي رسالة عاشقٍ إلى حبيبته وليست مجرد قصيدة..

لو أننا لم نفترق.

لبقيت بين يديك طفلاً عابثاً.

وتركت عمري في لهيبك يحترق.

لا تسألي العين الحزينة كيف أدمتها المقل.

لا تسألي الطير الشريد لأي أسباب رحل.

رغم الرحيل رغم مافعلت بنا الأيام.

قلبي لم يزل يحيا وحيداً في الأمل.

أنا يا حبيبة كل أيامي.. قتيلُكِ في الهوى..

هذه النهاية لم تكن قط لنا.. هذه النهاية قمة المأساةِ.

وهل هذه نهايتنا فعلاً يا آدم؟! وهل نستحق نهاية مأسوية غير التي كنا نخطط لها؟ أكانت رسالتك الأولى من قصيدته الأولى هي لعنتنا! ما زلت أحبك يا آدم بكل وجعي منك وبكل خيبتي، ما زلت أحب ذلك الرجل الذي سمعته أول مرة قبل أن أراه وأحببته قبل أن أسمعه ودخلت قلبي منذ أن التقيتك صدفة، فأي صدفةٍ أخرى قادرة على انتزاعك مني، بِمَ سوف أرتطم لتسقط مني!؟ ضربتني خيانتك ولم تسقط بل تشبثت بي أكثر وأكثر فأوجعتني.

Telegram: electronic_library

لو كان انتزاعك أسهل ولو كان احتضاري بخروجك مني أقل لكنت الآن أفضل بعد كل هذا الوقت..

كان يجلس إلى طاولة لثلاثة أشخاص ولا أعرف لم اختار هذا العدد بالذات رغم أننا نحتاج إلى طاولة لشخصين فقط، وكانت متوافرة. هل أخذه خياله أني جئت لأعرّف أحدكما إلى الآخر! أم لأجد حلّاً لسوء الفهم الذي حدث يوم المستشفى. يملك عادل خيال كاتب وله الحق أن يسرح بخياله هذا بعيداً، فأنا منقطعة عنه منذ مدة طويلة ولا أرد على اتصالاته، فكيف لي أن أطلب مقابلته وأنا حبيبة رجل ضعيف النظر يرى عند الموت خيانة!؟ كان يقلب كتاباً عندما وصلت؛ تأملته قليلاً وأنا أتقدم نحوه بخطوات بطيئة وكان لم يلحظ وصولي بعد، وما أن وصلت عنده حتى رفع رأسه وفوجئ بي، وكعادته التي لم يغيرها على ما يبدو ابتسم فابتسمت. هكذا كان أحدنا يحيي الآخر حتى في السابق ما إن نرى أحدنا الآخر حتى نبتسم إن كنا قريبين أو بعيدين. وكان يسحب كرسياً بعد ابتسامته هذه ويبدأ بالكلام دون مقدمات أو تحية تقليدية فاستعرت أنا عادتهُ يومها وسحبت الكرسي المقابل له إلى تلك الطاولة وسألته:

- ماذا تقرأ؟!

- أتصفح كتاباً سياسياً.

Telegram: electronic_library

- سياسياً! منذ متى؟!

- أنا طفلٌ يمارس كل الممنوعات عنه في غياب والدته.

كان يجب أن يبدأ حديثنا عنها لكننا تجنبنا ذلك فوجدناها فجأة وسط الحديث، فقد كانت تبعده قدر الإمكان عن السياسة أو الغوص فيها وحسب قولها «من يُبحر في السياسة يغرق». وكانت تخاف على عادل من هذا الغرق؛ لكننا أصبحنا شعوباً ترضع مع حليبها أخبار المساء ولم يفطمنا التلفاز يوماً كما تفعل أمهاتنا فحاولت هي فطامه. ربما كانت تخاف أن تُؤثر في كتابته فيتحول من كاتب روائي إلى كاتب سياسي، والأخير يجب أن يكون خارج حدود الوطن وهو ليس كذلك - ويبدو أنه بدأ بممارسة الممنوعات - حسب قوله - وعاد يشرب السياسة بنهم وظهر ذلك واضحاً في بداية كلامنا الذي كان للوطن الحصة الأكبر منه، شعرت أنه لم يتكلم منذ مدة مع أحد، شعرت بجوعه إلى الحديث رغم ذلك الهدوء الذي يظهر عليه، ككل اللقاءات يترأس الوطن وأوضاعه الجلسة، وبعد قليلٍ من يأسنا تجاهه يترك مكانه فارغاً ويمضي ليدعنا لأخبارنا العادية، سألته:

- كيف حالك؟!

طالما يأتي هذا السؤال وسط كلامنا على عكس الجميع

Telegram: electronic_library

فالكل يبادرون به ما إن تُفتح شفاههم للكلام، لأننا وحدنا نعنيه ووحدنا نسأله لشخصه لا لاستغلاله في صنع البدايات.

- أحاول أن أكون بخير.

شعرت أنه لا يريد التحدث بأي شيء يخص غياب مريم وكأنه يحتفظ بالأمر عندما يختلي بنفسه. لم أعرف إلى أي مرحلة وصل حزنه لكنه رجل لن يضع حزنه أمام امرأة يحبها وهي تعشق غيره؛ هو أكبر من أن أشفق عليه وأصغر بكثير من ذلك الحزن الملقى على كتفيه، تساءلت في نفسي كيف له أن يكتب بعد رحيلها وكيف ستكون رواياته في غيابها، أسيقتل أبطاله في كل نهاية ويشكو وجعه بلسان الآخر؟ عادل رجل لا تقع عليه أي احتمالات لأن لا وجود للتوقعات معه؛ هدوؤه يحول دون ذلك ولا يمكن أن تعرف أحداً أو تبني صوراً مستقبلية عنه ولما يحدث معه إلّا إذا كان بعيداً عن الصمت، وعادل رجلٌ صامت في كلامه. كلماته تبهر ولكن لا تُشبع الفضول، أضاف بعد صمت:

- كيف حالكِ أنتِ بعد ما حدث؟!

كنت أتوقع منه هذا السؤال بهذه الطريقة التي قالها أو بطريقة أخرى، لم يكن يوماً فضولياً فيما لا يخصه، ولكن على ما يبدو أني أخصه جدّاً. هو لم يقصد بكلمة ما حدث «مريم» بل قصدك أنت والحالة التي انتهيت إليها بعدك، حتماً كان لمريم نصيب مما

Telegram: electronic_library

حدث لي، ولكن عادلاً لم يرَ إلّا أنت سبباً لذلك، لم أجد ردّاً لسؤاله.. فابتسمت...

قال:

- أعتذر عما بدر مني يومها.

- لا تعتذر أرجوك أنا من عليه فعل ذلك، أعرف أني لم أكن صديقة حقيقية فترة طويلة من الوقت رغم أنك صديقي المقرب.

انتهت الأغنية التي كانت تعم المقهى ولا أذكر ما كانت وبدأت أغنية:

«كن صديقي» لماجدة الرومي. آخر كلمتين قلتهما جاءتا في فترة الصمت بين الأغنيتين، كأن صاحب المقهى كان مُحتاراً ماذا يضع من موسيقى لزبائنه فساعدته أنا بكلمة «صديقي» فاختار هذه الأغنية بالذات. كنت أحب هذه الأغنية جدّاً وأحلق مع صوتها الذي يرتفع تدريجاً وهي تنتفض على ذلك الشرقي الذي لا يرتضي إلّا دور البطولة في كل علاقاته وتخبره أن ليس في الأمر انتقاص لرجولته، ابتسم عادل وعاد إلى الخلف يسند ظهره إلى الكرسي وينظر إلى التلفاز المعلق بعيداً ولا أعرف إن كان ماجعله يبتسم هو كلامي أو تلك الأغنية، حيث قال وهو ينظر بعيداً:

- بعض الأغاني لعنات وهذه إحداهن.

لم أفهم ماذا يقصد، حتماً لم يقصد روعة الأغنية فهي رائعة

Telegram: electronic_library

حتماً وربما كان التزامن غريباً وربما كلمة صديقي هي التي كانت لعنة بالنسبة إليه، تملكني إحساس قوي بأن أخبره كل شيء عنك وعن قصتنا، ولا أعرف إن كنت أملك الشجاعة لذكر الجزء الأخير منها بالإضافة إلى إحساسي بالحاجة إلى ذلك، كان من حقه أن يعرف لِمَ أنا لمْ أعد كما أنا معه ولِمَ أتجنبه، رغم أنه عرف السبب في ذلك اليوم وعرف أنه يوجد خلف كل ذلك التجاهل رجل، لكنه يحتاج أن يعرف ذلك الرجل أكثر، لذلك اختار هذه الطاولة، فلربما إن لم أصطحبك معي في أحسن الحالات، فسوف يكون لك نصيبٌ كبير من هذه الجلسة أو ربما أنت هو سبب هذا اللقاء فاختار لنا طاولة ثلاثية المقاعد، لكنه لم يعرف يا آدم أن رجلاً مثلك لا يجلس إلى طاولة كهذه، رجلٌ مثلك يختار الطاولات المختصرة الضيقة بمقعدين حميمين تكاد تتصافح أرجلهم وأنت تضع قدميَّ بين قدميك وتسخر من حجمهما وأنت تقول «أين وجدت حذاء بمقاسك»...

كيف سأتخلص منك وأنا أتذكرك في كل شيء؟! وعند مرور عيني على تفاصيل صغيرة أتفه من أن تُذكر وأكبر من أن تُنسى.. كيف سأنساك؟!

ربما حاولت أن أغير موضوعه عن تلك الأغنية وربما كنت قد عنيت سؤالي ذلك، وقتها عندما سألته (لِمَ لا تضع ساعة)منذ

Telegram: electronic_library

أن عرفته وهو لا يمكن أن يكون خالي المعصم كأنه يتيه إن لم يلبس ساعة فلا يمكنه أن يخرج دونها، فأجابني:

- لا حاجة لي إلى الوقت..

ثم أضاف:

- تفاصيلنا الصغيرة تفشي منا أسراراً تكبرها حجماً،كثير التدقيق أنا فيها بالفطرة، تجذبني وتهمني فهي رسائل مُخبأة لمن يهتم فقط، كساعتك الفضية هذه التي تضعينها في يدك، لا علاقة لها بما ترتدين ولا تلائم قلادتك الذهبية وخاتمك وما زالت في يدك منذ أول وآخر مرة زرت بيتنا.

أذهلني بدقة ملاحظته ولا أعرف إن كان دقيق الملاحظة بكل شيء أم لأن الأمر يخص ولعه بالساعات، لا أذكر أنها كانت معي عندما ذهبت إلى بيتهم ولكن حتماً فأنا أحب ساعتك هذه وهي دائماً معي.

- ربما

- ربما!. وكأنها حصتك من العربية أو إرث قديم تستعملينها كثيراً.

ابتسمت لكلامه وكان محقاً فربما كانت حصتي من العربية أربعة حروف فقط وهي «ربما»،لا أعرف إن كانت اللغة العربية قد خصصتْ لي أربعة حروف لِمَ لمْ تكن «أحبكِ»؟

Telegram: electronic_library

أم استكثرت عليّ تلك الكسرة وكانت باهظة فبقيت أملك من الحب كلمة.

«أحبك» بكافها التي تحمل من السكون ما يكفي لأبقى أحبك إلى الأبد!.

بعد أن جر الحديث إلى اللغة العربية سألته:

- وما أخبار حصتك أنت من العربية؟

- أكتبهم فيؤلمونني، لأني أتحكم في مصيرهم وأحزانهم وأفراحهم يأخذون ما قررته لهم ويتركونِ لي إحساسهم، شخصياتي الورقية تعاقبني.

هو من بدأ بمعاقبتها على ذنب لم تقترفه وهو من يهب لها الحزن بجرعات كبيرة حتى يتفجر فيه حزنه ويلقي اللوم عليها، كم تغير بعد رحيل مريم وكم أصبح وحيداً وحزيناً..

اقتصر لقاؤنا يومها على أشياء يعرفها كلانا ولا نتطرق إليها إلّا تلميحاً ونرد عليها مبتسمين، كان لديه من خيبة الأمل ما يكفي ولا يحتاج أن أزيده بذكرك. قدمت له وعوداً مبطنة أني لن أكون صديقة جبانة تتنكر لأصدقائها وسأكون موجودة دائماً وسألته أن يتصل بي متى يشاء واتفقنا مبدئياً على موعد نتلقي فيه أنا وهو وهالة وبعض الأصدقاء الذين لم أرهم منذ أيام سوريا.

كأنني كنت أريد أن أجدد عهدي مع الحياة وكأني كنت

Telegram: electronic_library

خارج حدودها لأن لي حياة أخرى لا أحد فيها غيرك وكانت تكفيني لكنها لم تكن تكفيك يا آدم..

عدت إلى البيت وفي يدي صورتك التي تسللت مع الأجرة لسائق التكسي، ها أنت يا آدم تخرج مني بكل ما تملك من قوة وما زلت أستردك في كل مرة كأنك - كتلك الأغنية - لعنة أصبت بها ولن ترحل عني أبداً؛ لكني امرأة أحبت لعناتها وشرقيتها وهويتها وأنت، كان صوت غيث مسموعاً يصلني قبل أن أفتح باب البيت ما جعلني أفكر أن لدينا ضيوفاً فنحن الشرقيين نكرم الضيف بكل ما نملك حتى أصواتنا تبذر كثيراً في الكرم. دخلت محاولةً الهرب من ضيفنا أيّاً كان فلا قدرة لي على مجاملة أحد أو مجاراتهم في الحديث. استقبلتني ورد كعادتها فأخذتها بين ذراعي وقبلتها وسألتها بصوت منخفض:

- وردتي من عندنا؟!

- عمي همام.

استغربت ما قالت، فورد لا تعرف هماماً أو لا تتذكره فقد كانت صغيرة جدّاً عندما سافر، لكن قلبي خفق عندما قالت: عمي همام. أيمكن أن يكون همام هنا! توجهت إلى غرفة الضيوف حيث أصوات الجميع تتصاعد وأنا أبحث عن صوت همام، أريد أن أفرح بوجوده قبل أن أراه أمامي ولن أحتمل خيبة تشابه

Telegram: electronic_library

الأسماء على ورد فذكرت اسم همام بدل اسم أحدهم، وقبل أن أمسك بمقبض الباب فتح الباب من تلقاء نفسه وظهر أمامي رجل ذو كتفين عريضتين وعضلات بارزة، كان يتجه نحوي خارجاً من غرفة الضيوف ووجهه إلى الخلف يكلم غيثاً الذي كان يجلس أمام الباب، وما إن فُتح حتى أصبح أمامي مباشرة فصرخ غيث:

- أنظر من جاء أخيراً.

التفت نحوي هذه المرة تاركاً غيثاً خلفه، كان همام بعينيه وذقنه بابتسامته ووسامته، لم أتمالك نفسي ما إن التقت عيناي عينيه حتى امتلأتا بالدموع وأنا أقفز عليه وأحضنه. تشبثت به بقوة وضمني إليه أكثر فأكثر. كانت دموعي تنهمر بهدوء في البداية وبعدها صرت أبكي بصوت مسموع. تركت وجعي على صدره وأغرقت له قميصه وكل ما حاول إبعادي قليلاً عنه حتى يتسنى له النظر إليّ كنت أتشبث به أكثر فيعود إلى احتضاني بكيت كل شيء في حضنه، بكيت حزني حتى آخر قطرة فيه، كنت أشكوك له سرّاً وكنت أثرثر في صدري عنك وألعنك وأشتمك وأخبره أنك خنتني وطعنتني وتركتني مخذولة ووحيدة. أخبرته من دون صوتي أني أحبك وأنك جرحتني في قلبي وفي كبريائي وأنوثتي وجرحت كل ذكرى لنا وكل تفصيلةٍ صغيرة. شعرت بعد هذا العناق الطويل

Telegram: electronic_library

الماطر أن قدمي لم تعودا تحملانني فقد حملتاني كثيراً أنا وذلك الحزن في صدري، أبكيت ببكائي الجميع.. كانوا يبكونك دون أن تعرفهم أو يعرفوك، فعندما نظرت إلى حبيبي همام كانت الدموع قد طاولت لحيته الخفيفة وأمي وغيث ملأت الدموع عيونهما. اشتقت إليه كثيراً وكأنه جاء في الوقت المناسب، وكأنه كان ينتظر رحيلك مني ليعود هو لي، فلطالما كان هو حبيبي الأول، فكل فتاة يكون أبوها هو حبيبها الأول، وبما أني كبرت دون أبي كان همام هو حبيبي حتى جئت أنت ولم يعد هو حتى تنازلت أنت عن هذا الحب..

لم تكن مجرد زيارة بل جاء لكي يقنع أمي بالسفر أو الهجرة فهذا البلد لم يعد يصلح للحياة. كان يعرض الأمر على أمي طوال الوقت وهي ترفض دائماً وتحتج بغيث وبي وبارتباطاتنا هنا وأعمالنا، لكن بعد أن أصبح غيث إلى جانب همام في هذه الفكرة ماذا ستكون حجتها الآن!؟ بقي همام عندنا أسبوعاً وكأن الحياة عادة ما تتدفق في بيتنا بكل ما تحمل من سعادة أسبوعاً واحداً فقط، وفي كل مرة نجتمع كان يفتح معها موضوع السفر ويشكو لها غربته هناك وأنه وحيد ولم يعد يستطيع تحمل ذلك. وكان غيث يساند فكرته هذه ويبدأ بسرد أوضاع الوطن التي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. لم يكن في استطاعتها أن تماطل في الأمر أو تعطي

Telegram: electronic_library

موافقة تعرف أنها لن تثمر شيئاً، خصوصاً إذا كان هذا السفر إلى دولة أوروبية لا يمكن أن يدخلها العراقيون دون سبب وأحياناً تكون الأسباب مستحيلة للدخول، فالجميع يبحث عن طريقة للهرب من هنا والحصول على لجوء إنساني يضمن له حياة على قدر الحياة، لا يهددك فيها الموت كل يوم ولا يطرق بابك وقلبك. لكن هماماً حصل على موافقة منذ مدة طويلة تسمح لنا بالانضمام إليه في وطن المنفى، في بلد غريب عنا بلونه ولغته وشمسه، في بلد لن تجمعنا شوارعه أبداً مع شخصٍ نعرفه صدفة ولن نسمع فيه تحية من الخلف نلتفت إليها على عجل لنرى مصدرها وندخل في عناق أو حوار أو حتى شجار، في هذه البلدان البعيدة عن عالمنا الثالث تتميز بلونك وسمرتك وذلك الحزن الذي تحمله في عينيك وتلتصق بك تهمة إرهابي حتى وإن كنت قد جئت هارباً من الإرهاب نفسه وتنازلت بسببه عن وطنك وتحتاج أن تندمج مع منفاك الجديد طويلاً وتدافع عن كل التهم التي توجه إليك في أعين المارة وتثبت أنك مواطن صالح هربت من وطنك فقط لأنك مواطن صالح في وطن لم يعد للصلاح فيه مكان، فتحمل بعد أعوام طويلة بطاقة شقراء تُبرئ ليل شعرك وطعم الشمس على جسدك. صمدتْ كثيراً أمام إلحاحهم وقدمت أعذاراً مقعنة وغير مقنعة فكانوا يصرون عليها أكثر ويستفزون أمومتها خوفها قليلاً إذا

Telegram: electronic_library

تعرضت للخسارة من جديد وهي قد جربت طعمها من قبل ولم تنسه حتى اليوم. كنت أشعر بحزنها ويؤلمني إحساسها، فأنا أعرف تخبط الأفكار في رأسها وأعرف أن كلامهم معها لا يمر مروراً سريعاً على قلبها، بل يلتصق به ويزيده وجعاً وحيرة حتى انهارت ذات مساء في آخر ليلة قبل عودة همام إلى منفاه. بكت بحرقة إلى أن انفجرت انفجار الذي ملّ هـدوءه وهو يجمع الكلمات في صدره حتى اختنق بها فأخرجها دفعة واحدة:

- إن تركت العراق وذهبت حيث تريدون لمن استشهد والدكم؟! دماؤه ورحيله يساويان سعر تذكرة! أنتم لا تفهمون ما يعني الرحيل، أتنازل عن أكثر من نصف قرن من الذكريات والحنين والوجع من أجل ماذا! كيف أسافر وأترك والدكم وحده هنا؟ كيف يمر عيد لا أكون فيه عند قبره؟!

كان خطابها بنا طويلاً تطول به كلماتها المبكية وتقصر عن مجاراة الوجع. كان وجعها عميقاً قديماً عتيقاً تخزن في داخلها عاماً بعد عام. لم ننسَ أبي يوماً، كانت تدعي النسيان فقط. وكعادة الأحياء هنا لا يمر صباح العيد إلّا وهم عند حبيبٍ تركوه في التراب مرغمين. كانت ترى في تركها العراق خيانة لأبي وله رغم أنها تنسى ما تفكر فيه أحياناً أن أبي خانها عندما قرر الرحيل رغم أنه لم يكن قراره والعراق خانها عندما سرق حبيبها بحجة الوطن..

Telegram: electronic_library

كثيرةٌ هي الحجج يا أمي والفراق واحد سفر وموت وخيانة..

أشعرتهما بالندم لضغطهما عليها هكذا فأخذ همام يمسح دموعها وغيث يقبل يديها وأنا أراقبهما بهدوء. كانت تحتاج أمي إلى هذا الضغط حتى تبكي، الوجع والدموع كالسم في الروح، وكان يجب أن تفرغ أمي هذا السم منها لترتاح ولو قليلاً حتى أصبح النقاش معها أسهل وأهدأ ولم تعد بحاجة إلى الهرب من الكلمات والدموع، فقد أفرغت حمولتها وهي الآن تفكر بمنطق العقل، واستفز همام عقلها كثيراً. استخدمنا جميعاً في إقناعها أنا وغيث أولاد غيث وزوجته وهو نفسه أشعرها أن مستقبل عائلته يتوقف على موافقتها هذه فاضطرت للقبول مكرهة، وكان شرطها أن تزور قبر أبي قبل الرحيل، وأخذت وعوداً من همام أن يأتي بها كل عام لزيارته، بل غير مرة في العام الواحد فوافق وهو يقبل رأسها ويضمها إليه.

أين أنت من كل هذا؟ أين أنت من كل ما يحدث؟ كنت أسأل نفسي هذه الأسئلة وهم يتحدثون بالهجرة، لو كنت تعرف ماذا ستفعل؟ وهل ما زال أمري يهمك؟ لم أستطع مجاراتهم فيما يفكرون ولم أرفض، كنت أقف أمام القدر مستسلمة تماماً تاركةً القرار له موافقةً أن يتلاعب بي كما يشاء، فقدري رجلٌ خائن وحبيبٌ يعصى على النسيان.

Telegram: electronic_library

كيف لي أن أتركك وكيف لي أن أترك هذا الوطن؟ كلاكما كانتزاع الروح مني وكلاكما موتٌ لي، يأتي الرحيل دائماً متأخراً ليخبرك أنه هو القرار الصائب بعد أن سُلب منك كل شيء حتى ابتسامتك، لذلك يُعرف عن العرب في بلدان المنفى أنهم لا يبتسمون. لا يعرف أحد أن الوطن يسرق منك كل شيء قبل أن تفكر في تذكرة. نحن شعوب تدفن ضحكاتها في جيوب من استودعناهم التراب. نضع عنا أفراحنا وذكرياتنا وأحبتنا، ففي المطار تُصادر كل هذه الأشياء، وحده الوجع هو الذي يسمح لنا بأخذه أو يقدم لنا مجاناً في الطائرة.. فكيف يريدون منا أن نبتسم! نحن أمة، الابتسامة في وجه أخيك صدقة، لكننا أمة تتهرب من الصدقات ولا نعترف بالأخوة فلا نحتاج إلى الابتسامة يكفينا الوجع ونهدي بعضنا بعضاً أحزاناً هذا ما نجود به فقط.

حُزم قرار السفر ونام كل واحدٍ في البيت فرير العين إلّا أنا وأمي فكنا بعيون دامعة، في ليلته الأخيرة معنا بت في فراشه أو بالأصح اقتحم هو غرفتي وقرر أن ينام معي احتج قائلاً: «سريرك مريح». لم ينم كلانا يومها، كان لأول مرة سعيداً وسفره فجر اليوم التالي. نمت على ذراعه وبقي يحدثني طوال الليل عن كل شيء ويضع بريقاً لبلادٍ غريبة عني لا أعرفها؛ كان نصفي معه ونصفي الآخر عندك وفكرت كم ستغار لو تعرف أن هناك من يشاركني في

Telegram: electronic_library

سريري حتى لو كان أخي، فكنت دائم الغيرة من تعلقي بهمام أو بأي شيء خارج محيط دائرتك، كنت أرى ذلك في السابق حبّاً ولكني لا أعرف ما هو الآن، أنسى أحياناً يا آدم ما حدث وأتعامل مع بعدنا على أنه خصام طويل الأمد وسينتهي حتماً. أفكر فيك وفي كل شيء يحدث معي وأفكر كيف سأخبرك عن كل ما حدث وكيف سأصف لك الأشياء، كيف سأخبرك عن وجعي في بعدك وعن كل الأمور التي تجري وأنت لست على علمٍ بها. أتخيل ردودك ونظرتك. أتخيل ملامح وجهك ونظرك الذي تسافر به بعيداً إذا أزعجك كلامي ولا تريد أن يبدو عليك ذلك.. اشتقت إليك كثيراً.

لم يبقَ سوى أيام على عرس رهف وسامر وبقيت معها أياماً نهيئ لكل شيء. تناسيت فيها وجعي قليلاً إكراماً لأفراح صديقتي فلا يمكن أن يوجد الحزن والفرح في مكانٍ واحد رغم أنهما اجتمعا عندما أخبرتها، بعد أن أعددنا كل شيء وشعرت هي بالرضى والسعادة لأن كل شيء سيكون كما تريد، أني سأرحل دون عودة. ذهلت في البداية وظنت أن كلامي مجازاً وأني أقصد الرحيل عنك دون عودة، ولكن بعد أن أوضحت لها الأمر غضبت مني قليلاً ثم بكت قليلاً وحبست أنا أمامها دموعي؛ كان يجب أن تعرف أنها رغبتي وأني سعيدة بذلك عدا أن بعدي عنها سيحزنني

Telegram: electronic_library

حتماً، كان وقتاً مناسباً لأن أخبرها عن سفري ولن يبقى الأمر في رأسها كثيراً فعرسها قريب وسيشغلها ألف شيء ويحول بينها وبين حزنها على رحيلي، ستكون بخير في بعدي ما دامت مع سامر فهي بخير وسعيدة كان سيشغلني أمرها كثيراً لو لم تكن معه ولكن الأمور تصلح بعضها بعضاً، سألتني بعدما أخذت وقتاً لتستوعب الأمر:

- وآدم؟!

- لم يعد في حياتي.

- وأنتِ؟

- ماذا بي أنا؟

- من قال أنكِ لست في حياته.

- ما رأيناه معاً لا يحتاج إلى شرح.

- اتصل بسامر وسأله عنكِ.

نظرت إليها باستغراب وتأنيب كأني أقول لها: كيف تخفين عني أمراً كهذا؟ لكني لم أستطع أن أقول لها ذلك فهو من المفترض أنه لم يعد يعنيني، فأضافت:

- آسفة أعرف، كان يجب عليّ أن أخبرك وقتها ولكن تعرفين لا عقل في رأسي.

- لا تتأسفي ليس بشيء مهم.

Telegram: electronic_library

- عليا لم يحدث شيء بينهما.

- وهل كنتِ معهما؟!

- اسمعيني فقط، اتصل بسامر وتقابلا أخبره أنه لم يلمسها وهي من اقتحمت عليه بيته مساءً عندما لحقت به وهو خارج من مكان ما لا أذكر ما هو وقضت الليلة عنده ولكن لم يحدث شيء بينهما.

بدأت أغضب منها، أولاً، لأنها لم تخبرني بكل هذا وتذكرته ربما صدفة عندما ذكرت موضوع السفر، وثانياً، من طريقتها البلهاء في سرد الأمر وكأنه عادي جدّاً ويجب عليّ تصديقه، قلت لها:

- كيف يحدث كل هذا ولا تخبريني.. وكل ما يقوله كذب. ماذا يعني أن تبيت عنده امرأة لا يعرفها ولا تعرفه؟!! كيف!!

- أعرف أني مخطئة بنسياني شيئاً كهذا ولكن الأمر حدث البارحة فقط ونسيت أن أخبرك حقّاً، ليس لأني غير مهتمة ولكن كل شيء حدث بسرعة وكنت سأخبرك حتماً.

- ربما أراد أن يحسن من صورته أمام سامر فقط فادعى هذا الأمر.

- عليا أنتِ تعرفينه أكثر منا جميعاً.. آدم لا يفعل شيئاً كهذا،

Telegram: electronic_library

منذ عرفته وهو صادق معك وأنا كنت أنتظر طوال هذا الوقت أي تفسير منه ولكنه كان يعاقبك.

- يعاقبني؟!! على ماذا!! ماذا فعلت أنا لأستحق كل هذا الوجع منه، لماذا يفعل بي هكذا، ماذا فعلت به أنا ليمزق قلبي ويذبحني؟!!!

لم يكن دور القوية يليق بي البتة، ودموعي التي حبستها أمام رهف أطلقت سراحها أخيراً، حتى أفسدت كحل عيني. لم أحدثها بضعف قط، طوال تلك المدة كنت أبدو أمامها أني نسيتك تماماً وأخرجتك من قلبي وأني بخير وما أشعر به تجاهك كره لا أكثر وآسف على بقائي معك سابقاً، لكن في هذا اليوم كشفت لها جرحي الذي لم يشفَ بعد وقلبي الذي لم يكرهك بعد وانتظاري لأي حرف منك ليُهدئ الحريق الذي في داخلي، كان صمتك موجعاً أكثر من فعلتك وكنت تزيد الصمت صمتاً، وعندما قررت أن تتكلم ذهبت إلى سامر. أقصدت أن ينقل كلامك إلي ويقتنع به لأنه هو أو رهف سيحاولان إقناعي به أم أنك لم تكن تكترث لأحد غير الموقف الذي كنت فيه يومها؟ وكيف لك أن تصلحه أمام رهف وسامر.. أين أنا من كل ما تفعل وكل مافعلت!؟

بعض الهجرات جميل كهجرة الطيور وبعضها مؤلم كهجرة

Telegram: electronic_library

البشر، أجدها كاقتلاع الجذور، خصوصاً إذا كانت جذور شجرة مسنة غارت جذورها عميقاً وبعيداً، وأنت ترتب حقيبتك تضع فيها كل شيء أو أقل شيء من كل شيء، تضع أشياء قد تحتاج إليها وأشياء لن تحتاج إليها، تأخذ وتأخذ وعلى قدر ما تضع فيها فأنت لن تأخذ شيئاً، فصورة مع شخصٍ ما في مكانٍ ما لن تجعله يختبئ في هذه الحقيبة ويظهر لك ما إن تلمس سحابها، قنينة ماء لن تقنع دجلة أن يسكن في حقيبتك وورقة شجرة لن تُزهر نخلة في هذه الحقيبة، فعندما تسافر دون عودة أعرف أنك لم تعد تحتاج إلى شيء من هنا ولا حتى كومة ملابس، لو كنت تشعر بالدفء لما رحلت. يكفيك جواز مزرق وتذكرة ومقص تجز به كل فكرةٍ خائنة تحاول أن تُبقيك حيث أنت، يقطع الجواز أنفاسك وتعيدها إليك تذكرة، مُفرغٌ أنت من كل شيء لكن يبقى اقتلاعك من هذه الأرض صعباً. تقتلع الطائرات أجسادنا من حيث كنا ولكن الكارثة أن أرواحنا لا تُقتلع وينقطع الأمل، فالأمل مصادفة والمصادفة أحياناً لبعضنا حياة. يحيا بعضنا حياةً كاملة على أمل مصادفة تجمعنا بشخص. أفرغت الحياة منا مقعديها وطردتنا خارج حدود اللقاء فبقينا ننتظر أن تمطر صدفة السماء، هل يمكن أن تضع في حقيبتك صدفة؟! بل كومة صَدف، الطريق الواحد قد

Telegram: electronic_library

يهب لك شيئاً واحداً وقد لا يفعل، ولكن لا تتوقع منه أن يهب لك أكثر. التقينا يوم أمطرت السماء مصادفة في ذلك المكان العتيق، فهل يمكن أن تُمطر مصادفة أخرى لقاء خارج حدود جذورنا؟! لا أتوقع يا آدم فالحياة فرصةٌ واحدة ومصادفة واحدة ولقاءٌ واحد وإن قطعنا الوصال مع أحدها لن تهب لنا غيره.

جاء يومها المنتظر منذ سنوات. كانت رائعة بفستانها الأبيض وأجمل منه كانت ابتسامتها وذلك الرضى الذي يملأ وجهها. من يعرف قصة حبهما وحده من يعرف سر كل ذلك الفرح ومقعدهما الذي بقي خالياً منهما، لم يلاحظا وجود أحد واستمرا في الرقص حتى آخر لحظة، كم هو جميل شكل السعادة وهي ترتدي اللون الأبيض؟ أجمل أنواع الفرح ذلك الذي يلبس الأبيض ويجعل منها زوجة بعد أن كانت لسنوات حبيبة.

كان هذا أول يوم لفرحها وأول يوم لحزني، فقبل أن أجهز نفسي لحضور عرسها جهزت حقيبتي، كانت حبيبتي ممتلئة بالفرح وكنت أرقص معها وأنا ممتلئة بالحزن كأني أودع كل شيء هنا بحفلة كبيرة أرتدي فيها ثوباً طويلاً بلا أكمام وأترك شعري بكامل حريته ولا أضع من الحلي غير خاتمك، جئت أودع أفراحي هنا وصديقتي وأنت بثوبٍ أسود يليق للأفراح والأحزان.

Telegram: electronic_library

أجلس إلى طاولة كبيرة وأحتاج إلى تركيزٍ أكبر حتى أعد مقاعدها فلا يوجد في مكان كهذا طاولات بمقعدين بل يوجد مقعدان بلا طاولة في آخر هذه القاعة وهما غالباً فارغان فكل حبيبين في يومهما هذا لا يحتاجان إلى الجلوس لأنهما أتعبا مقاعد المقاهي وأتعبتهما، فبعد هذا الانتظار الطويل يحين موعد الرقص..

جاء عطرك يخترق حواسي فبداية قصتنا كان سببها عطراً أو ربما لحناً..

- كيف حالكِ؟

كنت قد اخترت مقعدك إلى جانبي وجلست وربما لشرودي أو صوت الأغاني المرتفع لم أشعر بك. تخيل يا آدم بعد أن دلني عليك لحنك أصبحت لا أسمع صوت وجودك! عطرك فقط من تحرش بي يومها وشعرت أني أتوهم أو أن هناك من يشاركك في العطر نفسه، «كيف حالك» هي جملة البداية لكل حديث ونحن اللذان لم نهتم يوماً كيف يبدأ حديثنا، أصبحنا مثلهم نبدأ بسؤالنا عن الحال وغالباً لا يهمنا جواب هذا السؤال وأنا أصبحت لا أهمك...

لم أكن أحتاج إلى النظر إليك بعد الآن، بل كنت خائفة أن

Telegram: electronic_library

أنظر إليك، ما زلت يا آدم أضعف من عينيك فأجبتك من دون عينين:

- بخير.

- أتمنى أن يعود الوقت بنا إلى الوراء.

- لمَ؟!

- كنت سأتجنب لقاءكِ.

- تستطيع تجنبه الآن.

- ليتني..

كم تحتاج من الخسارات لتمسك قلماً وكم تحتاج منها لترك وطن، كل إفلاس معنوي هو ربح أدبي أو اكتظاظ عربي في المنفى. لا أعرف إن كان البشر متشابهين في الهروب، لكننا نحن أصحاب لغة الضاد لا نُجيد غيره، فأوطاننا لا تشفي جرحاً وحتماً المنفى لا يفعل، لكنه يضيف بعض الثلج إليه. أما وطني فحرارته مرتفعة دائماً، إما محموم وإما محترق. نحتاج أن تأخذ الشمس منا استراحة والسياسيين، قلت لي يوماً «للمطارات النصيب الأكبر من أوجاع البشر.. الحنين، والوداع، وبقايا الأحبة». الوداع لا يوجد في مطارات بغداد، أو مطار بغداد فللإجراءات الأمنية لا يدخل المطار غير المسافرين وعلى بعد مسافة طويلة يتم الوداع

Telegram: electronic_library

حتى تصل إلى صالة الانتظار وعطر من عانقك قد اختفى منك تماماً، وبقايا الأحبة، لم أفهم ما تقصد منها؛ كيف يكون للحبيب بقايا وإن رحل؟ لكن في هذه القاعة الشاحبة بشاشتها الكبيرة التي تعرض مواعيد الرحلات وكراسيها المتجمدة ووجوهها التي لا تشبه غيرها في الدهشة والأمل وكومة الدموع كنت أنظر إلى خاتمك وهو ما زال في يدي، لا أعرف ماذا يفعل هنا معي، تجاهلته لأنظر إلى الوقت في ساعتي لكنها هي الأخرى كانت منك، لِمَ بقاياك هكذا دوائر ضيقة بمحيط لا يسمح للتنفس تخنق الوقت والهواء والنسيان..

كأني أضعك على الطاولة وأفتش عنك تحتها، تنقر الأفكار رأسي ما عساي أضعت وما حجم خسارتي؟ كأنك المولود الأول الذي يُخسر عادةً لأن الرحم ما زالت فتية ومهما نضجت هذه الرحم وأعطت لا تنسى أول طرحها. أولية الأشياء فينا لعنة تلتصق إلى ما بعد النسيان فكيف أنساك؟! وأنت انشطار روحي الأول ووضعي الأول، حبك أقسى من أن يُنسى أو أن تضرب الحياة عليه ضرسها. لن تكون يوماً تحت رحى النسيان، كهرم أترك هذا الحب في بلد اللّاحب، في بلد تُحجر كل الأشياء حرزاً. أحوك

Telegram: electronic_library

من خيوط هذا الفجر آخر قصتنا وأنشرها في باحة الانتظار. أي القصص نعيش لتمنع طائرة في بلد عربي من الإقلاع؟!

في أي العصور نكون لتلحق بي على حصان؟!

أهكذا تأتي النهاية مستترة الحروف! أهكذا تسير على أطراف أصابعها حتى لا تخدش جسد حبنا الميت؟! يخيل إلينا أن بعض القصص تنتهي بزلزال يُرقص أرض الواقع فتهابه، لكننا في بلد الصمت فلا أتوقع من نهايتنا زلزالنا، تكفي ضجة رحلة أو دموع مظلة في بلاد لم تبكِ فيها مظلتي يوماً..

انتهى..

٤:٤٠صباحاً

٢٠١٤/٩/٣٠

Telegram: electronic_library

وطني حزين أكثر مما يجب
وأغنياتي جامحة وشرسة وخجولة.
سأتمدد على أول رصيفٍ أراه في أوروبا
رافعاً ساقي أمام المارة،
لأريهم فلقات المدارس والمعتقلات التي أوصلتني إلى هنا.
ليس ما أحمله في جيوبي جواز سفر
وإنما تأريخ قهر.

عدنان الصائغ

Telegram: electronic_library

وحده الحب يجعلنا طيوراً ووحده من يقتل فينا تلك الأجنحة التي تحلق عالياً بعيداً أو تعد حصى الطرقات.. أن تهب لك الحياة قطعة شكولاته لن تكن مسؤولة عن تاريخ صلاحيتها؛ إن استمتعت بها أو تسممت بسببها لا تلمها، لمُ من وضع تاريخاً لهذه السعادة، غالباً نحن من نضع فترات زمينة معينة لكل شيء ولا يخلو كلامنا من الأبدية التي لا نؤمن حتى بوجودها، سيئة هي هذه الحياة بالقدر الكافي الذي يسمح لها أن تهب لك مفاجأة في غير وقتها وما أكثر مفاجآتها كأن تهدي إليك ظروفاً مغلقة على عدد أيامك فيها وتسمح لك بأن تكشف سر بعضها والبعض الآخر تخُبئه لك إلى وقت ضيقك، إما أن تُطيرك فرحاً وإما أن تُسقطك من شاهق، وعموماً الحياة تحُب المرتفعات فاحمل على ظهرك مظلتك المتهرئة وواجه الريح معها وقم كما تفعل في كل مرة تسقط فيها ولا تعاتب مظلتك فقد نخرها جميع من حولك.

زينب فلاح الشمري، من مواليد شباط/ فبراير ١٩٨٧، عراقية من بغداد، حاصلة على بكالوريوس هندسة / الجامعة التكنولوجية

ISBN 978-614-432-377-9

9 786144 323779